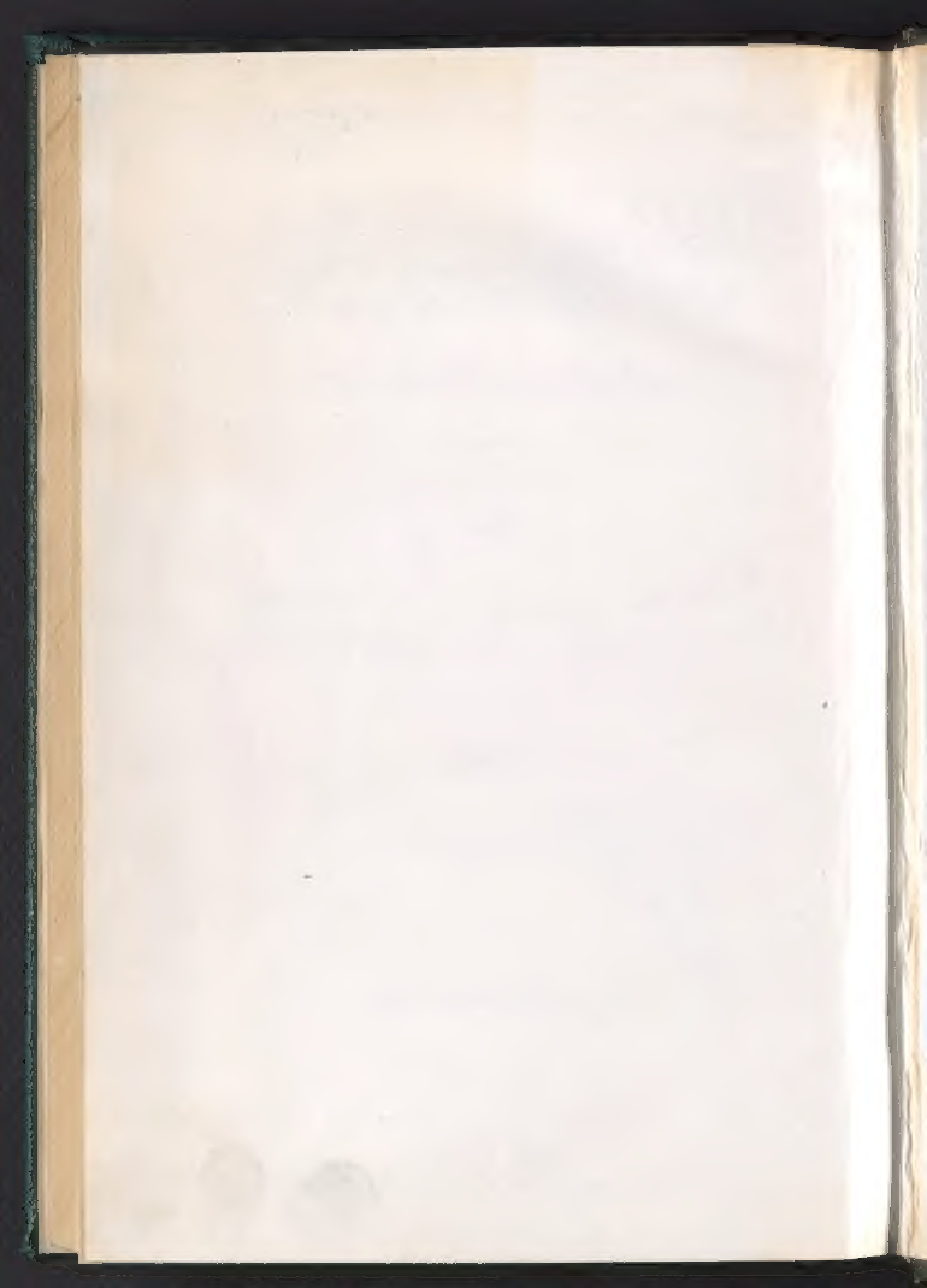

AMERICAN UNIV IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00951 7875







معالم تاريخ العصور الوسطى

حسب المنهج الجديد للسنة الثانية بالمدارس الثانوية

تأليف

محمد رفعت
أستاذ التاريخ بمدرسة المعلمين العليا

و

محمد احمد حسونه
المفتش بوزارة المعارف العمومية

(الطبعة الاولى)

نوفمبر سنة ١٩٢٥

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أول ما كتبنا فى موضوع هذا الكتاب كان غرضنا مساعدة طلبة مدرسة المعلمين العليا ، فلما عدل منهج التاريخ بالمدارس الثانوية وتقررت دراسة العصور الوسطى فى السنة الثانية ، اصبحت الحاجة ماسة الى وضع كتاب يناسب مستوى طلبة هذه المدارس ، ويلم بكليات المنهج وجزئياته

لذلك عولنا على اصدار هذا الكتاب رجاء أن يسد فراغاً فى تاريخ العصور الوسطى لاتوجد فيه كتب باللغة العربية فيما نعلم . وغاية مانرجوه أن يجد فيه الطالب خاصة ، والمتعلم عامة ، مرشداً ومعيناً . ومن أراد التوسع فى الموضوع ولا سيما فيما له علاقة بتاريخ اوربا ، فليرجع الى الطبعة الخاصة بطلبة مدرسة المعلمين العليا م

أول نوفمبر سنة ١٩٢٥ — محمد رفعت : محمد احمد حسونه

تنبيـه مهم

ينبغى اصلاح هذه الأغلاط المطبعية قبل الشروع فى مطالعة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٤	Autrasias	Austrasia
٢٣	١٠	٧٨٦	٦٨٧
٢٤	٦	اللعب	اللقب
٦٦	١٤	٨٦-٩٦هـ	٨٦ - ٩٦ هـ
٨٨	٥	فى أكبر	فى أنه أكبر
٩١	٦	٤١٨	٨١٤
١٠١	١٦	ومحاولة	محاولة
١٢٩	٥	قصر	قبر
١٣١	٩	برندبرج	برندنبرج
١٤٧	١٩	Reudolf	Rudolf
١٦٣	٥	الناصر	العاضد
٢٠٠	١٩	٣٧٣٢	٧٣٢
٢٣٧	١٤	البكجيرية	اليكجيرية
٢٤١	١٣	تقضى	تقضى

الفهـــرس

الخرائط

فهرس الصور

موضوعات المنهج الجديد

للسنة الثانية الثانوية

دراسة تاريخ [illegible] في الشرق [illegible] دراسة عامة مع العناية

[illegible] العرب

أ – [illegible] قبل ظهور الإسلام

ب – ظهور سيدنا محمد [illegible] الخلافة ومدنية العرب

ج – ظهور الدولة [illegible] والدولة [illegible]

د – الحروب الصليبية [illegible]

هـ – [illegible]

و – [illegible]

ز – [illegible]

ح – [illegible]

ي – [illegible] من [illegible] العرب [illegible]

ط – [illegible] العرب [illegible]

ك – [illegible]

الفصل الأول

سقوط الدولة الرومانية الغربية

والشعوب المتبربرة

في القرن الثالث الميلادي كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى نهر الفرات شرقاً ومن الصحراء الكبرى جنوباً الى الطونه والرين شمالا. وكان يسكن الامبراطورية أقوام يختلفون جنساً ولغة وعادة وديناً. فكانت رومة تغرس فيهم حضارتها بمجرد إستعدادهم لقبولها. فمتى تم فتح اقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية واذا أخذ أهله في السكينة منحوا حقوقاً مدنية تشابه حقوق أهل رومة نفسها. وقد تمت المساواة في الامبراطورية سنة ٢١٥ م حين أصدر الامبراطور كركلا مرسوماً باعطاء جميع الاحرار من سكان الامبراطورية الحقوق التي كانت قاصرة على أهل رومة وباعتبارهم مواطني هذه المدينة. لانه رغم الفروق التي كانت تفصل كل ولاية عن الاخرى شاعت بين الجميع مبادىء التهذيب الروماني وانتشرت عوامل الحضارة الرومانية. فجعلت الجهات المختلفة تسمو شيئاً فشيئاً الى المستوى الراقي الذي كانت رومة نفسها قد بلغته من قبل

وبسبب تنائى أطراف الدولة وصعوبة الدفاع عن حدودها ، لم يتسع المجال أمام الاباطرة لغزو القبائل المتبربرة التي كانت تتاخم حدود

الدولة فى أوربا. فاقتصروا على بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين الحدود وأنشأوا الطرق لتسهيل تسيير الجيوش وتعبئتها. ولما انصرفت رغبة الرومان عن الانخراط فى سلك الجيوش لجأ القواد والأباطرة الى تجنيد المتبربرين فى رتب الجيش المختلفة. فما صار منهم رؤساء استكثروا من بنى جلدتهم حتى تفوق العنصر المتبربر فى الجيش والادارة. وسيطر المتبربرون على الامبراطور والحكومة. وعرفوا مواطن الضعف فى الدولة ومهدوا السبيل للهجوم العام فى القرن الخامس

وأهم هذه الشعوب المتبربرة التى كانت تسكن وراء حدود الدولة وتغير عليها من حين لآخر قبائل الكلت والجرمان والصقالبة

الكلت

فى القرن الرابع قبل الميلاد كان الكلت يقطنون «غالة» وهى فرنسا الحالية، والجزر البريطانية، وكانوا يعيشون قبائل، كل قبيلة تكوّن دولة يحكمها أشرافها. ولم يكن للسواد الاعظم نصيب فى الحكومة. بل كانت السلطة فى يد جماعة من الاشراف ويسمون «درويد Druids» كانوا رؤساء الدين وقضاة ومرجعاً أعلى فى جميع الامور الاخرى، كلمتهم قانون. ومن خرج على مخالفتهم حرموا عليه سيف الحرمان الذى يشبه الحرمان البابوى فى العصور الوسطى

وكان الكلت كبار الاجسام أقوياء شجعاناً مخاطرين فى الحروب مولعين بالموسيقى ولا سيما الحربية التى كانوا يتقدمون للقتال على نغماتها الحماسية. مولعين بالشعر تؤثر فيهم بلاغة الخطباء. وكانت لغتهم كاملة

التكوين يمكن بها التعبير عن أنواع شتى من الافكار والعواطف ، كذلك كانوا شديدى الحماسة لزعمائهم لا أنهم كانوا سريعى التقلب والتحول متى أخذت الويلات حماسهم



رئيس كلتى

وبعد أن فتح « يوليوس قيصر » غالة ، سرت فيها مبادىء الحضارة

الرومانية فاصطبغ الكلت هنالك بالصبغة الرومانية تماماً. ونسى أكثرهم لغتهم الأصلية وجعلوا يتكلمون اللاتينية، فأنشأوا مدناً كثيرة ذات معابد وحمامات ومسارح للتمثيل لا تفرق كثيراً عن المدن الرومانية. أما من الكلت الذين كانوا يسكنون بريطانيا وايرلنده فبقوا على سذاجتهم وتعدائهم لرومة

الجرمان

كان الجرمان يسكنون الاراضى الواقعة بين نهرى الرين والفستولا وبين بحر البلطيق ونهر الطونة، يتاخمون الدولة الرومانية على امتداد نهرى الطونة والرين. ويمكن تقسيمهم بوجه عام الى ثلاثة أقسام :—
الجرمان الغربيين ومنهم الفرنجة والالمان والسكسون، والجرمان الشماليين ومنهم الدنمرقيون وأهل اسكنداناوة، والجرمان الشرقيين ومنهم القوط والوندال

كان الجرمان يعيشون قبائل مستقلة، وكان نظام حكومتهم ديمقراطياً فكان أحرار كل قرية يشتركون فى تدبير أمورهم المحلية، أما الشئون العامة التى تهم القبيلة كلها فيشترك فى تدبيرها جميع أحرار القبيلة. وأما من الوجهة الاجتماعية فكانوا ثلاث طبقات الاشراف والعامة الاحرار والرقيق، وكان الاشراف يتمتعون بميزات خاصة فى المجتمع ولكن صوت الرجل الحر كان مساوياً لصوت الشريف فى الجمعية العامة

وكان من عادة الجرمان أن يلتف فريق من الشبان حول فارس مشهور بالشجاعة والخبرة بالحروب يعيشون معه ويصحبونه فى غزواته،

وكان الفارس يفخر بكثرة من حوله من الشبان لانهم يشيدون بذكره ويساعدونه على نيل مآربه

وكانوا يعبدون الطبيعة، ويجلون الغابات وما يشبهها من الظواهر الغريبة، ولم تنشأ بينهم طائفة من القساوسة كما نشأ بين الكلت والصقالبة

أما معيشتهم فكان قوامها الرعي والزراعة والصيد وكان أكثر العاملين فى الزراعة والرعي من الرقيق والنساء. وكانوا لا يميلون الى انشاء مدن مكتظة بالسكان، بل يفضلون الاقامة فى منازل متباعدة وسط الريف. وكان الجرمان ضخام الاجسام أقوياء البنية حمر الوجوه يضرب شعرهم الى الشقرة. ولوعين بالحرب والخمر والميسر وبلغ من شغفهم بالميسر أنهم كانوا يقامرون بأولادهم ونسائهم بل وبحريتهم

الصقالبة

أما القبائل الصقلبية فكان مقامها شرقى الجرمان فيما يسمى الآن روسيا. كان كل تحرك الجرمان غرباً أو جنوباً تبعتهم القبائل الصقلبية واحتلت ما هجروه من البلاد حتى وصلوا الى نهر الالب غرباً

وكانت حكومتهم ديمقراطية الا أن النفوذ الاكبر كان للشيوخ أما دينهم فكان ضرباً من الوثنية، وكان لرجال الدين نفوذ في السياسة والحرب. وعلى الرغم من ضخامة أجسامهم لم يكونوا مطبوعين على الغزو. ولضعف إحساسهم بالقومية سهل امتزاجهم بالاجناس الاخرى وصبغ كثير منهم بالصبغة الجرمانية من بعد القرن التاسع الميلادي

بدء غارات القبائل المتبربرة

نقصد بالبرابرة القبائل السالفة الذكر التى كانت تسكن شمال الدانوب وشرقى الرين وقد واصل الأباطرة خطة أغسطوس الدفاعية إزاء هذه القبائل فاكتفوا ببناء الحصون ووضع الحاميات على الحدود. ولما كانت هذه الحدود ممتدة مترامية لا يسهل فيها إحكام الدفاع وخاصة بعد أن دب الضعف فى جسم الدولة بدأ البرابرة يشنون الغارة عليها

مبدأ العلاقات البرابرة بالدولة

وقد كانت العلاقات فى أول الأمر بين الدولة والبرابرة قاصرة على تبادل التجارة. ثم تدخل البرابرة حباً فى الاستطلاع وطلباً للرزق ورغبة فى تمتع بنظام الحكم الرومانى، ثم بدأوا يدخلون فى خدمة الجيش وعلى العموم يمكننا أن نقول إنه قبل سنة ٣٧٤ م كان وجود البرابرة داخل الامبراطورية قاصراً على استخدامهم فى الجيش وفى الإدارة، وأما بعد هذا التاريخ فبدأ تدخلهم الحربى الذى أدى إلى استيلائهم على ممتلكات الدولة وكان وجودهم فى الجيش والإدارة قد مهد لهم طريق احتلال البلاد

بدء الغارات

بدأ الهجوم العام للقبائل المتبربرة فى أواخر القرن الرابع، وأثناء القرن الخامس بعد الميلاد. والسبب فى هذه الحركة ظهور قوة جديدة من جهة الشرق دفعت هذه القبائل أمامها جنوباً وغرباً. جاء هذا الضغط من ناحية قبائل «الهون» وهم من الجنس المغولى وموطنهم الأصلى وسط آسيا. بدأوا يزحفون غرباً فدفعوا أمامهم القبائل [illegible] أو الجرمانية

القوط الغربيون

لما اندفع «الهون» إلى أوربا وصدموا القوط الشرقيين على نهر «دنيستر»

هرع هؤلاء الى المعونة يضرعون الى الامبراطور « فالنز Valens » أن يسمح لهم بدخول بلاده . فأذن لهم بالاقامة فى شمال البلقان لأن أكثره كان قد خربته الحروب فأصبح غير مزروع فعبر الطونة منهم عام ٣٧٦ عدد يربو على مئة ألف وقد تخوف منهم الإمبراطور الا أنهم غزوا ونهبوا البلاد سنة ٣٧٨ وخف الامبراطور لإخضاعهم فقتل فى موقعة أدرنة وتبدد شمل جيشه . وقد كشفت هذه الموقعة ضعف الجيش الرومانى بعد أن صار أكثر رجاله وقواده من المتبربرين فطمع القوط وغيرهم فى أملاك الدولة وجعلوا يزحفون اليها بأولادهم ونسائهم

موقعة أدرنة ٣٧٨ م.

وحمل الامبراطور « تيودوسيوس » فانتصر على القوط وعاهدهم سنة ٣٨٣ على أن يمنحهم أرضاً فى تراقيا وآسيا الصغرى واشترط عليهم أن يقدموا لجيشه كل سنة ٤٠ ألف جندى يقودهم ضباط من القوط تحت اشراف الامبراطورية . ولم يظهر خطر ذلك أثناء حكم « تيودوسيوس » لشدة بأسه ، ولكن لما خلفه ابناه الضعيفان « أركاديوس » فى الشرق و « هونوريوس » فى الغرب وعاصمته « رافنا » التى اختارها لمنعتها وكثرة المستنقعات حولها ارتقى العرش القوطى الزعيم « الاريك Alaric » وهو أشهر اسم فى التاريخ القوطى . كان متحمساً لحرب طموحاً للمغامرة شريفاً فى معاملاته ومسيحياً مخلصاً نشب بينه وبين الدولة الشرقية خلاف حول أخذ العاصمة فحالت مناعتها دون مبتغاه فغزا ايطاليا سنة ٤٠١ فقابلته جيوشها عند « فرونا » تحت إمرة قائد من الوندال اسمه « ستليكوه » وطردته من ايطاليا بعد هزيمة منكرة . وعلى الرغم من ذلك تعد سنة ٤٠١ نهاية الدولة الرومانية الغربية ، إذ من ذلك التاريخ بدأ الروم يُخلون حامياتهم

عن الولايات خاضعة لهم لحماية ايطاليا نفسها ولكن لم يمض سنون قليلة حتى سنحت «لالارك» فرصة انتصار سهل، وذلك ان الامبراطور حسد قائده فأغرى به من قتله سنة ٤٠٨ م فأبى الجيش أن يخدم «هونوريوس» وانضم اكثره الى «الارك» فدخل ايطاليا واستولى على رومة. فأحس الناس أن الارض قد زلزلت، لطول اعتقادهم بأن رومة مالكة العالم، وأنها المدينة الخالدة الابدية. وتقدم «الارك» لاتمام فتح ايطاليا فمات في جنوبها سنة ٤١٠ فغادر الغوط ايطاليا وزحفوا الى بلاد الغال ومنها الى أسبانيا حيث استقر بهم المقام نهائياً وأسسوا دولة امتدت من نهر «لوار» الى البوغاز المعروف بجبل طارق وبقوا بها الى أن جاء العرب سنة ٧١١ م

قبائل البرغنديين

في منتصف القرن الثالث ترك البرغنديون موطنهم بين «الفستولا» و«الاودر» ونزلوا على المين والرين ومنحتهم الامبراطورية الجهة التي تحيط بمدينة «ورمز» سنة ٤١٣، ثم انتشروا في جنوب شرق فرنسا الى أن وصلوا الى البحر الابيض المتوسط. فبقوا مستقلين الى أن هاجمهم الفرنجة فخضعوا لهم سنة ٥٣٤ واندمجوا فيهم ولا يزال الاقليم الذي كونوا فيه مملكتهم يعرف ببرغندية الى الآن

قبائل الوندال

في شتاء ٤٠٦ – ٤٠٧ عبر عدد عظيم من «الوندال» و«السويفي» – وكلاهم قريب من الغوط – نهر الرين الاوسط وتوغلوا في البلاد على

مثل تار كين الارض بلقعاً أينما ساروا، حتى دخلوا مملكة القوط الغربيين فطردهم هؤلاء الى أسبانيا ثم عبروا الى افريقية

وكان « الوندال » جموعاً من المدمرين الهادمين والقرصان الفاتكين تحكموا فى رقاب البلاد فبادت حضارة افريقية بعد أن كانت من أغنى ولايات الامبراطورية وأعلاها كعباً فى الحضارة. ولما قام «جيسريك» فى قرصاجنة تطلع الى نهب جديد، وكانت قوته البحرية عظيمة فامتلك الجزر الواقعة فى غرب البحر الابيض المتوسط، ونهب رومة نهباً ذريعاً سنة ٤٥٥ وأصبح الوندال أصحاب السيادة فى تلك الجهة. ولكن مساخ وبقية لم يوفقهم، فضعفوا وانتشر الفساد بينهم فأخضعتهم الدولة الرومانية الشرقية سنة ٥٣٤ — محية الوندال

قبائل الهون

وفى أثناء الهرج الذى احدثه تحرك هذه القبائل واجهت أوربا خطراً داهما من ناحية الهون الفسهم إذ اتحدت قبائلهم بين الرين والولغا سنة ٤٤٤ بزعامة قائدهم « اتلا » الذى تمكن من اعداد جيش أكثره من الهون والجرمان وجعل يغير على الدولة الرومانية الشرقية

ثم اخترق ألمانيا وأراد الهجوم على فرنسا وكان تعصبا بيد الرومان — هجوم الهون والبعض الآخر بيد قبائل الجرمان كما تقدم فاتحد الجانبان على مقاومة «اتلا» فقابلاه سنة ٤٥١ بقيادة آخر قائد رومانى عظيم وهو ايتيوس فهزمه فى « شالون » فتقهقر «اتلا» عن طريق الطونة. وفى السنة التالية اخترق ممرات الالب الشرقية وعزا ايطاليا حتى ميلان حيث تفشت — موقعة شالون

الحمى فى جيشه واجتاز جبال الألب قافلا ومات فى السنة التالية . وتعتبر موقعة « شالون » من الوقائع الحاسمة فى التاريخ إذ تخلصت اوربا من حكم الجنس المغولى فى بلادها . وكان « اتلا » قد أوقع الرعب فى قلوب الرومان والجرمان ، فأطلقوا عليه لقب « عذاب الله » . وبموته تفرقت القبائل . واستقلت كل العشائر الصقلبية والجرمانية التى كانت خاضعة لحكمه ، وعرست للاستفادة من ضعف الدولة الرومانية ، بإعادة الكرة عليها ، كما كانت تفعل قبل هجوم الهون »

نهاية الدولة الرومانية فى الغرب : رغم كل ما وقع بقى طيف الامبراطورية فى ايطاليا وبقى فى « رافنا » شخص يسمى نفسه امبراطوراً حوله حاشية ضخمة . أما القوة فكانت بيد القواد الذين تعاقبوا على قيادة الجنود وحكموا البلاد باسمه وكانوا متبربرين ، حتى إنه سنة ٤٧٦ توج أحدهم وهو « ارستيز » Orestes ابنه « رميولس اغسطيولس » Romulus Augustulus امبراطوراً وكان يريد أن يحكم بالنيابة عنه ، لكن الجند ثاروا بقيادة زعيم يسمى « أدوكر » Odoacer فقتلوا « ارستيز » وعزلوا ابنه وبقى « ادوكر » صاحب الامر ولو أراد تتوج نفسه أو غيره امبراطوراً ولكنه لم يفعل بذلك بل أرسل الى القسطنطينية التاج وبقية شارات الملك معلناً أن ايطاليا ليست فى حاجة الى امبراطور خاص وطلب أن يمنح لقب حاكم ايطاليا فكان ذلك بمثابة اعتراف منه بسيادة الدولة الشرقية على ايطاليا وإن لم يكن لها غير الاسم بينما كان بيد « أدوكر » كل القوة

وبذلك انتهت فى سنة ٤٧٦ الامبراطورية فى الغرب التى فيه

نشأت والذي كان عماد قوتها . وان في قياصرة الشرق يعتبرون أنفسهم
رومان باشكال شتى ، نحو ألف سنة أخرى

القوط الشرقيون

انتصار « ادوكر » سنة ٤٧٦ صارت إيطاليا في قبضته رغم خضوعه
للامبراطور صوريا وكان يؤيده جيش عظيم أكثره من الجرمان فحكم
البلاد حكماً قوياً وأعاد الامن إلى نصابه وبفضل القوانين فبدأت البلاد
تفيق من آثار العسف والظلم وشرع الرخاء يرجع إليها لولا أن فاجأه
عدو جديد وهم القوط الشرقيون .

أقام القوط الشرقيون مدة على نهر الطونة الاوسط وضطروا
للخضوع للهون واشتركوا في انتصارات « اتلا » وهزائمه ، ثم استقروا شرقي
البحر الادرياتي ، تحت حكم ملكهم العظيم « تيودوريت Theodoric »
الذي قضى عشر سنين في القسطنطينية خبر اثناءها أحوال البلاد الاجتماعية
والمدنية ، وعرف مواطن القوة والضعف في الامبراطورية . وفي سنة ٤٨٩
حرضه الامبراطور « زينو Zeno » الذي كان يود التخلص من
« أدوكر » بأيه وسيلة ـ على غزو إيطاليا ، فغزاها بجميع قومه وهزم أدوكر
في ثلاث مواقع واتفق تيودوريت وأدوكر أن يحكما البلاد معاً ، لا أنه
اثناء الاحتفال بالصلح قتل أدوكر وصار أمر إيطاليا بيد تيودوريت

حكم تيودوريت — أبدى تيودوريت نشاطاً واسع النطاق وحاول أن ينشيء مملكة
قوية على أساس متين فأقام في « رافنا » وأضاف كثيراً إلى مبانيها
وكنائسها مشتركا معه في بنائه وسياسته نوابغ الروس وقلد مراسم

وشكل حكومة لدولة الشرقية ، وكان غرضه الجمع بين قوة القوط وحضارة الرومان

وعاشت ايطاليا فى هدوء غير معهود إلى أواخر حكم تيودوريك إذ اصلح الطرق وخفف المستنقعات وحافظ على الأمن وأقام ميزان العدل وشجع الزراعة فبدأت التجارة تنتعش بعد أن اضمحلت حتى اعترف الناس « أن ايطاليا قد هدأ روعها بعد عواصف الحرب الدائمة » وكانت له القوة الكبرى فى ايطاليا وغرب أوربا ، تربطه صلات المصاهرة أو المحالفة مع أكثر الممالك المتبربرة التى أنشئت أخيراً من برغنديين وفرنجه وقوط غربيين ووندال وكانوا جميعاً يعترفون له بالمنزلة الأولى لانه عند موته سنة ٥٢٦ تبدد ملكه لعدم وجود وارث له

قبائل الانجليز والسكسون والجوت

لما أخذت لدولة الرومانية فى الضعف اضطرت إلى سحب حامياتها من جهات النائية لتحمى وطنها الأصلى من غارة « ألارك Alaric » فتركت الرومان بريطانيا بعد أن نسى أهلها صفاتهم الحربية الأولى ، وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم . فأغارت عليهم قبائل « الانجليز » و « السكسون » و « الجوت » الذين جاءوا من ألمانيا أثناء القرن الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية وسهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية وأصبحت البلاد تعرف باسم « انجلند » أى أرض الانجليز ولذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

كان الانجليز وثنيين عند ما هاجموا بريطانيا وأولعوا بنهب الاديرة والكنائس. وسكن البابا «غريغورى الكبير» أرسل اليهم الراهب «أوغسطين» سنة ٥٩٧ م. فانتشرت المسيحية بين الانجليز أنفسهم وارتبطوا من ذلك العهد باسقفية رومة. أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متناوئة وبقيت فى نزع وشحناء حتى تغلبت «وسكس» (أى مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥ وأصبح «اجبرت Egbert» ملكا على انجلترا كلها

قبائل اللمبارد فى ايطاليا

(٥٦٨ — ٧٧٤)

نزل بايطاليا قوم متبربرون من الجنس الجرمانى يسمون باللمبارد وكانوا قوما همجيين ووثنيين فطنوا شمال ايطاليا فى وادى نهر «بو» ولا يزال هذا الجزء معروفا باسمهم للآن. وقد استولوا على كل ايطاليا، عدا أماكن معينة كانت تحميها الامبراطورية الشرقية بأسطولها مثل صقلية وقرشقة وسردانيا

وقد تحسنت العلاقات بين اللمبارد وأهل ايطاليا، على أثر تحول اللمبارد الى مذهب كنيسة رومة. فأصبح من المستطاع الاختلاط والتزوج، فتركوا بذلك اسمهم فى شمال ايطاليا، وبقوا عنصرا فى سكان البلاد وحضارتها. بينما لم يترك القوط الغربيون ولا الشرقيون أثرا بعدهم،

الفرنجة

الفرنجة قوم من قبائل جرمان يبدأ تاريخهم الحقيقي من سنة ٤٨١م
وهي ابتداء حكم ملكهم «كلوفس» وكلودوج «Colodwig» حين كان
موطنهم وادي الرين الأسفل، والشلد والموز إلى دوفر

حالة بلاد الغال

وكانت بلاد الغال متنازعة بين دول مختلفة فكان وادي السين
تحت العلم الروماني يحكمه «سيجريوس Syagrius» وكانت تلك
الجهة آخر ما بقي من الدولة الرومانية شمال جبال الألب. وكان القوط
الغربيون يقيمون جنوب نهر اللوار. والبرغنديون يسكنون حوض الرون
وما يليه شرقاً، والألمان Alamann ينزلون في أعالي الرين والغابة
السوداء وكل هذه الجهات امتلكها كلوفس قبل موته. ووقعت له
أثناء قتال الألمان قصة أهم من كل انتصاراته في تاريخ الفرنجة، وذلك أنه
بتأثير زوجته وكانت برغندية مسيحية ـ نذر أن يعتنق المسيحية
إذ كان إله المسيحيين النصر. فلما انتصر اعتنق الدين المسيحي على

الفرنجة والكنيسة

مذهب الكنيسة الغربية سنة ٤٩٦ وتبعه كثير من الفرنجة، فبدأت
العلاقات الودية بين الكنيسة وملوك الفرنجة، وبقي هذا الاتفاق قروناً
طويلة. وسهل على الفرنجة احتلال الأقاليم المجاورة، وتكوين مملكة عظيمة

ولما مات كلوفس سنة ٥١١ قسمت أملاك الفرنجة بين أولاده
الأربعة ولكنهم رغم ذلك وسعوا ملكهم بالتغلب على ثورنجيا وبرغندية
وبفاريا

وبدأ الفرنجة في الغرب يتأثرون بحضارة الرومان تأثراً سريعاً،

واختلفوا بذلك عن اخوتهم الذين بقوا فى الشرق محافظين على نظمهم وعاداتهم الجرمانيـة ، وساعد على هذا الانفصال بقاء القسمين الشرقى والغربى مدة طويلة تحت حكم ملكين متعاديين ، وسمى الجزء الشرقى « استراسيا Autrasia » والغربى « نستريا Neustria » وكان العنصر الجرمانى متفوقا فى استراسيا التى نشأت منها المانيا الحديثة ، بينما التأثير الرومانى كان غالباً فى « نستريا » التى صارت فرنسا فيما بعد

حجاب القصر او نظار السراى

ولما عظم قصر الملك أيام كلوفس «عين على خدمه ناظراً يشرف عليهم صار مسئولا عن ادارة القصر وكانت الوظيفة حقيرة فى أول أمرها الا أن صاحبها صار الواسطة بين الملك والرعية فعظم شأنه تدريجا حتى أصبح وزيراً مسيطراً على الملك . وقد تمكن ببين ٧٨٧ - ٧١٤) من الاستقلال بهذه الوظيفة فى استراسيا واستولى بعد حروب طويلة على نستريا فصار يحكم جميع الفرنجة ووضع بذلك أساس دولة شرلمان الشهيرة وجاء بعده ابنه شارل مارتل (٧١٤ - ٧٤١)

شارل مرتل

وسع شارل مملكته شرق الرين بانتصاره على السكسون والفاريين وعاضد الكنيسة داخل بلاده وخارجها كما عضدها كل ملوك الفرنجة من بعده وشجع المبشرين على نشر المسيحية بين الجرمان شرقى الرين ، فحسنت العلاقات بينه وبين البابا وفى عهده حدثت موقعة «تور سنة ٧٣٢» التى انتصر فيها شارل على عبد الرحمن الغافقى عامل بنى أمية على الاندلس ، وخلفه ابنه ببين فى الحكم

الفرنجة و...

وفى هذه الاثناء كان اللمبارد قد انتزعوا من الدولة الشرقية كل شمال إيطاليا ، وجاروا على الأراضى التى كان يحكمها البابا بالنيابة عن الدولة

فحتاج البابا الى حليف يشد أزره على اللمبارد ولم يكن في استطاعته أن يستعين بالامبراطورية لما كان بين رومة وقسطنطينية من العداء الشديد ولهذا استجار البابا بحاجب الفرنجة وكان «ببين Pepin» يتطلع الى التاج ويخشى العاقبة، فأرسل وفداً الى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكاً، أصاحب اللقب الذى لا قوة له أم صاحب القوة الذى لا لقب له؟ فأفتى البابا أن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضاً، فتشجع «ببين» بفتوى البابا، وجمع الاشراف ورجال الدين فوافقوا على عزل الملك القديم، وحملوا «ببين» على أعناقهم حسب عاداتهم وولوه ملكاً. وعرفت سرته باسم الاسرة «الكارولنجية» نسبة الى ابنه شارل أو شارلمان. وكان

ملك الفرنجة

لهذا التتويج شأن عظيم فى نظريات الملكية لان الملك كان ينتخبه أشراف البلاد، فلما وافقت الكنيسة على تتويج ببين ومسحته ملكاً أصبح منصب الملك مقدساً لا يستطيع أحد أن يتعرض له دون أن يستهدف لسخط الكنيسة فأصبح مركز الملك مصوناً من كل اعتداء ونشأت نظرية الحق الالهى التى مؤداها أن الملك يستمد قوته من الله تعالى

ببين فى ...

وفى سنة ٧٥٤ تقدم ببين الى ايطاليا وهزم اللمبارد، وأجبرهم على رد أكثر ما استولوا عليه من الاقاليم، وقدمه منحة للبابا وصار البابا يحكم ما بين رافنا ورومة كأمير دينوى نائب عن الملك وتابع له، وبهذا تكون ما يعرف فى التاريخ باسم «ميراث القديس بطرس»

وقضى ببين بقية حياته فى إصلاح شئون بلاده وتمهيد الطريق لقيام دولة شرلمان

الدولة الرومانية الشرقية

الامبراطور جستنيان Justinian ٥١٧ — ٥٦٥ م

على الرغم مما أصاب الغرب بسبب غارات البرابرة ظلت الدولة الرومانية الشرقية قائمة محتفظة بقوتها ومدنيتها مدة ألف سنة بعد سقوط رومة. وذلك بفضل مناعة قسطنطينية وخيرات آسيا التي كانت تتدفق إليها واتساع مساحتها بعد فقد الغرب، إذ أن ذلك سهل مهمة الدفاع عنها. إلا أن الدولة لم تكن رومانية إلا اسماً فقط والحقيقة أن مدنيتها ولغتها وجنسيتها أصبحت إغريقية

ومن أعظم الأباطرة الذين أصلحوا حال الدولة «جستنيان» وليس في تاريخ الأباطرة أشهر من اسمه. كان جستنيان ذا مقدرة عظيمة له ولع بأشياء كثيرة كالبناء والقانون والدين والتجارة والصناعة والحرب والسياسة والإدارة. وكان قوي الإرادة يحسن اختيار الرجال. ومن الأسماء الملازمة لاسمه اسم زوجته «تيودورا» التي تزوجها وكانت من الممثلات وقد لعبت دوراً هاماً في تاريخ جستنيان. واسم قائده «بلساريوس» الذي أحرز انتصارات عظيمة عسكرية ورفع شهرة الجيوش الرومانية إلى أعلى مستوى بلغته في عصرها

فتح افريقية

فلما أحس الإمبراطور بقوة جيشه ومهارة قائده التفت إلى الولايات الغربية التي لم يزل يعتبرها جزءاً من ملكه. وأول ما وجه ضرباته على أفريقية التي دخلها بلساريوس عام ٥٣٣ ووجد «الوندال» في حالة لا يستطيعون معها المقاومة ففتحها في بحر سنة واحدة

استرجاع ايطاليا

وبعد فتح أفريقية توجه بلساريوس الى غنيمة أكبر فعبر ، ومعه ٧٥٠٠ رجل إلى صقلية فحتلها بدون مشقة عام ٥٣٥ . ونزل بجنوب ايطاليا فى السنة التالية فوجد القوط الشرقيين قد انحطوا كثيراً وإن لم يصلوا الى درجة الوندال . ولذا اكتسح «بلساريوس» كل شىء أمامه فسقطت نابلى وروما . وعبثاً حاول القوط استرجاع رومة بجيش قدره ١٥٠٠٠٠ مقابل ٥٠٠٠ كان يقودها بلساريوس

وفى سنة ٥٤٠ سقطت رافنا بسبب الجوع وعصيان الجند وعاد بلساريوس منتصراً إلى قسطنطينية فصار جستنيان أكبر قوة حربية ثم أضاف فى عصره جنوب شرق اسبانيا سنة ٥٥٠

استفحال قوة جستنيان

بعد هذا أخذ نجم جستنيان وقائده يأفل حتى لم تحقق نهاية حكمه الآمال التى كانت تنتظر فى أوله . إذ حصلت أزمة مالية شديدة ناتجة عن كثرة المبانى العظيمة التى شيدها والتى تشهد ببراعة المهندسين فى عصره وأهمها كنيسة «القديسة صوفيا»

صمود الفرس والصقالبة

وقد [illegible] دون نجاح تصميمات جستنيان مقاومة الفرس والصقالبة . فأما الفرس فبلغت منتهى قوتها فى عهد كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٩) فلم يستطع الامبراطور أن يخضد شوكتها بل اضطر بعد جهود كبيرة أن يدفع جزية للفرس ويتنازل لهم عن شىء من أملاكه .

وأما الصقالبة فأقاموا فى البلقان فيما يعرف الآن باسم يوجوسلافيا وبلغاريا واليونان وامتزجوا بالسكان بدرجة عظيمة

[illegible]

[illegible] فى ايطاليا فكثرت الشكوى من الجباة وساد السخط ،

فعرضت الفرصة للقوط الشرقيين ثانياً، واستردوا ايطاليا ماعدا «راڤنا» التي بقيت وحدها في يد جستنيان

الا أن الامبراطورية لم تيأس من استرجاع ايطاليا فوسلت عام ٥٥٢ ذلك الرجل المسن «نرسيس Narses» وكان ذا مقدرة حربية عظيمة. فتقدم الى ايطاليا براً ووصل الى رڤنا ثم هزم القوط وعاد ايطاليا مؤقتاً الى حكم الدولة الرومانية الشرقية

مجموعة القانون الروماني

ومما يذكر به عصر «جستنيان» تأليفه لجنة لجمع شتات القانون الروماني وبعد ختم وضع لمجموعة المعروفة باسمه، خالية من المتناقضات ومن الأغلاط، وصدرت أيضاً مجموعة من الأحكام التى أصدرها كبار المشرعين والقضاة.

واشتهر جستنيان بشدة اضطهاده للوثنية وكانت لاتزال باقية في بعض جهات شبه جزيرة البلقان وأدى به عداؤه للوثنية إلى غلق جامعة أثينا التى هى مركز للتعاليم الوثنية. وقد توالت المصائب على الدولة للأسباب التى ذكرناها وبسبب انتشار وباء فتاك قضى على عدد عظيم من سكان الدولة وعادت الحال الى ما كانت عليه قبل جستنيان

هرقل الاول

وجاء بعد جستنيان أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا حتى أن اعتلى العرش «هرقل الأول» (٦١٠ — ٦٤١) فحاول أن ينهض بها، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر «هرقل» أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها، وبسبب فداحة الضرائب الناشئة من تبذير الاباطرة

واعفاء كثير من الطبقات الشريفة منها ، وازدياد قوة الشعوب الصقلبية النازلة فى البلقان واللمبارد فى ايطاليا

نهوض الفرس

ومما زاد الحالة سوءاً نهوض دولة الفرس الساسانية التى قامت سنة ٢٢٧ ، وأول ملوكها « أردشير الأول » لدى وحدة ديانة الدولة ، ثم ما لبثت أن قويت الدولة فى عهد خلفه فهاجمت الدولة البوزنطية وأخذت انطاكية . ومنذ ذلك الوقت استمر الكفاح بين الدولتين حتى حربت الحرب آسيا الصغرى التى كانت ميدان النضال بين الجانبين احداهما تمثل المسيحية والأخرى تمثل الديانة القديمة . ولما اعتلى كسرى الأول عرش الفرس (٥٣١ — ٥٧٩) تجددت قوة الدولة الساسانية واستولى الفرس على بلاد اليمن التى كانت تحت حكم الحبش وكان كسرى من معاصرى جستنيان واشتهر بحبه للعلم والعلماء والفتوح

وفى عهد خلفه كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) كسب الفرس عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البوزنطية فأخذ دمشق والقدس عام ٦١٤ . وفى ٦١٩ استولى على مصر وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البوزنطية فى الشرق

ولكن ما كاد كسرى يستولى على هذه الأملاك حتى ظهر « هرقل » وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم فى عدة مواقع أهمها موقعة « نينوى » ٦٢٧ ولكن بينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب وما لبث أن خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الامبراطور على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا

وبينما كان أكبر ملوك الأرض إذ ذاك يجدّان فى توطيد ملكهما وتنظيم قوتهما، إذ وصلت الى كل منهما سنة (٦٢٨) رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها للإيمان بدين جديد. أما الامبراطور فلم يأبه للدعوة، وأما كسرى فانه غضب ومزق الرسالة ورمى بها فى وجه حاملها. أما الرسالة فهى رسالة الإسلام، وصاحبها محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الثانى

تاريخ العرب

بلاد العرب : حدودها وتقسيمها الطبيعى

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة تمتد من صحراء سوريا شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً . ومن البحر الاحمر غرباً الى الخليج الفارسى شرقاً . وتنقسم إلى عدة أجزاء متباينة يختلف بعضها عن بعض الآخر من حيث التربة والمناخ والسكان . وأهمها الحجاز وينحصر بين البحر الاحمر وسلسلة الجبال المحاذية له ، وفى الزاوية الجنوبية الغربية توجد اليمن ، ويطلق اسم تهامة على سهول اليمن والحجاز ، وقد يقصر هذا الاسم أحياناً على جنوب الحجاز ، وتقع حضرموت شرقى اليمن على شاطىء المحيط الهندى . وعمان شرق حضرموت وتوجد الأحساء والبحرين على خليج فارس ، وفى وسط بلاد العرب توجد هضبة نجد .

وليس بجزيرة العرب أنهار صالحة للملاحة ، انما يوجد نهيرات وسيول قليلة مبعثرة تخصب التربة حولها ، ويندر المطر بهذه البلاد ولذا كانت قاحلة . اللهم إلا حول الأمواه ، حيث الخصوبة موفورة كما هو الشأن فى ودبان اليمن حيث يزرع البن والنيلة والنخيل وأشجار الفاكهة أنواعها وحيث الجو مائل الى البرودة شتاء .

أما الحجاز فكثيرة الأنجاد والوهاد ، ولاسيما حول مكة حيث تسطع أشعة الشمس المحرقة على صخور وعرة ووديان مقفرة ، قليل كلؤها ضئيل

جنوبها ، لأنه الى شرق من مكة يوجد «الطائف» بمائه وأشجاره الصائية من تفاح وتين ورمان وعنب

طبيعة البلاد في عهدها

ولما كان أكثر هذه البلاد صحراء جدباء، يصعب التنقل بين فيافيها القليلة المدن والمؤن والماء، وكان جوها على العموم رديئاً، لم يجرؤ المهاجمون على التوغل فيها، فتمتع أهلها بالحرية والاستقلال أكثر عصورهم. ولم تقم بينهم حكومة مركزية تخضع لها جميع السكان، بل كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاقتصادية، تدفع عن كرامتها، وتقوم بحاجاتها، وتحكمها حكومة أبوية يرأسها الأكبر سناً والأرجح عقلاً. لا يقطع أمراً دون أن يعرف رأي وجوه قومه. وقد دفعت قلة خيرات البلاد إلى تشاحن القبائل خشية على امتلاك المراعي الخصيبة والواحات اليانعة، فكانت الحرب سجالاً وبقي تنازع البقاء بين القبائل قائماً على قدم وساق حتى جاء الإسلام

أصل العرب

ويقال إن أول من نزل بلاد العرب قوم من أصل كلدي أسسوا حضارة لا تزال آثارها باقية باليمن . وقد قضى على هؤلاء قبائل من الجنس السامي جاءوا مما يلي العراق شرقاً ونزلوا بحضرموت واليمن وهم بنو قحطان ومن نسلهم «يعرب» الذي سميت البلاد و[illegible] باسمه . ثم جاء بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ونزلوا في الحجاز وبنوا الكعبة التي كانت ولا تزال أقدس بقعة عند العرب وسائر المسلمين

وينقسم العرب عامة الى حضر يقيمون في المدن وبدو يسكنون الخيام ويهيمون في الصحاري والهضاب انتجاعاً للمرعى. وكان عرب الطرف الشمالي الغربي على اتصال بالرومان، كما أن أهل الطرف الشمالي الشرقي كانوا متصلين بالفرس. أما اليمن فاستولت عليها الحبشة حوالي سنة ٥٠٠ م.

ثم طردها سيف بن ذى يزن بمساعدة الفرس الذين بقوا يحكمونها الى أن بادت حضارتها فى أوائل القرن السابع

وقد قوى اليهود والمسيحيون الذين دخلوا بلاد العرب على دينهم. أما العرب أنفسهم فكانوا يعبدون الاوثان والنجوم، لكل جهة ولكل قبيلة آلهة، وكانت الكعبة مركز عباداتهم جميعاً وبها ٣٦٠ صنماً تمثل آلهة القبائل المختلفة وتقدم لها القرابين حتى من بنى الانسان

ولما سئم العرب استمرار القتال جعلوا أربعة أشهر حرماً كما جعل الاوربيون الهدنة الربانية تبطل أثناءها المنازعات وتحقن الدماء، واستغلوا هذه الفرصة لتبادل المتاجر وعقدوا أسواقاً كعكاظ وذى مجاز [illegible] فى ميدان المفاخرة بالشعر والنثر وتوزيع الجوائز على الشعراء، فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم وأخذت لغة قريش تسود [illegible] حتى نزل القرآن بها وأصبحت اللغة الأدبية والرسمية

واشتهر من بنى [illegible] قريش فى [illegible] العرب. ثم [illegible] فى [illegible] كلها [illegible] الكعبة [illegible] وجمع الصدقات [illegible] الى أن وصلت الى هاشم ثم الى ابنه عبد المطلب سنة ٥٢٠ م [illegible] ولم يكن لبنى هاشم منافسون سوى بنى أمية وهم أحفاد [illegible] أخوة قصى، فحسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا انتزاع حكم

مكة منهم فأخفقوا في مسعاهم ، وبقي عبد المطلب يحكم مكة نحو تسع وخمسين سنة

وفي عهد عبد المطلب أرسلت الحبشة جيشاً الى مكة بقيادة «أبرهة» وكان معه بضع فيلة فوصل مكة عام ٥٧٠ الذي اشتهر بعام الفيل . فوقع الرعب في قلوب العرب لأنهم لم يألفوا الغزو الاجنبي ولم يكن لهم علم باستعمال الفيلة في الحروب ، فاستجار عبد المطلب بالكعبة



[illegible] «أبرهة» [illegible] تفشى [illegible] مرض في جيشه وهلك [illegible] الوادي الذي كان يعسكر فيه جيش الحبشة ولعظم وقع هذه الحادثة في نفوس العرب صاروا يؤرخون به

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

كان لعبد المطلب أبناء وبنات كثيرون اشتهر منهم أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب وعبد الله . وكان عبد الله أصغر إخوته تزوج

(١) [illegible]

بآمنة بنت وهب ومات في الخامسة والعشرين، وبعد موته بأيام وضعت آمنة سنة ٥٧٠ ولداً سماه جده «محمداً» وسلمه الى حليمة السعدية لترضعه، ونشأ معها فى الصحراء حتى بلغ السادسة حين ماتت أمه، فكفله جده عبد المطلب، فلما مات سنة ٥٧٩ كفله عمه أبو طالب الذى خلف أباه فى رياسة مكة ولم يكن ثريا كأسلافه فقام بنوه وبنو أخيه برعاية الغنم فكان النبى يفاخر بذلك ويقول ما من نبى إلا وقد رعى الغنم

ثم سافر سيدنا محمد وهو صبى مع عمه الى الشام فزاد علمه بالناس وحالهم وما كانوا عليه فى ذلك من انحطاط فى الأخلاق وفساد فى الدين

وصف حياته — ولما بلغ الى أشده قام بتجارة لخديجة وكانت أرملة من أغنياء مكة وأشرافها، فربح أرباحا وفيرة وعرفت فيه خديجة الصدق والأمانة فتزوجت به بعد أن رفضت التزوج من أشراف العرب. وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة وعمرها أربعين فولدت لهما ثلاثة أولاد ماتوا أطفالا وثلاث بنات عشن حتى زمن عظمة أبيهن وتزوجت صغراهن «فاطمة الزهراء» من على ابن أبى طالب

حياته من أمته — قضى محمد بعد زواجه خمسة عشر عاما في حياة هادئة بمكة عرف أثناءها بحلاوة شمائله وطهارته وإخلاصه وحبه للواجب وأمانته حتى لقب بالأمين. وظهر شأنه حين شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة واختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الاسود فى مكانه. فحكم بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب الى رؤساء القبائل جميعا أن يرفعوا الرداء

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحب العزلة ويكره الملاهي ولا يشترك مع الجاهلية في أعيادها أو جمعاتها وكان أمياً ولا يقول الشعر . ولكنه تعلم شيئاً من دين ابراهيم عليه السلام عن قريب له عمه ورقة بن نوفل فكان « يعمد إلى غار « حراء » بالقرب من مكة يقيم به شهراً كل سنة متعبداً متفكراً

بعثته

فبينما هو كذلك مرة إذ نزل عليه الوحي وشعر أن منادياً يقول له اقرأ فقال ما أنا بقارئ فكررها عليه مرتين ثم قال « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم » فرجف قلبه خوفاً ورجع إلى خديجة وخبرها بما سمع ، فصدقته وأخذته إلى ورقة ابن نوفل فقال « هذا الناموس الذي انزل الله على موسى » وقام عليه السلام ينشر الدعوة سراً بين أهله وصحبه فآمنت به خديجة ثم آمن علي وأبو بكر وعمر وحمزة وعثمان

بدء قريش بالأذى

ولما علمت قريش بدعوة النبي سخروا منه فلما رأوا قوة تمسكه بدعوته وشدة مراسه شكوه إلى عمه أبي طالب فنصح له . فقال رسول الله « والله ياعمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فجعلت قريش تؤذيه واشتد الأيذاء بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، وبعد أن صارت زعامة مكة لأبي سفيان بن حرب بن أمية . فتحدته قريش بأن يأتي بالمعجزات فنزل قوله تعالى « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » وجعل الرسول يتلو عليهم القرآن وهو أقوى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من غلو قريش في العناد والجحود أن قالوا بلسان

القرآن « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

هجرة ٦٢٢ م

عند ذلك يئس النبي من كفار مكة وأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة، ثم قصد «الطائف» فلم يلب الناس دعوته فعول على نشر ما أمر به فى موسم الحج، فآمن به جماعة من أهل يثرب وتعاهدوا على حمايته اذا هو انتقل الى مدينتهم. فأرسل بعض أصحابه اليها ثم ترك علياً فى فراشه وهاجر هو وأبو بكر ليلة دبّر الاعداء قتله سنة ٦٢٢ م وهى أول التاريخ الهجرى فما وصل اليها قابله أهلها بالبشر والترحاب[1]

مركز النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة

لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم يثرب سماها المدينة وبنى



[illegible]

(١) [illegible]

مسجداً ثم مهد فيه بنفسه ومحا العداء بين الأوس والخزرج — وهما أشهر قبائل المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا — يسميهم جميعاً الانصار، وآخى بينهم وبين المهاجرين فعاشوا على وفق بفضل قوة الجامعة الجديدة. وحث على الأخوة والرفق بالأطفال واليتامى والأرامل والأرقاء والحيوانات

الجمهورية في المدينة

ولم يكن لبلاد العرب في ذلك الوقت قانون أو نظام عام. بل كانت البلاد في نزاع دائم وفوضى شاملة، فبدأ النبي بوضع نظام ثابت لهذه الجمهورية الصغيرة ونشر عهداً تم التراضي به وإيقاف الشحناء وساوى يهود المدينة ومن حولها بالمسلمين في الحقوق، وتعهدوا هم بالاشتراك في الدفاع عن المدينة

الغزوات

وقد غاظت قريشاً فرار محمد وأصحابه وحقدوا على أهل المدينة إيوائهم للمسلمين وهددوهم. فكان لا بد من الاستعداد للدفاع. وبهذه الظروف أصبح رسول الله، لا داعياً إلى الدين فحسب، بل رئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها. وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ. وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها

وكانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه عصابة شرذمة من الثوار يجب قتالهم ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة وهي على طريق التجارة إلى الشام، فجدّ المسلمون في مهاجمة قوافل مكة ونالوا أول انتصار لهم في السنة الاولى بعد الهجرة في غزوة بدر على بضعة أميال من المدينة وقد أحسن المسلمون معاملة الأسرى

بدر

أحد

انقضت السنة الثانية فى هدوء نوحه عام إذا صرفنا النظر عن هجمات قبيلة شنها أهل مكة على المدينة . فلما كانت السنة الثالثة جمع أبو سفيان ابن حرب بن أمية — عدو بنى هاشم — جيشاً يبلغ ثلاثة آلاف ، هزم بهم المسلمين على سفح جبل أحد . ولكنه لم يستطع التقدم إلى المدينة لكثرة خسارته

غزوة الأحزاب

وبعد أن ضمدت قريش جراحها جمعت جموعها وهاجمت المدينة بعشرة آلاف فجمع النبى أعوانه وحفر خندقاً حول جزء من المدينة ، واعتمد فى الدفاع من الجهة الجنوبية على حلفائه من اليهود وهم « بنو قريظة » ولكن هؤلاء انضموا إلى الأعداء وضيقوا الخناق على المسلمين مدة ، حتى ظهر كأن العوامل الطبيعية تحارب مع المحصورين إذ هبت عواصف ممطرة قتلت كثيراً من خيل الكفار وقللت من مؤنهم فتفرق شملهم [1]

المسلمون واليهود فى المدينة

ولما نكثت بنو قريظة عهدها وانحازوا إلى الأعداء رأى المسلمون أنهم لا يأمنون على أنفسهم ما دامت هذه القبيلة قريبة منهم فطلبوا إليهم الارتحال عنهم ، فعصوا وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وكان المسلمون قبل ذلك يعطفون على اليهود ويولون وجوههم شطر أورشليم « بيت المقدس » فى صلاتهم ، فأخذ النبى بعد هذا يقلب وجهه فى السماء يريد قبلة يرضاها فأمر أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام . وفى هذا إرضاء واستمالة للعرب الذين كانوا يخشون على مركز مكة بعد ظهور الإسلام

وفى السنة السادسة أعطى النبى عهداً للرهبان خاصة ، وللمسيحيين عامة المقيمين فى بلاد العرب ، أن يدفع عنهم الأذى ويحمى كنائسهم

---

(١) سورة الأحزاب

ولا يطرد أسقف من أسقفيته ولا يكره أحد منهم على ترك دينه. ولا يخرج راهباً من ديره، وأن يساعدهم على صلاح كنائسهم وأديرتهم. ونزل قوله تعالى «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون».

معاملة النصارى

كذلك أرسل النبي رسلاً الى ملك فارس وامبراطور الدولة الرومية الشرقية والى النجاشي بالحبشة وغيرهم، يدعوهم الى الاسلام فمزق ملك فارس الخطاب وأحسن امبراطور الروم مقابلة الرسول وأرسل المقوقس هديه وجارية هي مارية أم ولده ابراهيم

فتح مكة

وفي السنة السابعة عقد مع أهل مكة هدنة على إخلاء بلدهم حتى يتمكن المسلمون من الحج ففعلوا. وحج المسلمون وعادوا الى المدينة. الا أنه بعد ذلك انقض أهل مكة على قبيلة محالفة للمسلمين وقتلوا كثيراً منها فاستجارت القبيلة بالنبي، فسار الى مكة في عشرة آلاف ودخلها من غير مقاومة بسبب انضمام قائدين عظيمين من قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. فأصبحت تحت رحمته وبدل أن تقتفي ثمان سنين على فراره منهم ليلاً، فعفا عن أهلها. ولكنه دخل الكعبة وجعل أصحابه يحطمون الأصنام وهو يتلو «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وبذلك أسلم أهل مكة وعلى رأسهم أبو سفيان

الوفود

كان من أثر فتح مكة أن جاءت وفود القبائل أفواجاً تطلب اعتناق الاسلام. وكان النبي يكرم مثواهم ويرسل معهم من يرشدهم ويعلمهم ويتولى أمرهم. فلما انتشر الاسلام في جزيرة العرب أحس رسول

الله أن مهمته قد انقضت وعزم على أداء الحج كاملاً حتى لا يخطىء فيه أحد ، فدخل مكة فى ٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ (٧ مارس سنة ٦٣٢ م) وقبل أداء الفريضة علا على جبل عرفات وخطب خطبة الوداع الخالدة ومنها :

« أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم . إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت . اللهم فاشهد . إن ربا الجاهلية موضوع ، وإن دماء الجاهلية موضوعة . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية . إن لنسائكم عليكم حقاً . . . فاتقوا الله فى نسائكم واستوصوا بهن خيراً . [illegible] الناس إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لآدم . وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت ، فليبلغ الحاضر منكم الغائب » ثم نزل قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »

ثم مرض النبى فجعل يوصى أصحابه بالتقوى والمحافظة على الدين حتى ثقل عليه المرض فقابل ربه وسنه ثلاث وستون سنة ، فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ « ٨ يونيه سنة ٦٣٢ » ولم يترك بعده من أبنائه إلا فاطمة الزهراء

أعمال النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه

يمكن تقسيم حياته إلى ثلاثة أدوار متباينة : الأول دور التعبد والنسك حين كان يقيم فى الغار منعزلا عن أهل مكة . لا يشاطرهم لهوهم وسرورهم ، وعرف بينهم بالنزاهة والصدق والأمانة حتى لقبوه جميعاً بالأمين .

والدور الثاني قيامه عليه الصلاة والسلام بنشر رسالته سراً وجهراً
وقد لاقى في سبيل ذلك من السخرية والاضطهاد ما لاقاه الأنبياء من
قبل . فتدرع بالحلم والصبر . ولم يتزعزع إيمانه ولا إيمان أتباعه على قلة
عددهم . بل ضحوا بكل شيء لإعلاء كلمة الحق وزادوا يقيناً كلما زادتهم
قريش إيذاء

ولما يئس النبي وأتباعه من النجاح في مكة هاجروا إلى المدينة وبدأ
الدور الثالث من حياة رسول الله واضطر هو وأصحابه أن يقفوا موقف
الدفاع أمام غزوات قريش . وزاد عدد المسلمين بعد الهجرة
فكونوا جيشاً تتوفر فيه الغيرة والحماسة ويشرئب للجهاد نصراً للرسول
وللإسلام فصار النبي حاكماً وقائداً وأظهر مهارة عظيمة في إدارة شئون
الجمهورية الجديدة وقيادة جيوشها ، فكان يخرج بنفسه للقتال ويتعرض
لأخطار الحرب وكان مثلا عالياً لرباطة الجأش والاستبسال . فتوالت
انتصاراته ودانت له شبه جزيرة العرب بأكملها وبدأ الإسلام ينتشر
فيما وراءها

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خلقاً ،
متواضعاً حليماً كريماً شهماً غيوراً مقداماً جلداً بعيد النظر عادلا متسامحاً
ولقد أجمل القرآن وصفه في قوله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم »

أثر ظهور الإسلام في العرب

لقد كان لظهور الإسلام في بلاد العرب أثر عظيم في أخلاقهم
وعاداتهم . قضى على المنازعات والحروب القومية وأصبح للعرب حكومة

وحدة ورئيس واحد يسهر على مصالحهم ويقيم العدل بينهم . وهذا هو أول عهد العرب بحكومة منتظمة في بلادهم . ثم إن الإسلام هذّب أخلاق العرب وقضى على العادات الذميمة التي انتشرت بينهم فاعتدلوا في معيشتهم ومعاملاتهم ، وعملوا في إصلاح أحوالهم وترقية تجارتهم . وهكذا تهيأ العرب لاستقبال عهد الفتوح والمدنية الإسلامية

الخلافة

ولما مات النبي لم يصدق الناس خبره وضرب الشك والارتياب في نفوس العامة ، واستبعدوا أن يموت سيدنا محمد بعد تأثيره القوي في نفوس معاصريه من غيره من البشر ، وأن يكون هذا الشخص الذي أحدث هذا الانقلاب العظيم في التاريخ قد يجوز عليه الموت

وقد ساد الشك والارتياب في أذهان الناس مدة خرج في أثنائها عمر بن الخطاب وفي يده السيف يهدد الذين يذكرون موت النبي قائلا « إن رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه قد مات » فلما جاء أبو بكر وتأكد من موت الرسول خطب في الناس خطبته المعروفة التي يقول فيها « أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » وذكر الآية أيضًا « إنك ميت وإنهم ميتون » فخف الهرج والمرج

من بين الناس وتحققوا خبر موت الرسول ورفعوا أصواتهم بالعويل والنحيب وكان عمر أكثرهم بكاء وتأثراً

خلافة أبي بكر (١١ – ١٣ هـ، ٦٣٢ – ٦٣٤ م)

ثم بحث الناس فيمن يخلف النبي عليه السلام. ولم يعين له خليفة، بل كان قد ترك الأمر شورى بينهم حسب العادة المتبعة عند العرب. فانقسمت الآراء إلى ثلاث شعب. فقال الأنصار نحن أحق بالخلافة لسابقة نصرتنا من غير شرط، وقال فريق نحن أحق بالخلافة في آل محمد، وقالت الأكثرية من المهاجرين بضرورة الانتخاب بشرط أن يكون الخليفة من قريش.

وكان النبي قد أشار في حياته إلى كفاءة علي بن أبي طالب في مواقف عدة. وكان علي أول من أسلم من الصبيان وشهد مع النبي ما وقع له من الاضطهاد في مكة، وكان من أشداء جنوده في الغزوات. وفوق ذلك كان صهر الرسول وابن عمه ومن أسرة بني هاشم. كل هذا كان من شأنه أن يدعو العرب إلى اختياره خليفة. ولكن أشراف قريش كانوا يحسدون أسرة بني هاشم وينقمون عليها فلم يقع اختيارهم عليه.

على أن النبي كان قد عهد إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس أثناء مرضه الأخير، ويعد هذا اعترافاً منه بكفاءة أبي بكر للرئاسة بعده. وقد كان أبو بكر أكبر الصحابة سناً وفضلاً ولا يخفى أن العرب كانوا ينظرون إلى كبر السن كعامل مهم في اختيار رؤسائهم. هذا إلى ما عرف به أبو بكر بينهم من شدة غيرته على الإسلام وكثرة تجاربه فبايعه عمر حينئذ

للنبي وبايعه الناس جميعاً بعد ذلك . وبهذا قضى على الشقاق الذي قام بين المهاجرين والانصار عقب وفاة النبي ، وظهر مذهب القائل بوجوب جعل الخلافة انتخابية بشرط أن يكون الخليفة من قريش. وقد خطب ابو بكر في الناس خطبته المعروفة التي يقول فيها « ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني »

الردة

وما كاد ينتشر خبر وفاة النبي حتى ارتدت أكثر القبائل العربية عن الاسلام وقام كذابون يدعون النبوة ويحاربون المسلمين ، ومن هؤلاء طليحة ومسيلمة .

وترجع سرعة ارتداد العرب عن الاسلام الى الاسباب الآتية :

١ ان الاسلام كبح جماح شهوات العرب وأتى بشدة لا قبل لهم بتحملها كتحريم الخمر والميسر والأخذ بالثار وتقييد حرية الزواج

٢ ان الاسلام كان يحتم جمع الزكاة . وهذا من الاسباب الاقتصادية التي دعت الى ارتداد العرب

٣ أن الاسلام أوجد حكومة واحدة وسيداً واحداً يجب على العرب الخضوع له ، وهذا ما لم يعتده العرب

على ذلك عاد الاسلام الى سابق مركزه . فصار يدافع المسلمون عن أنفسهم وحياتهم ، ووقفت المدينة تجاهد كما جاهدت أيام النبي ولم يبق معها إلا الطائف ومكة . وفي هذا الظرف العصيب أظهر المسلمون المخلصون غيرة وتفانياً في خدمة الدعوة الاسلامية كما أظهروا ذلك في مدة النبي . وبحسن تدبير أبي بكر ومن ساعده من قواد العرب

المشهورين — وأولهم خالد بن الوليد الذي قضى على مسيلمة في اليمامة
خضعت شبه جزيرة العرب وعاد الاسلام الى القوة التي كان عليها أيام
النبي صلى الله عليه وسلم

فتوح العرب

أول عهد العرب بالروم والفرس

وكان النبي قبل وفاته قد أعد حملة بقيادة أسامة بن زيد لمعاقبة
بني غسان لتجرئهم على قتل رسول النبي اليهم. فرأى أبو بكر أنه من
مصلحة الاسلام أن يواصل العمل في تجهيز هذه الحملة ليعتقد العرب
أن الاسلام قوة تصعب مقاومتها. وعلى ذلك خرجت الحملة نحو
« بني غسان » الذين كانوا من قبائل العرب، وكانوا يدينون بالمسيحية
ويعترفون للدولة الرومانية الشرقية « بالسيادة » عليهم. فكان ذلك
مبدأ احتكاك العرب بدولة الروم. كذلك سير أبو بكر جيشه نحو القبائل
العربية الساكنة شرق نهر الفرات عند « الحيرة » وتعرف هذه القبائل
قبائل « بني تغلب » وكانوا يدينون بالمسيحية أيضاً ويحكمهم أمراء من
العرب يخضعون لسيادة دولة الفرس الساسانية، وبذلك بدأ احتكاك
العرب بالفرس

فتح الحيرة

لما تم اخضاع العرب المرتدين في شبه الجزيرة تهيأ الاسلام للفتوح
الخارجية. ووجدت القبائل العربية المتمردة في هذه الحروب مجالا
واسعاً للغنيمة والفخر والاستشهاد. فسار خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة
الشيباني نحو الحيرة فسقطت في أيدي المسلمين

عند ذلك تنبه الفرس وخافوا انتصار هذه الأمة الناشئة الفتية.

وكانت دولة الفرس الساسانية لا تزال قوية يمتد نفوذها في وسط آسيا إلى حدود الصين والهند، وتبسط سلطانها على العراق وخراسان وبلاد العجم والأقاليم التي حول بحر قزوين. ثم تعرضت الفرس للعرب وأخذوا يعدون العدة لطردهم من الحيرة وردهم إلى البادية. وفي ذلك الوقت حدث انقلاب في حكومة الفرس فاعتلى العرش الملك يزدجرد، فجمع جيشاً قوياً جعل على رأسه القائد الفارسي الشهير «رستم»، وضعف العرب في مبدأ الأمر ثم تقهقروا لقلة عددهم وانتظروا المدد من المدينة. وكان أبو بكر قد توفي فأرسل عمر جنداً من جنود الشام. وعلى ذلك أرسل الخليفة عمر قوة تبلغ ثلاثين ألف جندي على رأسها سعد بن أبي وقاص وتقابل الفريقان في موقعة «القادسية» سنة ٦٣٦ م واستمرت المعركة ثلاثة أيام قتل في أثنائها رستم قائد الفرس وغنم العرب علم الفرس المقدس الذي كان في جيش الفرس منذ أجيال وهذا أحدث اضطراباً عظيماً في معسكرهم ما أضعفهم أمام العرب.

وبعد هذه الانتصارات الحاسمة فتحت بلاد العراق وما بين النهرين في يد العرب على أثرها، وترك الفرس عاصمتهم «المدائن» فسلمها سعد إليها وسقطت «المدائن» في يده وبسقوطها سقطت حكومة الفرس وفر الملك يزدجرد شرقاً وأخذ يحرض قومه على الالتفاف حوله في حرب العرب. فرأت العرب ضرورة القضاء على يزدجرد وحركته فساروا نحوه ودارت بينهما موقعة «نهاوند» سنة ٦٤٢ م. وفي هذه الموقعة هزم الفرس هزيمة نهائية ولم تبق لهم قوة في البلاد وفر يزدجرد إلى حدود الصين حيث قتل، وفي هذه الحرب غنم المسلمون غنائم عظيمة وكان يوزع

بعض هذه الغنائم على الصحابة وبعضها على الجنود

وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن دولة الإسلام. فتح فارس

وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم وبنوا الكوفة على الشاطئ الغربي لنهر الفرات وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدينة.



مسجد بأصفهان

واعتنق الفرس الإسلام واختلطوا بالعرب وصاهروهم وأصبحوا عنصراً إسلامياً هاماً ويعرفون عند قبائل العرب بالموالي. وأسس العرب في

بلاد الفرس حكومة قوية مصلحة صانت الفلاحين من اضطهاد الأشراف وتركت لهم الأراضي يزرعونها، واهتمت بعمل احصاء عام لكل محصولات البلاد.

وأظهر العرب مع الشعوب التي خضعت لهم تسامحاً وفرضوا على من لم يقبل الاسلام منهم جزية تشبه البدل العسكري في بلادنا في الوقت الحاضر، وفي مقابل ذلك لم يتدخلوا في الشئون الدينية.

خلافة عمر (١٣ - ٢٣ هـ = ٦٣٤ - ٦٤٤ م)

وقبل أن نتكلم على حرب العرب مع الروم يجب أن نذكر أن أبا بكر مات سنة ٦٣٤ م بعد أن تمكن بحسن تدبيره وبفضل مجهودات خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين أن يصون البلاد من خطر الردة. وأن يحفظ بوحدة العرب ووحدة الاسلام وهذا أعظم فخر لأبي بكر. وقبل أن يموت وصى بانتخاب عمر خليفة له لأنه رأى المسلمين في حرب مع الدول الأجنبية إذ كانوا يحاربون الروم من جهة والفرس من جهة أخرى. فلو حدث أي انقسام داخلي بين العرب لساءت العاقبة. ولذلك انتخب عمر بدون معارضة وواصل الخطة التي سار عليها أبو بكر من قبل. وكان عمر من أقوى الصحابة شخصية وأعلاهم همة وأشدهم غيرة على الحق والانصاف.

حرب العرب مع الروم

كانت البلاد الواقعة غربي نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية، وكان بعض سكان هذه الأقاليم من عنصر

عربي وجميعهم من جنس السامي وعلى ذلك كانت تربطهم بالعرب الرابطة الجنسية.

حالة الدولة البوزنطية

وكانت الدولة البوزنطية قد أنهكت قواها في حروبها مع دولة الفرس الساسانية ولم تكن هناك روابط جنسية تربط الدولة برعاياها، وكانت الشعوب تئن من ثقل الضرائب التي كانت تجبيها الحكومة ومن الاضطرابات والانقسامات التي سادت مدة طويلة في انحاء الدولة. على أن الدولة البوزنطية كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقية وشبه جزيرة البلقان وجزء في البحر الأبيض. وكان في مقدورها أن تجمع جيوشاً أكثر عدداً من جيوش العرب. ولكن جيوشها لم تكن متحمسة ولا متفقة في الشعور ولم تكن مندفعة بروح حماسي كالروح الذي كان يدفع العرب، ومما يدل على كره الشعوب للحكومة الرومية أنهم لم يحاولوا القيام بثورة ضد العرب أثناء فتوحاتهم، بل حتى القبط كانت تتمنى الفتح عليهم

بعد عودة حملة «أسامة» جهز أبو بكر أربعة جيوش للزحف على سوريا – وأهم هذه الجيوش ما كان بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ووجهته حمص والذي كان بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين. ومجموع هذه الجيوش الأربعة خمسة وثلاثون ألف جندي

موقعة اليرموك ٦٣٤ م

٧

وجهز الامبراطور «هرقل» بعد حالة الحرب وبلغ جيش الروم مائتين وأربعين ألفاً. ورأى المسلمون ضرورة جمع قواتهم وتوحيد قيادتهم برياسة أبي عبيدة، وكان أن ... وقد اختاروا موقعاً حصيناً على نهر «اليرموك» وهو فرع من فروع «الاردن» ووقف عند انحناء في النهر يسمى «الواقوصة»

موقف المسلمين أمام العدو واستمروا على هذه الحال حتى أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لينضم إلى جيش أبي عبيدة. فأصبحت قوة العرب أربعين ألفاً وبقيادة خالد دارت معركة وكانت الغلبة على



داخل مسجد بيت المقدس

الروم. ويرجع الفضل في هذا الانتصار إلى مهارة خالد وهذا أيضاً من

الموقعة الحاسمة التي كسبها العرب فلم يجدوا بعدها صعوبة في فتح المدن الباقية كدمشق وانطاكية. وبينما كان أبو عبيدة الذي عينه عمر قائداً عاماً — بدل خالد الذي قبل عن طيب خاطر أن يخدم تحت إمرة أبي عبيدة — يفتح الشام، كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين. وانتصر على الروم في وقعة أجنادين، وكان انتصاراً حاسماً كوقعة اليرموك، وعلى أثره [illegible] أثره فتحت غزة ويافا واللد وصور. ولم يبق إلا بيت المقدس فقاوم [illegible] الطريق مدة أربعة أشهر وأخيراً اشترط أن يحضر عمر بنفسه لتسلم القدس. فجاء عمر بكل بساطة وتسلم المكان بعد أن [illegible] المسيحيين. وعلى أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال طوروس حد الفاصل بين ممتلكات الدولة البيزنطية وأملاك العرب.

فتح مصر

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح فلسطين فكر في فتح مصر. فقابل خاطب أمير المؤمنين في ذلك فتردد عمر. لأن العرب لم يستقروا في فتوحاتهم الجديدة. وقلة الجنود التي تمكن لاستبقاء [illegible] وتسييرها لفتح جديد. وأخيراً وافق عمر لالحاح عمرو الشديد ولكن دليل تردده ظاهر من حادثة الكتاب، إذ وعد عمراً بانه سيرسل له كتاباً ان ادركه وهو في حدود الشام رجع عن فتح مصر، وان ادركه وهو داخل حدود مصر استمر في عمله.

وصل عمرو الحدود المصرية ومعه أربعة آلاف جندي، وبها مدينة «الفرما» المعروفة باللاتينية باسم «بلوزيم» فسقطت في يده بعد شهر

ثم واصل المسير جنوبًا الى «بلبيس» وهي حصن منيع ففتحوها بعد قتال عنيف، ويقال أن ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم كانت بها حين دخلها المسلمون فأرسلها عمرو الى أبيها معززة مكرمة.

حصن بابليون

ثم سار قاصدًا «حصن بابليون» وهو قلعة على الضفة اليمنى للنيل أمام «منف» القائمة على الضفة اليسرى شيدها الفرس قديمًا واتخذها الرومان معقلا لجنودهم لتوسطها بين مصر السفلى والعليا. ولأن الاسكندرية وهي قاعدة حكمهم لم تكن مركزًا صالحًا لمراقبة أحوال البلاد.

أم دنين

وفي أثناء سيره اعترضته حامية صغيرة بقرية «أم دنين» وكانت على شاطئ النيل (حيث يوجد الآن حي الازبكية)، فاستولى عمرو عليها بعد حصار أسابيع.

ولما رأى قلة جنده اقتنع بأنه ليس في طاقته مهاجمة «حصن بابليون» قبل أن يصل اليه المدد الذي طلبه من أمير المؤمنين. فعبر النيل الى منف في قوارب صغيرة وقصد الفيوم لاشغال عسكره ريثما يحضر المدد. ولما عاد الى عين شمس وجد عمر قد أرسل اليه مددًا كبيرًا يقوده جماعة من المدربين على القتال يرأسهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود فخشي الروم مناجزتهم، وقسم عمرو جيشه الى ثلاث فرق إحداها في عين شمس والثانية شمال قلعة بابليون (شرقي العباسية) والثالثة عند أم دنين. ولما هاجم الروم الفرقة الأولى التي كان يقودها عمرو انقضت الفرقتان الأخريان على ساقة الجيش الروماني وجناحيه.

واقعة عين شمس

فدارت الدائرة على الرومان. وتعرف هذه الواقعة بواقعة عين شمس سنة ٦٤٠ م.

٦٤٠ واستولى العرب على مدينة مصر حيث وجدوا حصن بابليون ولولا فيضان النيل الذي غمر الارض لتمكن عمرو من الاستيلاء على جميع أرض الدلتا. ولهذا اكتفى بحصار حصن بابليون من الجهة الشرقية

وضاق الخناق على الرومان عند انتهاء الفيضان حتى يئس المقوقس من صد العرب، وعقد معهم في جزيرة الروضة أمام الحصن صلحاً علم الحامية وأرسل بنبأ هذه الهدنة الى هرقل فجزع جزعاً شديداً واستدعى المقوقس الى القسطنطينية. فجد العرب في حصار الحصن حتى سلمت الحامية بعد نحو ثمانية أشهر وكان ذلك في ابريل سنة ٦٤١ م ويرجع ذلك الى موت هرقل، وما أحدثه من الاثر في نفوس حامية الحصن، كما يرجع الى ما أبداه الزبير بن العوام من البسالة والجرأة

مساعدة الاقباط للعرب

ولما أحرز العرب هذا الانتصار الباهر انضم اليهم الاقباط جهرة وأخذوا ينتقمون من الرومان الذين كانوا يضطهدونهم أشد الاضطهاد لمخالفتهم في المذهب الديني، اذ كان الروم من الملكانيين والاقباط من اليعقوبيين، وقد بلغ من اضطهاد الملكانيين لليعقوبيين أنهم صادروا حرية عبادتهم، وشتتوا شمل قساوستهم. وألجأوا بطريقهم الى الاعتصام بالصحراء عدة سنين. فجعل الاقباط يساعدون العرب في بناء الاستحكامات والقناطر ويسهلون عليهم الزحف من مكان الى آخر

وقد أسرع عمرو بعد استلام الحصن الى أخذ الفيوم. ثم ترك حامية صغيرة في بابليون وسار الى الاسكندرية محاذياً فرع رشيد وتغلب على من قابله من الرومان عند دمنهور وألجأهم الى الاحتماء بالاسكندرية.

وعسكر العرب حولها ولم يكن في مقدورهم حصرها براً وبحراً ، ولقد
استمر الحصار عدة أشهر ثم سلمت في ديسمبر سنة ٦٤١ بسبب ما حل

تسليم الاسكندرية

بحكومة القسطنطينية من الضعف والفوضى على أثر موت هرقل ،
وبسبب سآمة أهل الاسكندرية تقلبات الحكم البيزنطي وما يتبعه من
اضطهاد ديني ، ولأن المقوقس أقنعهم أن التسليم للعرب خير لهم ، ولما
كان غرضه أن يستقل بطريقية الاسكندرية عن القسطنطينية . وأهم
شروط معاهدة التسليم أن يعطى الروم مهلة أحد عشر شهراً يخلون
فيها عن الاسكندرية ، وأن يترك المسلمون لأهل البلاد الحرية الدينية

مصر بعد الفتح

تاريخ … الاسلامي [illegible]

لما استقر أمر العرب في مصر حدثت التغييرات الآتية

١ — نقلت العاصمة من الاسكندرية لبعدها عن حاضرة بلاد العرب ، واتخذ العرب عاصمة لهم في منطقة التي عسكروا بها حول حصن بابليون ، وعرف هذا الموضع باسم الفسطاط ، وهو مكان مصر القديمة . وإنما فضلوا هذا الموضع بسبب الاتصال مباشرة ببلاد العرب . ورغبة في سرعة الاتصال ببلاد العرب حفر عمرو بن العاص ثانية ترعة قديمة التي كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ، فسارت السفن من مصر الى الحجاز حاملة محصولات مصر

إسلام معظم أهل مصر

٢ — دخل كثير من سكان مصر في العرب واعتنقوا الاسلام وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزاً هاماً في العالم الاسلامي ، وقل عدد الأسر المسيحية

٣ — اهتم العرب بشئون الزراعة فعددوا حفر الترع وعملوا على ... وأصلحوا الطرق . وحسنت حال الفلاح وزرع في راحة ورفق

٤ — بقيت الحكومة كما هي دون تغيير يذكر وبقي كثير من الموظفين الروميين في مراكزهم الأولى وكل وظيفة تخلو يحل فيها مصري ، واكتفى العرب بالإشراف على الحكومة — الحكومة

٥ — الضرائب التي فرضت بعد المعاهدة وكانت أخف بكثير من أمثالها في عهد الرومان وكانت الضرائب هي الجزية وضرائب الأراضي والأجرة تفرض حسب العمال وحال الزراعة كل سنة . هذا بينما أيام الرومان كان أهل البحيرة ومصر مثل الإسكندرية تعفى من الضرائب ، ولكن العرب كانوا يأخذون الضرائب من الجميع على السواء — الضرائب

ومن الخطأ الشائع أن عمرو أحرق مكتبة الإسكندرية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — مكتبة الإسكندرية

وحقيقة أن المكتبة التي أنشئت في عهد بطليموس قد احترقت سنة ٤٨ ق . م على أثر حرق قيصر لأسطوله . ويقول المؤرخ الروماني « بلوتارك Plutarch » بأن قيصر لما كان الأعداء يستولون على أسطوله ، اضطر أن يرميه بالنار وامتد لهيب من حريق الأسطول إلى المكتبة ويكرر ذلك كتاب كثيرون . فيستنتج من ذلك أن مكتبة الإسكندرية الكبرى حرقت سنة ٤٨ ق . م

وبعد هذه الحادثة بخمس سنين تحدث بالإسكندرية مكتبة ، ولكنه في أواخر القرن الرابع حين المسيحيون يخربون المعابد الوثنية ومنها

جامعة الاسكندرية حيث كانت الكتب ، وتم اعدامها عن آخرها سنة ٣٩١ م

وعلى فرض وجود المكتبة عند فتح فانه لا يعقل أن الرومان أهملوا نقل الكتب أثناء الهدنة وهى ١١ شهراً . ولا يعقل أيضاً ان العرب ، الذين كانوا يعتقون الاسير اذا علم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة ، يحاربون العلم

وفاة عمر

وكان عمر أول من أنشأ الدواوين وعين القضاة وجعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الادارية ، ووضع التاريخ الاسلامى مبتدئاً من أول سنة قمرية حدثت بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة. وهو أول من سمى أمير المؤمنين وكان لا يشغله شاغل عن تدبير أمور المسلمين واصلاح شئونهم . وقد حقد عليه أبو لؤلؤة فطعنه وهو يصلى بالناس فى آخر سنة ٢٣ هـ ٦٤٤ م

خلافة عثمان (٢٤ — ٣٥ هـ ٦٤٤ — ٦٥٥ م)

اختيار الخليفة

بعد أن طعن عمر لزم البيت من جرحته ودخل عليه المهاجرون يسألونه أن يستخلف عليهم فلم يقر ضميره على اختيار واحد . فاختار ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وشرك ابنه عبد الله فى الرأى بشرط الا تكون له الخلافة . وأوصاهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام يختارون فى أثنائها خليفة من بينهم . واختار المجلس عثمان وكان من أحب المقربين الى رسول الله ،

ورعاً لين الجانب. لم يكن له حزم أبي بكر وعمر، ترك شئون الحكومة في يد أهله ولا سيما مروان بن الحكم كاتم سره.

فلما آنس العرب ضعف عثمان تجددت بينهم الانقسامات. وثارت الفرس تريد استرجاع حريتها الأولى، بعد أن كبحت جماحهم شخصية النبي وهيبة وحزم أبي بكر وشدة عمر. وزاد الطين بلة أن عثمان جعل يعزل الولاة الذين عينهم عمر ويحل محلهم رجالاً أقل منهم كفاءة من أهل قرابته، فعزل عمرو بن العاص عن مصر وأقام بدله عبد الله بن أبي سرح.

استمرار الفتح شرقاً

وقد حصل الناس على بعض السنين الست الأولى من خلافته، وذلك لا يحولهم من الانقسام فيما بينهم وهم معرضون لتلك الأعداء منهم، إذ كان الأتراك يهددون الحدود الشرقية ويغيرون على ما فتحه المسلمون. فاضطر هؤلاء عند هذه الغارات ومدت الفتوح شرقاً إلى بلخ وكابل وهراة. ولما قامت ثورة في جنوب فارس لزمت العرب أن يفتحوا كرمان وسجستان.

إنشاء أسطول في بحر الشرق

أما في الشمال فقد أغارت الدولة الشرقية على سوريا فردها عنها معاوية سنة ٦٤٦. وعبر الفصول حتى قرب من شواطئ البحر الأسود. وفي السنة نفسها هجم الأسطول الروماني على الإسكندرية واستولى عليها ولكن العرب استرجعوها. فرأى معاوية ضرورة إنشاء أسطول ووافقه الخليفة على ذلك فأنشأ أسطولاً. وصار للعرب السيادة في بحر الشرق.

نهضة لادبية

وبينما كانت جيوش الاسلام تتقدم شرقاً وغرباً اهتم العرب بالشئون التجارية والعلمية فصححوا نسخ القرآن وعنوا بالقوانين الشرعية واللغة والفلسفة والمنطق. وكان أئمة هذه النهضة على بن ابى طالب وعبد الله ابن عباس اللذين قاما بالقاء محاضرات اسبوعيـة فى هذه الموضوعات بجامع المدينة

اواخر حكم عثمان

ثم بدأت الاقاليم تشكو من جور الحكام الذين عينهم عثمان. وذهبت الى المدينة وفود مصر والعراق وغيرهما وشكوا الى الصحابة سوء تصرف حكامهم. فقام على وغيره من كبار الصحابة بنصح الخليفة وانذاره سوء المنقلب اذا هو لم ينظر فى الامر، فعين محمد بن أبى بكر عاملا على مصر. وبينما هو فى الطريق اذ وقع فى يده كتاب بختم عثمان يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبى بكر. فعاد الوفد الى المدينة

مقتل عثمان

وأنكر الخليفة الكتاب وقرّ عزم الوفود على مهاجمته. وأرسل الصحابة ابناءهم وفيهم الحسن والحسين للدفاع عن عثمان. ولكن رجالاً من الوفود تسلقوا الجدران وقتلوه من غير أن يشعر المدافعون عنه فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ (١٧ يونيه سنة ٦٥٦) وقد أخذ على عثمان رضى الله عنه أنه أعطى خمس ربع أفريقية لمروان، واتخذ أكثر الولاة من قرابته، وترك شورى المهاجرين والانصار

خلافة سيدنا على (٣٥ — ٤٠ هـ — ٦٥٦ — ٦٦١ م)

بعد مقتل عثمان انتخب على بالاجماع وبويع فى المدينة لمكانته ولما له من حق الوراثة عن النبى. فبدأ بعزل الحكام الذين علت منهم

الشكوى، ورد الى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبني أمية . فعارضه معارضة بني أمية
هؤلاء منذ الساعة الاولى . وكان معاوية بن أبي سفيان قد حكم الشام نحو عشرين عاماً وجمع حوله « مائة الف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته » . فأعلن العصيان واستعد لمقاومة علي ، فتشجع غيره من بني أمية وحلفائهم واتهموا علياً بالتقاعد عن نصرة عثمان . فنقض طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام بيعة علي ، وفرا الى مكة و تفقا مع السيدة عائشة لما كانا يعلمان من طول بغضها لعلي

ثم انتقل طلحة والزبير الى الكوفة ولحقت بهما عائشة وجمعوا موقعة الجمل
جيشاً لمقاومة الخليفة ، وقد بذل علي كل جهده لاقناعهم بالتسليم فأبوا . وحدثت واقعة الجمل بالقرب من الكوفة وفيها قتل طلحة والزبير ، وأخذت عائشة أسيرة فأكرمها الخليفة وردها الى المدينة معززة مكرمة . ومن ذلك الوقت اتخذ علي « الكوفة » مركز الخلافة بدلا من المدينة

واستعد معاوية على كثرة عونه وتقدم نحو العراق فقابله علي عند موقعة صفين
« صفين » غربي « الرقة » وحاول الخليفة اقناع معاوية فلم يفلح ، فعرض عليه حقناً للدماء — أن ينازله ، فأبى معاوية وبدأ بالهجوم فهزمه علي ، في ثلاث مواقع استعد بعدها معاوية للفرار

وعند ذلك اقترح عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع جنوده خدعة عمرو
المصاحف على أسنة الرماح ويطلبوا تحكيم القرآن فخدع جنود علي ، وعبثاً حاول أن يقنعهم ان هذه إلا هي خدعة ، ولكنهم صرفوا فضاع انتصاره سدى وارتد مغاضباً الى الكوفة

التحكيم

انتخب معاوية عمرو بن العاص مفوضاً عنه وعزم علي أن يعين عبدالله بن عباس. فجاءه صحبه وألحوا بلزوم تعيين أبى موسى الاشعرى لكبر سنه وصلاحه فأذعن لطلبهم على كره منه، واتفق الحكمان أن يصدرا قرارهما بعد ستة أشهر أو أكثر اذا اقتضى الحال، وعاد معاوية الى دمشق وعلي الى الكوفة

الخوارج

وفى أثناء سير جيش علي الى مقر خلافته فكر رجال من جيشه — أكثرهم من قبائل تميم وبكر — ان اصرارهم على التحكيم كان خطأ يجب أن يكفروا عنه بمعاودة القتال ضد معاوية، وندم الآخرون على تخاذلهم عن تعضيد الخليفة وطلبوا اليه أن يرفض التحكيم الذى اكرهوه عليه، فأبت له مروءته أن يرجع فى وعده، فاجتمع منهم اثنى عشر ألفاً وقرروا الخروج على علي ومعاوية على السواء. ولجأ هؤلاء الخوارج الى الصحراء فتتبعهم علي وقتل منهم عدداً كبيراً فى واقعة « النهروان ». وفر الباقون الى البحرين والاحساء وكونوا نواة فرقة الخوارج. ومن رأيهم ألا يخضعوا لحكومة سياسية

نتيجة التحكيم

وفى أثناء ذلك كان الحكمان قد اجتمعا فى « دومة الجندل » حيث تفوق عمرو بحذقه ومهارته. فدفع أبا موسى بخلع علي ومعاوية وإخلاء السبيل لانتخاب خليفة جديد. ولما جاء الموعد أعلن أبو موسى خلع علي من الخلافة، ثم قام عمرو فقرر خلع علي وتثبيت معاوية. فاحتج أبو موسى على هذا الغدر والخيانة وذهل جميع الناس. ولم يجرؤ معاوية أن يلقب نفسه خليفة إلا بعد سنين. وأراد علي أن يخضع الشام فتخاذل عنه أهل العراق أولئك القوم القلب. وانتهى الأمر بعزم ثلاثة من الخوارج

على قتل علي ومعاوية وعمرو ، فقتل علي ونجا الآخران

كان علي شهما همامًا حكيمًا ذا مروءة وبطولة ، حريصًا على المصلحة العامة متهاونًا في حقوقه الخاصة إلى حد التفريط . ولو اتيحت له شدة عمر وصلابة أبي بكر لنال الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

أخلاق علي

وبموت علي سنة ٦٦١ انقضى عهد الجمهورية الاسلامية الأولى المعروف بعهد الخلفاء الراشدين

خلافة الحسن بن علي

بويع بعد علي ابنه الأكبر الحسن بايعه أهل الكوفة وما يليها ولم يكد يستوى في مركزه الجديد، حتى غزا معاوية العراق فقصد الحسن المدائن . ولكن جنده ثاروا عليه ونهبوا أمتعته وظهر أنهم يريدون تسليمه إلى معاوية. فتأكد أن أهل العراق الذين غدروا بوالده لا يمكن الاعتماد عليهم ، فقفل راجعًا وقابل معاوية وتنازل له عن الخلافة فأخذ معاوية بيعة العراقيين . وتعرف هذه السنة — سنة ٤٠ هـ . و ٦٦١ م بالسنة الجامعة لاجتماع كلمة المسلمين فيها

ولم يعمر الحسن بعد ذلك الا بضعة أشهر ومات مسموما في الغالب

الدولة الاموية

(٤٠ — ١٣٢ هـ ٦٦١ — ٧٥٠ م)

بعد تنازل الحسن صار معاوية حاكما على المسلمين ونقل مقر الخلافة الى دمشق ، وإنما ساعده على ذلك أنه ظل حاكما على الشام عشرين عاما

تمكن أثناءها من ايجاد جيش وأسطول قويين ، وتحبب الى الناس بالأعطية والوعود . وقد اعتمد معاوية أيضاً على عمرو بن العاص الذى ولاه مصر ، وزياد بن أبيه [1] الذى ولى الاقاليم الشرقية

صعوبة فتح افريقية

وكان معاوية سياسيا حازماً كريماً حليما . وحد كلمة المسلمين ومد فتوحهم فى أفريقية . وكانت هذه البلاد على عكس مصر وسوريا قد صبغت بالصبغة الرومانية ، وكانت قريبة من صقلية التى كانت ترسل اليها المدد أحياناً ولذلك صعب فتحها ، وزاد هذه الصعوبة ان جبالها كان يسكنها البربر الذين أبوا الخضوع للرومان وظلوا يدافعون عن استقلالهم معتصمين بالجبال ، فلما دخل العرب بلادهم قاوموهم مقاومة عنيفة فاستغرق فتح أفريقية ستين عاما

عقبة بن نافع

وقد أرسل معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) لفتح أفريقية فانتصر على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبى تونس . ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١

وفى حكمه أيضاً قام المهلب بن أبى صفرة بفتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من افغانستان . وانتصر معاوية على الرومان براً وبحراً

عهد معاوية لابنه يزيد

وقد خالف معاوية المبدأ الجمهورى من ترك الناس يختارون خليفتهم ، وعهد الى ابنه « يزيد » وطلب الى الناس ان يبايعوه واستعمل فى ذلك الدهاء والتهديد والترغيب والشدة والرشوة حتى بايعته وفود جميع الجهات . الا الحجاز حيث لم يزل فى السويداء رجال ينتصرون للفضيلة ويأبون ان

---

(١) زياد هذا ابن أمة لم يعترف معاوية بأنه أخوه لابيه الا بعد ان ظهرت مواهب زياد وحدهائه

يحكمهم رجل متبذل كيزيد . وأهم هؤلاء الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر . ومات معاوية سنة ٦٨٠ وقد تشبه بكبار الملوك فتنعم فى مأكله وملبسه وأقام الحراس والحجاب ، ولكنه كان مكباً على أعمال حكومته يصرف أكثر وقته فى النظر فى جلائل الأمور ودقائقها

موت معاوية

يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣)

قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد وهو — بصرف النظر عن مبالغة أعداء بنى أمية فى ذمه ظالم غليظ القلب لا يعبأ بالدين ولا بمبادىء السامية . ولهذا ثار عليه الحسين بن على . ولو بقى الحسين فى المدينة أو مكة لبايعه الناس وتم له الأمر ، ولكن أهل العراق ارسلوا اليه يلحون عليه ان ينتقل اليهم، فنصح له اصدقاؤه الا يركن الى العراقيين . ولكنه خدع ووقع فى الفخ الذى وقع فيه أبوه وأخوه من قبل . فسار نحو العراق مع أهله وقليل من أتباعه حتى وصل الى «كربلاء» قرب الفرات دون ان يرى أثراً لجيش العراق الذى وعد أن يستقبله ، لأنهم خافوا فتك عبيد الله بن زياد بن أبيه الذى ولاه يزيد عليهم. ثم هاجمه جيش ابن زياد وحال بينه وبين الماء . فطلب الحسين أن يسمح له فيرجع الى المدينة، أو يتقدم الى الحدود الشرقية القصوى حماية للبلاد من غارات الاتراك ، أو يؤخذ الى يزيد . فأبى الأعداء الا الحرب واستشهد الحسين وكل من معه من الرجال ، ولم ينج إلا النساء وطفل صغير هو على زين العابدين بن الحسين. ومنه تناسلت ذرية النبى صلى الله عليه وسلم

خروج الحسين

كربلاء

وقد أثارت حادثة كربلاء استياء المسلمين جميعاً وخاصة الفرس والحجاز ولم يزل هذا الاستياء ينمو فى فارس حتى ساعد على إقامة الدولة العباسية على أنقاض ملك بنى أمية

حرب المدينة

أما فى الحجاز فثار أهل المدينة وعصوا يزيد ، فأرسل لهم جيشاً بقيادة «مسلم بن عقبة» فقابله أهل المدينة فى وقعة الحرة حيث استشهد كثير من سلالة المهاجرين والانصار ، وانتقم يزيد من أهل المدينة فخربها جيشه ودمرها فعادت الى حالتها قبل الاسلام

ثم مكة

ثم انتقل الامويون الى مكة حيث قام بالخلافة عبد الله بن الزبير وحاصروها وهدموا كثيراً من بيوتها ولم يستثنوا الكعبة . الا أنه فاجأهم موت يزيد فرفعوا الحصار وعادوا الى الشام

معاوية الثانى

وخلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً تقياً نشأ على حب بنى هاشم فأعلن مخالفته لسياسة سلفه ، ولكنه مات بعد أشهر وبموته انقرض فرع أبى سفيان بن حرب

مروان بن الحكم (٦٨٣ – ٦٨٥)

بموت معاوية الثانى انقسم الامويون على أنفسهم واستعد مروان بن الحكم وهو زعيم أكبر حزب فى الامويين ـ أن يبايع عبد الله بن الزبير الذى بايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر ولم تخل الشام من

عبد الله بن الزبير

أعوان له . ولو خرج عبد الله من مكة وأظهر نشاطاً واقداماً لنال البيعة فى الشام أيضاً ، ولكنه تخوف وتباطأ حتى تشجع مروان واحتال على زعماء قومه فأعلنوه خليفة . واستعان بالقحطانيين وبهم تقدم الى لقاء أنصار

عبدالله من المضريين يقودهم «الضحاك بن قيس» الذى ولاه عبدالله على الشام ، فقابلهم عند «مرج راهط» وهى على بضعة أميال شمالى شرقى دمشق ونشب القتال حتى فنى المضريون عن آخرهم . وأصبح مروان خليفة فى دمشق ، ولكنه مات سنة ٦٨٥ بعد أن عهد بالخلافة لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز

عبد الملك بن مروان

٦٥ — ٨٦ هـ ٦٨٥ — ٧٠٥ م

كان عبد الملك نموذجاً من بنى أمية فى نشاطه ودهائه وعدم تقيده بالقوانين الادبية . وقد تمكن بمقدرته الفائقة على تقوية مركزه ، فأرسل جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع الخوارج فى العراق ، وسكانهم أعدوه انتقاماً لمقتل الحسين . ثم وجه جيشاً بقيادة الحجاج إلى مكة فضيق الخناق عليها حتى حصلت فيها مجاعة عظيمة وانفض كثير من أتباع عبدالله عنه ولم يبق معه الا نفر قليل . فأشارت عليه أمه أسماء بنت ابى بكر أن يموت شهيد الحق[1] فهاجم الاعداء وصدهم إلا أنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه الى المدينة ثم الى الشام . وبذلك انتهت خلافة عبد الله بن الزبير بعد ان استمر تسع سنين يخطب باسمه ويحكم العالم الاسلامى ما عدا الشام

استشهاد ابن الزبير

وأهم فتح حصل فى عهده عبد الملك هو تمام فتح أفريقية . اذ أرسل جيشاً سنة ٦٩٣ يقوده «زهير» نائب عقبة بن نافع فتوغل فى البلاد ، ولكن حسـ

فتح افريقية

---

(١) مما قاله له في ذلك «عش كريماً أو مت كريماً» قال « [illegible] » قال « [illegible] »

المدد الى الرومان من صقلية فقتل زهير وارتد جيشه الى برقة . فرأى عبد الملك أن يهاجم أفريقية من طريق البحر وتغلب عامله « حسان بن نعمان » على الروم والبربر واسترجع القيروان . وترك الرومان أفريقية للعرب سنة ٦٩٨ ، إلا أن البربر ثاروا بقيادة امرأة تلقب « الكاهنة » وفتكوا بجيش حسان وردوه الى برقة . فأرسل عبد الملك جيشاً آخر استطاع به حسان أن يقضي على قوة الكاهنة فخضع البربر واعتنقوا الاسلام . ولم يبق الا مراكش التي فتحها موسى بن نصير سنة ٧٠٨ في خلافة الوليد

اصلاحات عبد الملك

وأهم إصلاحاته استعمال اللغة العربية فى كتابة الدواوين بدل اللغات المحلية التي كانت تستعمل فى الولايات المختلفة، وضرب نقود خاصة للعرب بعد أن كانوا يتعاملون بنقود الرومان والفرس فضرب فى عهده الدينار وهو نصف جنيه بالتقريب، والدرهم ويساوى أربعة قروش [1]

ومات عبد الملك فى الثانية والستين من عمره سنة ٨٦ هـ . وكان يحب الشعر والشعراء حريصاً ، قاسياً حربياً قوى الارادة لا يثنى عن عزمه

الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ : ٧٠٥ — ٧١٥ م)

ولى الوليد الخلافة بعد أبيه ، لأن عمه عبد العزيز بن مروان كان قد مات . وفى عهده بلغت دولة بنى أمية أعلى درجة فى الفتوح والثروة والمدنية . فالأتراك نقضوا عهدهم مع المسلمين وقتلوا منهم من وقع تحت يدهم . فتقدم « قتيبة » عامل خراسان وأغار على بخارى وطخارستان وفرغانة . ولما فتحت هذه البلاد لم يقتصر على امتلاكها ، بل

---

(١) والدينار معرب عن اللاتينية والدرهم معرب عن الاغريقية

نزلت بها أسر عربية بقصد الاقامة وانتشر فيهم فقهاء المسلمين ، فاعتنق أهل البلاد الاسلام واشتد تعلقهم به ونبغ منهم علماء فطاحل

كذلك وجد «محمد بن قاسم» عامل مكران ان القبائل التي بين السند وبلوتشستان لا تنفك عن مناوءته فضم السند وملتان وجزءاً من البنجاب . واستوطن العرب هذه الجهات أيضاً ونشروا الاسلام فيها

وكان مسلمة بن عبد الملك ـ أخو الخليفة ـ يقود الجيوش في آسيا الصغرى فاستولى على أكثرها

عمر بن عبد العزيز

وعين الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز عاملاً على الحجاز، فسار على نهج الخلفاء الراشدين وأحسن ادارة البلاد وعمّر مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق تسهيلاً على الحجاج ، فعاد الى هذه البلاد رونقها الأول وأمها كثير من أهل العراق فراراً من الحجاج ابن يوسف الثقفي، فشكا هذا الى الخليفة أنه لا يستطيع أن يحكم ولايته ما دام يسمح لأهلها أن يفروا الى الحجاز ، وانتهى الأمر بعزل عمر بعد أن حكم نحو خمس سنين أعادت الى الأذهان ذكرى السلف الصالح

فتح الأندلس

وبينما أفريقية متمتعة بالتسامح والعدل كانت اسبانيا تئن من حكم القوط الغربيين وعنائهم الاقطاع ، وكان اليهود يقيمون فيها مضطهدين من جانب الأشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعاً عبيداً . ولهذا هرب كثير من المضطهدين الى افريقية وطلبوا الى موسى بن نصير عامل بني أمية على افريقية أن يخلصهم من ظلم « لرزيق Roderick » مغتصب الملك . وانضم

اليهم أبناء الملك المخلوع و « الكونت جوليان » حاكم « سبتة » حين أهان الملك أخته

واستأذن موسى بن نصير فى فتح الأندلس واحتل جزر ميورقة ومنورقة وأرسل حامية بقيادة طريف بن مالك لاستطلاع الاحوال فى أسبانيا ، ثم نزل طارق بن زياد بالاندلس ومعه سبعة آلاف ، سنة ٧١١ وتقدم دخل البلاد وجاءه المدد من أفريقية وهزم جيش « لذريق » فى موقعة « شريش » وغرق الملك ، ودخل العرب قرطبة وغرناطة وطليطلة وكانت العاصمة . ثم انضم موسى الى طارق وتمما فتح اسبانيا الى جبال البرانس . وفى هذا الوقت استدعى موسى بن نصير الى دمشق فوصلها بعد موت الوليد وأساء الخليفة الجديد سليمان ابن عبد الملك مقابلته فمات فقيراً

أما العرب فى الاندلس فعبروا البرانس وفتحوا جنوب فرنسا ، والتحموا بجيش « شارل مرتل » فى موقعة « بواتيه أو تور » سنة ٧٣٢ كما تقدم ومات قائدهم « عبد الرحمن الغافقى » وارتد العرب الى اسبانيا ولم يعودوا لفتح فرنسا بعد ذلك

[illegible]

وتوفى بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك ، وأهم ما حدث فى عصره انه أرسل جيشاً عبر الدردنيل وخضع تراقيا وحصر القسطنطينية سنة ٩٨ هـ ، الا أن المجاعة والمرض ألزم المسلمين رفع الحصار . ومات سليمان فى العام التالى ٧١٧ — وأعقبه ابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو ينتسب الى عمر بن الخطاب وشهرته بالتقوى والعدل أشهر من أن تذكر ، وكان قصده توطيد دعائم الخلافة ورد المظالم وتحسين حال الرعية ، غير

متطلع للفتوحات الخارجية . وجاء بعده يزيد الثاني وهشام بن عبدالملك ومروان الثاني . وفى مدة هؤلاء جهرت الدعوة لبنى هاشم التى أدت الى انقضاء الدولة الاموية سنة ٧٥٠

وأهم مميزات هذه الدولة :

أهم مميزات الدولة الاموية

١ - أنها كانت سياسية أكثر منها دينية فكان كثير من خلفائها لا يهتمون كثيراً لأمر الدين . بل كان بعضهم غير مكترث بالشعائر الاسلامية يدمنون الخمر و يلهون بالصيد ، ولكنهم على العموم كانوا على جانب عظيم من المهارة السياسية والكفاءة الادرية ، فمدوا سلطانهم شرقاً وغرباً ووحدوا كلمة المسلمين وأحسنوا ادارة الأقاليم

٢ - كانت دولة بنى أمية عربية بحتة تعتمد على العرب فى الأمور الحربية والسياسية وكان العرب إذ ذاك شعباً مقتصداً قوياً متفانياً فى نشر الاسلام . وقد استطاع الأمويون أن يستفيدوا من جهود القحطانيين والعدنانيين . وانتشرت فى عهدهم اللغة العربية و رقى الشعر

٣ - اعتمدت الدولة على ما أوتيت من قوة وسلطان ولم تركن الى الرأى العام ولم تحاول كسبه . حتى مال الناس عنهم وانحازوا الى جانب بنى هاشم كما سيأتى بعد

الدولة العباسية

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ — ١٢٥٨ م)

الشيعة

لما جعل الأمويون يضطهدون بنى هاشم صير حزب يعارض الأمويين ويعضد أبناء على ويعرف هذا الحزب بالشيعة . وهم يخالفون

أهل السنة فى اعتقادهم ببطلان خلافة أبى بكر وعمر وعثمان، وبأن لعلى الحق المقدس فى الخلافة. وشاعت هذه الدعوة فى العراق وفارس وخراسان، لبعدها عن مقر الخلافة ولأن الموالى من الفرس وغيرهم أرادوا أن ينالوا نصيباً فى إدارة الحكومة، فصارت الدعوة تناوىء بنى أمية خاصة، والعرب عامة

ثورات بنى على

وقد حاول كثير من بنى على الخروج على الأمويين، وانتزاع الخلافة من أيديهم فلم يوفقوا، بل ضاعوا ضحية هذه الثورات حتى انتهى أمرهم بقتل زيد بن على زين العابدين وابنه الامام يحيى، وبذا خلا الميدان لبنى العباس، وكانوا يدعون للخلافة أيضاً لانتسابهم الى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم

أبو مسلم

وأكبر عضد للعباسيين ابو مسلم الخراسانى الذى دخل خدمة رجال بنى العباس منذ صغره، ولما ظهرت خبرته وذكاؤه صار زعيما لنشر الدعوة فى خراسان، وما زال يستحث الهمم حتى تمكن سنة ٧٤٧ من نشر العلم العباسى الاسود [1] فى مرو عاصمة خراسان، منتهزاً فرصة اشتغال الأمويين بقمع ثورات الخوارج، فطلب نصر بن سيار عامل الأمويين الى مروان الثانى أن ينهض للقضاء على الدعوة [2]

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] مروان [illegible] شعر

أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب مبدؤها كلام

فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام

فقبض مروان على ابراهيم زعيم العباسيين وقتله ، ولكن أخويه أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور فرّا الى الكوفة حيث اختبئا . وتقدم أبو مسلم غربا سنة ٧٤٩ واستولى على العراق . ثم تقابل جيش العباسيين بقيادة « ابن عون » وجيش الامويين بقيادة مروان عند « نهر الزاب » قرب الموصل فانهزم مروان وفر الى دمشق . فتتبعه العباسيون و ستولوا عليها وطاردوه الى أن قتل فى أبي صير بصعيد مصر سنة ٧٥٠ ، وبموته انتقلت الخلافة لبني العباس فانتقموا من الامويين وأفنوهم عن آخرهم .

موقعة الزاب ونهاية حكم الامويين

ولم ينج منهم الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي فر الى الاندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة

[illegible] الاموي الى الاندلس

وكان قد بويع أبو العباس عبد الله السفاح فى الكوفة فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ (٢٥ نوفمبر سنة ٧٤٩) . وكان السفاح رغم قسوته كريماً ملتفتاً الى واجباته أخضع الثورات التي قامت فى دمشق وفلسطين ، وولى على الاقاليم رجالا من بنى العباس يثق بهم ، وعهد بالخلافة لأخيه أبي جعفر المنصور

خلافة أبي جعفر المنصور ٧٥٤ — ٧٧٥

يعد أبو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة ، لانه أحكم الرابطة بين القوة الزمنية والسلطة الدينية ، فكانت الثانية مصدراً مهماً من مصادر قوة الدولة وعماداً متيناً لها ، وبدأ سلسلة الاصلاحات وجلائل الاعمال التى على منوالها نسج من أتى بعده . وأهمها استبدال العمال بغيرهم حيناً بعد حين ، وعزل من يخشى استقلالهم بالحكم من ذوى العصبيات القوية

وأهم أعماله بناء بغداد على الشاطىء الغربي لدجلة قرب المدائن سنة

بغداد

٧٦٦ ، وقتل أبا مسلم الخرساني خوفاً من عظم نفوذه ، وأخضع الثورة التي قام بها أتباع أبي مسلم وحصن الحدود التي بينه وبين الروم واتخذ خالد بن برمك وزيراً له . وبدأت عظمة البرامكة ، الذين قاموا بعباء الوزارة في صدر الدولة العباسية . وكانوا من أكبر دعائم التقدم والرقي فيها

وكان المنصور يشرف على كل أعمال الدولة بنفسه ويستعرض الجند ويفتش الحصون ويراجع الدخل والمصرف ويحاسب عماله حساباً دقيقاً

ولما انهكت الاعمال صحة المنصور قصد مكة ليقضي فيها بقية حياته فمات على بضع ساعات منها سنة ٧٧٥ وخلفه ابنه المهدي

خلافة المهدي والهادي (١٥٨ — ١٧٠ هـ : ٧٧٥ — ٧٨٦ م)

كان محمد المهدي على عكس والده ، كريماً رحيماً وكانت دولة العباسيين قد رسخت قدمها فعزم المهدي على إزالة أثر كل اساءة أوقعها المنصور . فعفا عن كثير من المسجونين السياسيين ، ورد الى بني هاشم ما كان قد أخذه والده منهم ، ووسع المدارس وزاد في عددها

وفي أيامه ظهر في جرجان شرقي بحر قزوين حزب من الزنادقة ، يدعون الى عقائد مجوسية واسلامية والى اشتراكية متطرفة ، ويحتقر الادب والنظام فقضى عليه المهدي . ثم أكثر الروم من الاغارة على املاكه فتقدم اليهم هو وابنه هرون الرشيد وهزمهم وسار الى البسفور ، فصالحته ايريني القائمة بالحكم في قسطنطينية على دفع جزية سنوية

وخلفه ابنه موسى الهادي ولم يحكم غير سنتين وحدثت في عصره ثورة في المدينة فر على أثرها احد احفاد الحسن بن علي وهو ادريس الى المغرب فعظمه البربر وأنشأ الدولة الادريسية في افريقية فيما بعد

الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ — ٧٨٦ — ٨٠٩ م)

يعد الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان متمسكا بدينه تقياً محسناً . محباً مع هذا لمظاهر العظمة ماهراً فى قيادة الجيوش . كثير التجول فى أملاكه بقصد القضاء على الفوضى وتوطيد الامن وتعرف أحوال الرعية . فصارت الطرق سالمة بالامن وتقلب فيها التجار والعلماء والحجاج من أقصاها الى أقصاها . وقد شيد من المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ما يشهد له بالحرص على صالح رعيته وراحتهم

البرامكة
ويحسب بعض عظمة عصر الرشيد الى الرجال الذين قاموا بادارة البلاد في الجزء الاول من حكمه . لان يحيي بن خالد البرمكي كان معلماً للرشيد فلما صار خليفة استوزره وأطلق يده فى كل الامور، فدبرها بالحكمة والعدل والاحسان وساعده ابناه الفضل وجعفر وخلف الاخير والده فى الوزارة فقام بها خير قيام

بنو الاغلب فى افريقية
ولما كثرت الثورات فى أفريقية واستنزفت أموالاً طائلة ، قبل الرشيد أن يكون حكمها وراثياً فى بنى ابراهيم بن الاغلب نظير جزية سنوية قدرها أربعون ألف دينار، فصارت أفريقية بذلك مستقلة استقلالا اداريا

العواصم
وقد مد الرشيد حدود الخلافة شرقاً الى جبال هندوكوش ، وفصل الحدود الرومانية عن غيرها. وجعلها تحت الحكم العسكرى لتقوى على الدفع وسماها العواصم . وفى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) عهد

لابنائه الأمين ثم المأمون ثم القاسم ، وأقام الأمين على الغرب والمأمون
على الشرق والقاسم على ما بين النهرين والعواصم . وكان الرشيد يثق
بعبد الله المأمون دون الأمين

اضطهاد البرامكة

وبعد أن خدم البرامكة الدولة سبعة عشر سنة بإخلاص
وحزم ، حتى زادت ثروة البلاد على عهدهم وعمرت الأرض وارتقت
الصناعات وجميع وسائل الحضارة حسدهم كبار الدولة على علو مكانتهم ،
فأوقع الخليفة بهم على حين غفلة . والسبب الحقيقي أنهم قبضوا على
ناصية الأمور كلها ، بيدهم كل الدخل والخرج حتى أصبح الرشيد يطلب
المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير . فضلا عن أن كرمهم
حببهم إلى عامة الشعب ، فسارت بمديحهم الركبان ، وفاقت شهرتهم شهرة
أمير المؤمنين . فأمر بقتل جعفر وسجن يحيى وبقية أبنائه حتى مات يحيى
والفضل ، ثم عفا الأمين عنهم ورد اليهم المأمون في خلافته ضياعهم

ثم مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة بلغت شهرته مبلغا
لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بامبراطور الصين وتبادل شرلمان الهدايا
معه ، فأرسل اليه الرشيد هدايا كثيرة تشير إلى ما عليه الدولة من الثروة
والتمدن . ولا سيما الساعة المائية التي دهش لها أهل أوربا قاطبة

الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ ، ٨٠٩ — ٨١٣)

ضعف الأمين

كان الأمين ضعيفاً مسرفاً مغرماً بالبذخ والترف ، فنفدت أموال
خزانته ، وأغراه وزيره الفضل بن الربيع بخلع أخويه ، والعهد إلى أبنائه
دونهم . وأرسل جيشاً يأتيه بالمأمون فانهزم عند الري فأعلن المأمون

نفسه خليفة وقبلته فارس بأجمعها وحاصر بغداد فتهدم جزء كبير منها ،
ثم وفق لأمين أن يسلم نفسه لأخيه ولكن بعض جنود الفارسية
قتلته في الطريق . فحزن المأمون وأكرم أبناء أخيه وزوجهم من بناته

انتصار المأمون

المأمون والمعتصم والواثق (١٩٨ — ٢٣٢ هـ . ٨١٣ — ٨٤٧)

بعد موت الأمين حصل هرج كثير في العراق ولشام استمر بضع
سنين . فما هدأت العاصفة تولى طاهر بن الحسين قواد المأمون الشرق وتولى
ابنه عبد الله بن طاهر سوريا ومصر . وكان عصر المأمون أزهر عصور
الحضارة العربية كما سيأتي بعد . ومما يدل على بعد نظره وولعه بالعلم
انه لم يقتنع ببقاء نشر التعليم متوقفاً على سخاء الخليفة ، بل قرر أموالا
ووقف أوقافاً دائمة يصرف منها على المدارس في جميع أنحاء الدولة .
وأباح الاستخدام في مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف
أديانهم ونحلهم

عناية المأمون
بالمدارس

وخلفه أخوه المعتصم فقفا أثره بوجه عام ، إلا أنه أراد أن يكبح
جماح جيوشه الفرسية فكون جيشاً جديداً من الاتراك وغيرهم من
الاجانب يقودهم ضباط من بينهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ، ولما ضاقت
بهم بغداد انتقل المعتصم وجيشه الجديد الى سر من رأى أو سامرا .
وسرعان ما صار لهؤلاء الاتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى قديما
حتى أصبح بيدهم عزل الخلفاء وتعيينهم . ولما تولى الواثق بالله تمم خطة
أبيه وزاد نفوذ الترك وأهمل الجيوش العربية والفرسية ، وعين أشناس
التركى سلطانا للدولة يقوم بادارتها باسم الخليفة .

ابتداء استخدام
الترك في الجيش

تعيين أشناس
سلطانا

نهاية عظمة العباسيين

وكان الواثق مغرماً بالعلوم ولآداب والموسيقى مشجعاً للزراعة والصناعة. وبموته انقضى عهد عظمة العباسيين اذ لم يخلفه إلا رجال يرتقون الخلافة ولا قوة لهم، ويموتون غير مأسوف عليهم، يوليهم الفرس أو الاتراك ذوو النفوذ في الجيش ويعزلونهم ويقتلونهم متى أرادوا. ولقلة أهميتهم في التاريخ، أهملنا ذكرهم.

وقد استمر اسم الخلافة العباسية ببغداد الى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) حين أغار عليها «هولاكو» التتارى وقتل المستعصم آخر خليفة عباسى فانقضت بذلك الدولة العباسية.

الفصل الثالث

الحضارة الاسلامية

عهود الخلفاء الراشدين والأمويين

كانت الخلافة انتخابية . وكان الانتخاب فى الواقع بيد المسلمين المقيمين فى المدينة حيث يحصل الانتخاب وتؤخذ البيعة بمسجدها الجامع ، ومتى تم اختيار الخليفة بهذه الطريقة بايعه باقي المسلمين عن طيب خاطر . واستمر ذلك مرعياً كما بينا الى أن استقرت الخلافة لمعاوية، فأصبح أمير المؤمنين يعين خلفه ويأخذ له البيعة فى حياته ، مستعملا فى ذلك سلطانه ونفوذه، وبهذا صارت الخلافة انتخابية فى شكلها وراثية استبدادية فى الواقع ونفس الأمر

وكانت الرآسة للخليفة يعاونه كبار الصحابة في القيام بأعباء الدولة . ففى زمن أبى بكر مثلا كان عمر يقوم بالقضاء ، وكان على كاتم السر ومنوطا بالنظر فى أمر الأسرى وفديتهم . وكان ولاة الأقاليم ينوبون عن الخليفة فى الامور الدينية والسياسية، ثم فصل عمر القضاء عن الادارة وجعل القاضي مسئولا أمامه فقط ومستقلا عن الوالى

كانت أهم موارد الدولة الزكاة وضريبة الاراضى وفرضة الرءوس والجزيات التى نصت عليها المعاهدات وخمس غنائم الحرب ودخل أرض الحكومة والمكوس ، وأكبر أبواب المصروفات تكاليف الادارة واعتمادات الحرب والمعاشات المختلفة التى كانت تصرف للصحابة والجند .

تعيين خليفة

حكومة

موارد الدولة

وضبط حسب الوارد والمنصرف ستعان عمر بالنظام الفارسى ورتب الديوان وبيت المال حيث كانت تقيد الواردات والمصروفات . وكان عمر لا يسمح لجنده أن يمتلكوا أرضاً فى البلاد التى فتحها العرب ، رغبة منه فى الاحتفاظ بالصفات الحربية فى العرب وصيانة لحقوق فلاحى البلاد الاصليين . أما باقى نظم الحكومة فلم يتم تكوينها إلا أيام الأمويين والعباسيين

عهد العباسيين ومعاصريهم

ينقسم حكم العباسيين إلى قسمين متميزين . الأول من ابتداء خلافتهم إلى موت الواثق بالله (٧٥٠ - ٨٤٧) ويعرف بالعصر الذهبى . والثانى من ذلك التاريخ إلى نهاية حكمهم سنة ١٢٥٨

اعتمد العباسيون على أهل فارس وخراسان الذين أوصلوهم إلى منصب الخلافة واتخذوا منهم الوزراء ورجال الدولة . فعين أبو العباس خالد بن برمك على ديوان الخراج . وزاد النفوذ الفارسى حتى بلغ أعلى درجاته فى عصر المأمون . ولما رأى المنصور أن دمشق مرتبطة بذكر الأمويين وبعيدة عن فارس ، بنى بغداد التى فاقت دمشق والكوفة والبصرة فى النبوغ العلمى . وسرعان ما شاعت العادات الفارسية وبدأت كتب الإغريق تترجم إلى العربيـة وظهرت هذه النهضة فى عهد الرشيد بتشجيع البرامكة ولا سيما يحيى وبنيه الفضل وجعفر . وكان البرامكة من الفرس العريقين فى المجد ، ويقال إنهم كانوا يمالئون الشيعة إلا أن كرمهم ومعاضدتهم للعلم ومقدرتهم فى الادارة خففت كثيراً مما

كان بين العرب والفرس من التنافس ، حتى ظهر في مدتهم عدد كبير من الشعراء من عرب وعجم ومولدين كأبي نواس وأبي العتاهية والعباس ابن الأحنف ومسلم بن الوليد، ونبغ الواقدي المؤرخ والكسائي النحوي والاصمعي اللغوي وأبو يوسف القاضي، فضاءت بهم خلافة الرشيد وفي عهده أيضاً اتسعت تجارة المسلمين وامتدت شرقاً إلى الصين وغرباً إلى امبراطورية شرلمان . وكان المأمون محباً للأبحاث العلمية فشجع العلماء على درس الفقه والشريعة والطب والرياضة والفلك والتاريخ الطبيعي

الحكومة في صدر الدولة العباسية

الخليفة — كان الخليفة من آل محمد صلى الله عليه وسلم فكانت له الرياسة الدينية والزمنية ، وقد ساعد نفوذهم الديني على عظم شأنهم كما أطال في عمر دولتهم . لأن احترام السلطة الدينية التي للخليفة كان عميقاً في قلوب الناس، حتى ان الحكام الذين استقلوا عنهم سياسياً لم يفكروا في الاستقلال الديني بل كانوا دائماً يطلبون من الخليفة مرسوماً يجعل مركزهم مشروعاً ، حتى السلاجقة أنفسهم لم يصيروا حكاماً الا بطريق توليتهم عن بني العباس

كان العباسيون يعهدون بالخلافة لمن بعدهم ويأخذون لهم البيعة من وجوه الناس ، وكان الخليفة إماماً وقائداً وأميناً لبيت المال وقاضياً ، كما كانت الحال زمن الامويين . ولكن اتساع الملك اضطره إلى ان يكل القيام بواجباته إلى رجال عديدين بعضهم في مقر الخلافة وبعضهم في الاقاليم . وأهم وظيفة أحدثها العباسيون هي وظيفة الوزير الذي كان

الوزير

ينوب عن الخليفة ويستعمل السلطة المطلقة باسمه، يخضع له كل الموظفين وينوبون عنه في وجبايته، فكان الوزير بيده كل مكاتبات الدولة ودخلها ومصروفاتها وتعيين الموظفين وعزلهم

مجلس الوزير

كان رؤساء المصالح يجتمعون في مجلس برياسة الوزير يسمى «مجلس الوزير». وأهم المصالح في ذلك الوقت ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الجند وديوان الشرطة وديوان الرسائل وديوان البريد وديوان النظر في المظالم وديوان الزمام وديوان الأكرة.

أهم الدواوين

وكان ديوان الخراج أهمها، أما ديوان الرسائل فكان واجب رئيسه وضع المرسومات والمكاتبات السياسية وتسجيل ردود الخليفة على الطلبات والشكايات المختلفة، وأما ديوان الزمام فنشأه المهدي في المركز المهمة فتحسنت الادارة بوجوده تحسناً كبيراً وكان يشبه قلم المراجعة، بينما كان صاحب البريد يراقب توزيع المكاتبات الرسمية ويستطلع الأخبار الهامة وكان له أعوان في الاقاليم يرسلون اليه التقارير السرية عن أحوالها، على أن هؤلاء لم يستغن بهم عن رجال البوليس السرى. وأما ديوان الأكرة فكان يعني بشئون الفلاحة والفلاحين

القضاء

كل القضايا المدنية لغير المسلمين كانت توكل لقضاتهم ورؤساء دياناتهم، وأما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة وكان في كل مدينة كبيرة قاض ينوب عنه قضاة في النواحي التابعة للمدينة، ويرئسهم جميعاً قاضي القضاة وهو يشبه وزير الحقانية للدولة كلها

وكانت القضايا الجنائية في يد صاحب المظالم، والمحكمة العليا تسمى ديوان النظر في المظالم. رئيسها الخليفة وأعضاؤها قاضي القضاة والحاجب

وكبار الرؤساء ويدعى اليها بعض رجال الافتاء . وكان هـذا المجلس
غير رسمي لا ينظر الا فى قضايا العظماء التى لا يستطيع أن يفصل فيها
صاحب المظالم وهو يشبه من بعض الوجوه النائب العمومى

صاحب الشرطة والمحتسب

كان بكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس تعينه
الحكومة مباشرة يسمى صاحب الشرطة يقوم بحماية أرواح الرعية
وأملاكها ويشبه الحكمدار ، أما المحتسب فأول من عينه المهدى وكان
رئيساً بوليسياً مدنياً يلاحظ الأسواق ويختبر الموازين والمكاييل
والمقاييس ، ويعاقب كل من يحاول الغش أو الاختلاس

الضرائب

كان أهم موارد الخزانة من الخراج والزكاة والفرضة وخمس حاصل
المناجم ورسوم المصانع وضريبة الملح والمصائد والمكوس ، وكانت
الضريبة تقبل نقداً أو من عين المحصول

حكومة المدن

كانت كل مدينة تقوم بشئونها خاصة فى درجة كبيرة وكانت
الحكومة العليا لا تتدخل الا فى قمع الاضطراب ، فكان لكل مدينة
مهمة مجلس يعرف « بديوان الشورى » مكون من أعيان المدينة تحت رياسة
« الصدر » الذى ينتخبه الأعضاء . وكان هذا الديوان يدير شئون المدينة
ويجبى الضرائب ويدفع للدولة القيمة المحددة ، وكانت الحكومة العليا
تقتصر على تعيين القاضى وصاحب الشرطة وصاحب البريد والحاكم الذى
كانت الحكومة تختاره من رجال الجهة . كذلك كانت تكتفى باستلام
الضرائب ومراقبة الرى وغيره من الأعمال الزراعية

الصناعة والتجارة والزراعة

تمهيد

رأينا انه فى عهد الامويين صارت العربية لغة المكاتبات الرسمية والدين والشعر والعلم فى جميع أنحاء الدولة ، وأن الاعاجم ولا سيما الفرس اشتركوا فى النهضة واشتدت المنافسة بينهم وبين العرب . ولكن هذه المنافسة خفت حدتها كثيراً فى صدر الدولة العباسية لان الفرس استعربوا لغة وعادات وأسماء وامتزج العنصران حتى لم يعد يمكن التفريق بينهما أيام المأمون . وأخذ الجميع يتبارون — لا فى ميدان الانساب ... بل فى ميادين التقدم المدنى والنشاط الادبى

الصناعة

استغل العرب موارد ثروتهم الصناعية فاستخرجوا الحديد من خراسان وفارس، والفضة والرصاص والملح الجبلى والكبريت من فارس أيضاً، والنفط من القوقاز والرخام من تبريز . واشتهرت دمشق والموصل بالتطعيم بالفضة والذهب وصنع الاسلحة الدمشقية المعروفة ، وصنع الزجاج والآجر المعقود فى البصرة وعظم شأن هذه الصناعة فى خلافة المعتصم لانه أقام المصانع فى بغداد وغيرها وشاعت صناعة المصابيح البلورية المحلاة بالذهب وغيره من الألوان فى دمشق

وتفوق العرب فى التطريز والسجاجيد والحرير والاطلس والكتان والوبر والشعر وشاعت صناعتها فى كل الجهات، وان امتازت دمشق بالكتان والكوفة بالحرير خصوصا المناديل وخراسان بالسجاجيد والاصواف وخوزستان بتكرير السكر والزيوت والاعطار، واكتشفت عملية تكرير السكر وصنع الورق ، وتقدم صنع المعادن فتمتعت أوربا بنتائج مخترعات المسلمين ونبوغهم العلمى

التجارة

وكانت التجارة لا تقل شأناً عن الصناعة فصارت البصرة مركزاً للتجارة مع الهند والصين عن طريق البحر، وتجروا مع شاطئ افريقية الشرقي وتوغلوا إلى البحيرات العظمى، وكشفوا جزر سومطرة وانجروا مع شاطئ غينيا، واخترقت قوافلهم صحراء افريقية إلى النيجر عن طريق المغرب ومصر فكشفوا الصحراء العظمى لأول مرة في تاريخ الحضارة، وشقت قوافل بغداد الى الهند والصين وبحر قزوين والبحر الاسود وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطئ البلطيق وداخل السويد، وامتدت تجارتهم الى قسطنطينية وثغور البحر الابيض المتوسط

رحلات

وقد صحب هذا التوسع حركة فكرية هامة إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الاجنبية ودوّنوا حقائق هامة عن أرضها وأهلها ولغاتها وعاداتها، فكان إحياء العلوم في الدولة العباسية لم يكن الا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التي وسمت كل شئون الحياة. شأن إحياء العلوم في النهضة الاوربية

الزراعة

كان العراق تحت إشراف الحكومة العباسية مباشرة فنال حظاً وافراً من عنايتها فتحسنت طرق الري التي ورثها العرب عن الفرس تحسناً عظيماً وأصبحت البلاد شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف. ولم تحرم بقية الأقاليم من مثل هذه العناية بل كانت الزراعة وفلاحة البساتين تعد من أول واجبات الحكومة

وقد وجه العرب جهدهم لتطبيق العلم على العمل في دراسة النبات ودرسوا صلاحية التربة لنباتات خاصة. واستعملوا الاسمدة لمختلفة صنوف النبات المتباينة، وعرفوا التطعيم وتوليد أصناف جديدة من

أشجار الفاكهة وغيرها ، وجلبوا الى بلادهم ما لم يكن معروفاً بها من قبل. فاشتهرت الاهواز وفارس بزراعة قصب السكر ، وأقام عبد الرحمن الأول بستان نباتات بقرطبة جلب اليه البذور النادرة من الشرق . وقد أدخل العرب الى أوربا نباتات كثيرة لم تكن معروفة أهمها الأرز وقصب السكر والمشمش والخرشوف

الفن والزخرفة

لما جاء الاسلام وأبطل عبادة الأوثان جرى الناس على كراهة التمثيل والتصوير . فوجه ذوو الكفاءة الفنية هممهم إلى البناء والزخرفة مستمدين الفن من الحياة النباتية والحيوانية والاشكال الهندسية والمناظر الطبيعية . متحاشين تصوير الجسم الانساني فشادوا مساجد وقصوراً آية في الجمال والابداع الهندسي كما تشهد بذلك آثارهم في قصر الحمراء ، قرطبة ومساجدهم بالقاهرة ودمشق وغيرها

العلوم

لما استقر العرب بالبلاد التي انبعثت فيها المدنيات القديمة كسوريا ومصر وفارس والهند وتولى الخلافة رجال مستنيرون كالرشيد والمأمون ، واستتب الأمن في أنحاء الدولة وعم الرخاء ، توجهت هممهم الى استطلاع علوم الأقدمين ، ومتابعة السير في مناحيهم العلمية المختلفة رجاء الوصول الى كشف ما يحيط بهم من أسرار الطبيعة وعجائبها ، واستخدام ما قد يتضح لهم من القوانين العلمية في ترقية أحوالهم المعاشية من زراعية وصناعية .

وأهم المدنيات التي نقل عنها العرب مدنية الاغريق التي كانت آثارها لا تزال باقية في مدن سوريا ومصر والاناضول ، لا سيما أن مدارس الطائفة المسيحية المعروفة بالنسطورية ، والتي اضطهدها أباطرة الدولة

الرومانية الشرقية . اضطرت الى الالتجاء الى العراق وفارس فسهل على العرب الاستفادة منهم . زد على ذلك أن الخلفاء فى صدر الدولة العباسية كانوا يرسلون بعوثا للبحث والتنقيب فى الكنائس والأديرة عما خلفه القدماء من العلوم وذهب بعضهم الى القسطنطينية والهند فى عهد المأمون .
أما العلوم التى أخذها العرب عن الأغريق فاعظمها شأنا الطب والفلسفة والجغرافيا والهندسة والفلك

وأما عن الهند فأخذ العرب الارقام الحسابية والفلك وحساب المثلثات وأما عن الفرس فأخذ العرب النظم الحكومية والبريد وبعض الكتب الطبيعية التى نقلها الفرس عن الأغريق

وقد بدأ العرب بترجمة هذه العلوم الى لغتهم ثم أضافوا اليها ابحاثا جديدة لم يكن قد طرقها الأقدمون . ففى الرياضة أنشأوا علم الجبر وطبقوه على الهندسة وابتكروا الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات ، وقوانين أخرى جديدة فى هذا العلم وكانوا أول من استعمل الكسور العشرية . أما فى الطبيعة والكيمياء فقد ضربوا بسهم صائب لا سيما فى الكيمياء ، فكتبوا عن العدسات ووضعوا نظريات جديدة فى انكسار الضوء وفى شكل الصور فى المرايا المنحنية . واكتشفوا خواص القلى والاحماض وابتدعوا مركبات جديدة كالكحول وحامض الكبريتيك وتحضير الزئبق وابتكروا أجهزة للتصعيد والتقطير والخلط والمزج

وأما فى الطب والصيدلة فأدخل العرب فى الطب نباتات كثيرة كان يجهلها اليونان كالراوند والكافور ووضعوا علم الجراحة ووصفوا آلاته وعملياته وجبر العظام ، وكتبوا فى أنواع الحمى ، ووصفوا جميع الحيوانات

والنباتات والاحجار والمعادن ذات الخواص الطبية . وهو أول من أقام المستشفيات والصيدليات

واشتهر المبتكرين والنابغين فى الفلك محمد بن موسى واخوته والكندى وابن يونس المصرى الذى بنى مرصدا بجبل المقطم واخترع جدول ساعة الدقاقة سنة ١٠٠٧ م .

وفى الطبيعة الحسن ابن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٠٨ ، وفى الطب ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦) والفخر الرازى وأبو القاسم ابن على وقد بقيت كتبهم تدرس فى أوربا عدة قرون ، واشتهر فى المادة الطبية ابن البيطار . وفى الفلسفة ابن رشد . ونبغ فى الجغرافيا الادريسى المولود بالمغرب سنة ١٠٩٩ والذى بقيت خريطته وكتبه تدرس فى أوربا أكثر من ٣٥٠ سنة مدونة . وظهر فى التاريخ الطبرى فى القرن العاشر والمسعودى وأبو الفداء وابن خلدون والمقريزى فى القرن الرابع عشر

وقد اهتم العرب بشئون التربية والتعليم وسبقوا كل ما كان معروفا فى أوربا فى تلك العصور أو بعدها . فقامت المدارس والمكاتب والجامعات فى أهم مدن الدولة العربية كبغداد والقاهرة وقرطبة وانطاكية ونيسابور . وأمها الطلاب من كل فج يحضرون دروس الجامعات

وقد وصلت ابحاث العرب وعلومهم الى أوربا أثناء العصور الوسطى عن طريق الاندلس وجنوب ايطاليا . حيث شاد العرب جامعات ومدارس زاهرة قصدها طلاب العلم من اليهود والمسيحيين الذين كانوا يحضرون دروس الجامعات جنبا الى جنب مع العرب ، فارتشفوا من عذب مناهلها ووصلوا الى علوم الاغريق القدماء التى كانت تدرس بها . وقد نقلوا

ما علموه الى اللغة اللاتينية فذاعت دراسة كتب ارسططاليس المنقولة عن العربية ، كما ذاعت كتب اقليدس فى الهندسة وكتب بطليموس فى الجغرافيــا .

ومن الطلبة الذين تعلموا فى جامعات العرب وكان لهم شـأن فى انعاش الحركة العلمية فى أوربا فى العصور الوسطى . الامبراطور فردريك الثانى الذى لم يدخر جهدا فى حث الاوربيين على دراسة العلوم الشرقية

وقد وصلت بعض مدنية العرب الى أوربا على أثر اتصال أوربا بالشرق فى الحروب الصليبية ، فكان تجار البندقية وجنوة وغيرهما من ثغور ايطاليا ينقلون الصليبيين الى الشرق على سفنهم ويعودون بها الى أوربا مثقلة بما وصلت اليه أيديهم من نفائس الشرق ومصنوعاته وكتبه . وما لبثت هذه التحف الشرقية ان انتشرت من ايطاليا فى بقية أسواق أوربا

ومن ذلك يتضح أن أوربا أخذت عن العرب القبس الذى سطع فى ايطاليا أولا ثم فى بقية أوربا ، وأخذ شكله النهائى فى النهضة الاوربية . فالاوربيون مدينون للعرب بايقاظهم من سباتهم العميق فى العصر الوسيط ، بل بعثهم من رمس العصور المظلمة الى هذه الحياة الملأى بالاعمال والآمال

الفصل الرابع

قيام دولة الفرنجة

شرلمان . (٧٦٨ — ٨١٤)

شخصية شرلمان

لا تكاد توجد فى العصر الوسيط شخصية أعظم أثراً من شخصية شرلمان، وليس من شك فى أنه أكبر ملك ظهر فى العصور الوسطى

كان شرلمان نشيطاً جلداً على مزاولة العمل لا يعتريه الكلال من مدرسة الحروب، يحب العلم ويؤثر مجلس العلماء . وأولع بتشييد المبانى المحكمة والقصور الشاهقة وقد دفعه ولعه بالعلم الى استحضار العالم الانجليزى « الكوين Alcuin » من مدينة يورك لفتح مدارس لتعليم أبناء أشراف الجرمان، وضاءت بعصره ظلمة العصور الوسطى ولم تنطفىء الجذوة التى أذكاها حتى بعد موته. وقد بذل شرلمان جهداً كبيراً لرفع المستوى الادبى بين أشراف الجرمان بفضل ما كان هو عليه من التقوى والاخلاص للدين وللدولة وأهلها

توحيده

كان يرمى الى جمع كل قبائل الجرمان تحت لواء مسيحى واحد، ولم يكن مانع من اتحاد هذه الوحدة لا قبائل السكسون الذين بقوا على وثنيتهم معتصمين بغابات بلادهم ومستنقعاتهم، فأرسل اليهم شرلمان الحملة تلو الحملة حتى أخضعهم لحكمه، ونشر بينهم الدين المسيحى وبنى الكنائس فى بلادهم ففاز بغرضيه جميعاً

إخضاع السكسون

تغلب على المارد

انتهز المارد فرصة اشتغال شرلمان بحملاته على السكسون وعملوا

على استرجاع مملكتهم فى ايطاليا . فهاجموا رومة واستغاث البابا بشرلمان فلبى الطلب سنة ٧٧٣ وتقدم الى ايطاليا وحصر ملك اللمبارد فى « بافيا » حتى سلم واضيفت املاكه الى املاك شرلمان وسمى نفسه ملك الفرنجة واللمبارد ، وقد وسع شرلمان املاك الفرنجة وزاد فى قوته

حروب مع الصقالبة

ولم يقنع شرلمان بحكم المانيا الى نهر الالب واخضع القبائل الصقلبية التى كانت تسكن بولنده وروسيا كما اخضع « التشك » فى بوهيميا و « الآفار » فيما يسمى الآن النمسا والمجر وقد الزم الآفار ان يعتنقوا المسيحية ، وضم بلادهم نهائيًا الى ملكه . ولحماية الحدود الشرقية لدولته كون امارات عسكرية شرقى نهر الالب تشبه العواصم التى كونها الرشيد لصد غارات القبائل المتبربرة التى كانت تغير على الدولة

حروب مع العرب

وفى أواخر القرن الثامن اختلف امراء العرب فى اسبانيا واستعان احدهم بشرلمان فدخلها واخذ برشلونه سنة ٧٩٨ فملك جزءا جنوب البرانس كان مهد القوة التى طردت العرب من الاندلس بعد قرون عدة

البابا والدولة

وبقيت كنيسة رومة تعترف بسيادة امبراطور الدولة الشرقية حتى قام النزاع بينهما على عبادة الصور المقدسة وغيرها ، واصدر البابا قرار الحرمان ضد الامبراطور . وشرعت الكنيسة فى الغرب ترتبط بالفرنجة وتتطلع لحمايتهم كما تقدم . ثم شب نزاع بين اشراف رومة والبابا « ليو الثالث » وكان الاشراف يريدون عودة الجمهورية فاضطر « ليو » ان يفر الى شرلمان سنة ٧٩٧ ويسأله المعونة على اعدائه فدخل شرلمان رومة

تتويج شرلمان امبراطورا

واعاده الى عرش البابوية . وبينما هو راكع امام المذبح فى كنيسة القديس بطرس فى عيد ميلاد سنة ٨٠٠ اذا بالبابا قد وضع على رأسه تاج

الامبراطورية فأظهر شرلمان الدهشة كأنه فوجىء بهذا العمل ولكن لا شك فى أنه صادف هوى فى فؤاده

وتما دعا البابا الى تتويج شرلمان أن الامبراطورية البوزنطية لم تعن بأمور الغرب ولا سيما بعد أن نشأ الخلاف الدينى . فاحتاج البابا الى حكومة قوية تحميه . فضلا عن أن شرلمان جدد بفتوحه العظيمة ومنزلته وأخلاقه ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة التى لم تبرح من الاذهان فكان جديراً أن يكون أمبراطوراً

وبهذ أعيد تكوين الدولة الرومانية التى سميت بعد ذلك مقدسة ، والتى بقيت رغم التفكك والمحن الى سنة ١٨٠٦ حين رأى امبراطورها أنه لا فائدة من تمسكه بأهداب هذا اللقب مع وجود الامبراطور نابليون ، فتنازل عنه . ونجم عن تتويج شرلمان

نتائج تتويج شرلمان

(١) أن ربطت ايطاليا والمانيا وصار خلفاء شرلمان ملزمين — بصفتهم خلفاء أباطرة الرومان القدماء — أن يخضعوا ايطاليا . فقسموا جهودهم بين هذه البلاد والمانيا وضعفت قوة الامبراطور فيهما . وقوى أمر العهد الاقطاعى فتأخر اتحاد المانيا وايطاليا الى القرن التاسع عشر

(٢) أخذ البابوات يدعون أنهم هم الذين عينوا شرلمان امبراطور وان الامبراطور يجب أن يخضع للبابا فنشب الكفاح بين الامبراطورية والبابوية طول العصور الوسطى

سياسة شرلمان

سعى شرلمان فى توحيد ممتلكاته فشدد الرقابة على أمراء الاقاليم الذين أصبح كل منهم يلقب «كونت» وبيده كل السلطة المدنية والحربية، وجعل يرسل رسله Missi Dominici الى الجهات المختلفة ليتعهدوا حال

البلاد وينظروا فى شكاوى الاهلين ويوفوه بتقاريرهم

وكان شرلمان مثال النشاط يجوب البلاد ليحافظ على صالح الرعية، وينشر العلم بينهم بفتح المدارس فى الكنائس والأديرة وكان قصره مجمع العلماء حتى سمي مدرسة القصر .

وبلغ من بعد صيته أن اهتم الرشيد بمصادقته حتى يساعده على الدولة الاندلسية. ومات شرلمان سنة ٨١٤ بعد أن ترك فى أذهان الاجيال المقبلة فى العصور الوسطى أثراً لا يمحى. وقد وسعت دولته الممالك المعروفة الآن بفرنسا وبلجيكا وهولندا وغرب المانيا وسويسره والنمسا والمجر وشمال ايطاليا وجزءاً من اسبانيا . وكانت عاصمته « آخن » وهى « اكس لاشابل »

تجزؤ دولة شرلمان

تمكن شرلمان بعزمه وحزمه أن يحكم أملاكه الشاسعة حكماً مستبداً قوياً، إلا أن العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية كانت تنزع الى تفكيك عراها، فكانت الجبال تفصل ايطاليا واستراسيا ونستريا وكانت القبائل الجرمانية البحتة فى استراسيا متميزة عن أهل نستريا وأهل ايطاليا وعن الصقالبة ولذلك لم تتماسك دولته طويلا

لويس التقى

خلف لويسُ أباه وكان ضعيفاً منقاداً للكنيسة تاركاً حبل الأمور على غاربها فكثرت الثورات وزادت سلطة الكنيسة حتى انتخب البابا بغير علمه. وخلف لويس أبناؤه الثلاثة واحتدم الخصام بينهم، فاتفقوا على

تقسيم الامبراطورية فيما يعرف « بمعاهدة فردن » سنة ٨٤٣ ، فأخذ « لوثير » نصف الامبراطورية والاراضي المتوسطة في أملاكها وأهمها هولندا الحالية وحوض الرين الى قرب مينز وحوض الرون وسويسره وشمال ايطاليا ، ولا تزال هذه الجهات تذكر باسمه في لورين . وأخذ « لويس » الجزء الشرقي من امبراطورية شرلمان وأخذ « شارل » الجزء الغربي . ولم تدم هذه المعاهدة طويلا لأنها تركت آثاراً باقية ، لان القسم الشرقي صار ألمانيا فيما بعد ، والقسم الغربي صار فرنسا وتقسم الأوسط بينهما ولا يزال موضع النزاع بينهما

لم يكن تنازع أحفاد شرلمان السبب الوحيد في انحلال دولته بل يضاف الى ذلك العوامل الجغرافية والجنسية واللغوية التي تقدم ذكرها وكثرة الهجوم على هذه الاملاك من نواحي عدة

فكان المجر كثيراً ما يخربون شمال ايطاليا والاجزاء المتحضرة من المانيا وأهم من هذه الغارات التي قامت بها جماعات من سكان سكندناوة والدنمرقة جعلت تنهب شواطىء المانيا وفرنسا وانجلترا ثم تعود الى بلادها . وعرف هؤلاء فيما بعد باسم « النرمنديين » وتركوا آثارهم في أكثر أنحاء اوربا

ولما رأى هؤلاء ضعف الجهات التي كانوا يغيرون عليها شرعوا يقيمون بها ، ولما سئم ملوك فرنسا توالي هجوم النرمنديين اتفقوا سنة ٩١١ مع رئيسهم « رولو » أن يكفوا عن الهجوم ويقيموا في المقاطعة التي صارت تعرف بنورمندية وسرعان ما اندمج النرمنديون في الفرنجة واعتنقوا المسيحية واستعملوا لغة فرنسا وعاداتها . ثم فتحوا انجلترا سنة ١٠٦٦

وفى القرن الحادى عشر نزل قوم من النورمنديين بجنوب إيطاليا بقيادة زعيمهم « روبرت جسكارد Robert Guiscard » وانتزعوا الحكم من الدولة الرومانية الشرقية ثم عبروا الى صقلية سنة ١٠٦٠ وطردوا العرب منها . وأقاموا مملكة عظم شأنها أيام ملكها « روجر الثانى Roger II » حتى صارت تشمل صقلية والنصف الجنوبى من إيطاليا



سفينة نورمندية

الفصل الخامس

النظام الاقطاعى وظهور قوة الكنيسة

لما عجزت الحكومة العليا عن صد الغارات السابقة الذكر اضطر امراء كل جهة أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم فسلحوا أتباعهم لحمايتها وكسبوا بذلك رضاء الاهالى وورث أبناؤهم مكانتهم هذه فاصبحوا شبه مستقلين لا يملكون الاراضى فحسب ، بل يحكمون المقيمين بها ويقضون بينهم ويقودون جيوشها ويجمعون منهم الضرائب ولا يسمحون لملك أو امبراطور أن يتدخل فى هذه الشئون التى عدوها حقاً لهم وان تظاهروا بالخضوع لمليك البلاد وقدموا له بعض المساعدة أثناء الحرب . وكان هذا النظام يختلف باختلاف الزمان وظروف الأحوال وبدأت معالمه تظهر أثناء انحلال الدولة العظيمة التى أقامها شرلمان .

ويطلق الاقطاع على الروابط الاقتصاديه والاجتماعية التى ربطت المجتمعات فى غرب أوربا قروناً طوالا . وقد أخذ شكله النهائى فى خلال القرن التاسع بعد الميلاد واستمر سائداً الى القرن الثالث عشر ثم أخذ فى الاضمحلال ، على أن آثاره لم تمحها الا الثورة الفرنسية

تلك الروابط كانت مؤسسة على ثلاثة اعتبارات مهمة

١ — ملكية الارض

كانت الأرض حسب النظرية السائدة فى عصر الاقطاع ملكا لله تعالى وانه منحها للملك وان الملك أقطعها لأتباعه ولم يدرك الناس

اد ذلك نظرية تملك الأرض التي نعرفها . القائمة على أن كل قطعة من الأرض لها مالك خاص يتصرف فيها بالبيع والرهن والهبة كيفما شاء لا ينازعه أحد بل كانو يعتقدون ان لكل أرض سيداً فوقه سيد آخر وفوق هذا سيد أكبر منه وهكذا

نشأة الاقطاع

ولما ضعفت الحكومة المركزية وأخذ القوى يتغلب على الضعيف لم يأمن صغار الملاك على أنفسهم ولا على أرضهم لأن الأمر كان للقوة فلجأوا الى كبار الملاك ووضعوا أرضهم تحت سيادتهم وتسلموها منهم ثانية بشروط يوفون بها مقابل حماية السيد لهم

أما كبار الملاك فالظروف قضت عليهم بالتفرغ للحروب دفاعية كانت أم هجومية . فوجدوا أن خير طريقة تعود عليهم بالمنفعة أن يقطعوا بعض أرضيهم الواسعة لرجال أحرار يصبحون تباعاً لهم مقابل الوفاء بشروط معينة . والأرض التي يقسمها صاحبها بهذه الصفة تسمى قطيعة

وأخذت هذه الطريقة تنتشر بين كل الطبقات في جميع انحاء غرب أوربا حتى لم تبق أرض غير مقطعة . وكثيراً ما كان التابع يأخذ القطيعة من السيد فيقطعها هو لاناس يصيرون اتباعاً له وهكذا ، وكانت القطيعة يرثها الابناء عن الآباء مقابل رسوم يقوم بها الوارث نحو سيد الأرض

٢ - الرابطة بين التابع وسيده

نشأت بين التابع وسيده حقوق وواجبات لم يكن بد من مراعاتها ولا فسد التعاقد الذي حصل بينهما . فواجب السيد أن يحمي تابعه ويدفع عنه العدوان، وان يفصل في القضايا التي يعرضها عليه . وعلى التابع

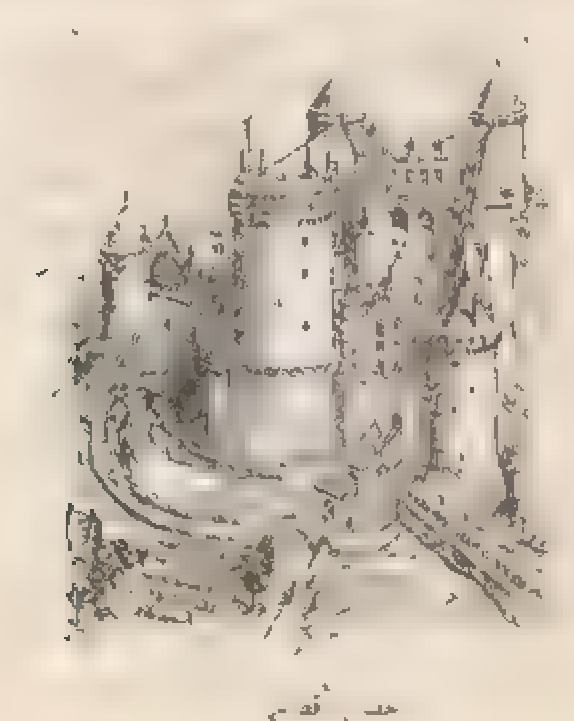
أن يقسم يمين الولاء والاخلاص لسيده فى حفلة دينية فيركع عارى الرأس ويضم يديه بين يدى سيده ويقسم على الانجيل ان يكون صادقاً مطيعاً لسيده معادياً لاعدائه فيقبله السيد ويأخذ بيده

وعلى التابع أن يحضر محكمة سيده ويشترك فى حل القضايا المعروضة عليها وأن يحارب تحت لوائه . ويقدم له منحة مالية فى كل ظرف من الظروف الثلاثة الآتية وهى حفلة فروسية ابنه الاكبر وزواج ابنته الكبرى ، وفدائه من الأسر . وهناك واجبات تختلف باختلاف الأحوال كأن يقدم التابع للسيد متى زاره قدراً معيناً من الماشية والطير أو العسل وما الى ذلك مما يحتاج اليه السيد

فارس اقطاعى فى عدته الحربية

٣ ـ الاقطاعات وعلى أثر تجزؤ دولة شرلمان وضعف الحكومة العليا تخلص حكام الأقاليم من رقابة الحكومة وورثوا وظائفهم لأبنائهم فانشأوا المحاكم وبنوا القصور الحصينة وقاموا بجميع الأعمال الادارية والحربية التى كانت للحكومة من قبل . وقلدهم فى ذلك كله كبار الملاك فى جهاتهم المختلفة فقامت ألوف من الحكومات الصغيرة ، كل منها مستقلة عن الأخرى فى الادارة والقضاء والحرب على الرغم من اعترافها جميعاً بالولاء

بسيادة الملك أو الامير صور. ولم تسلم الكنيسة نفسها من نظام الاقطاع، بل اضطرت الكنائس والاديرة كما اضطرت القرى والمدن الى الاحتماء باقوى الاشراف المجاورين لها؛ وبذلك صار الاساقفة ورؤساء الاديرة تابعين لاولئك الاشراف من جهة. ومن جهة اخرى قسم الاساقفة ورؤساء الاديرة ارض الكنيسة الى إقطاعات منحوها ناساً اصبحوا اتباعاً لهم



حصن اقطاعي

وقد اضطر كل مجتمع صغير أن يعتمد على نفسه في انتاج كل ما تدعو الحاجة اليه إذ لم يكن في استطاعته أن يعتمد على إنتاج الآخرين بسبب الحروب التي كثيراً ما كانت تشتجر بينه وبين جيرانه وبسبب الفوضى العامة وسوء طرق المواصلات

وكان يقوم بالانتاج من زرعة وصناعة عدد عظيم من طبقة تعرف زمن دارس في النظام الاقطاعي بطبقة رقيق الارض، وأصل هذه الطبقة من نسل الارقاء الباقين من عهد الدولة الرومانية ومن الاحرار الذين أصبحوا

لا يملكون أرضاً يستخدمهم الملاك فى حراثة الارض . وبتوالى الأجيال التصقوا بها بحيث اذا انتقلت ملكيتها من سيد الى آخر بقوا عليها

وكان السيد يمنح الرقيق قطعة من الأرض يزرعها لنفسه خاصة نظير جزء من المحصول يقدمه لسيده ، ونظير انقطاعه للعمل فى أرضه أياما مقررة من كل أسبوع ، ولم يكن للرقيق أن يغادر أرض سيده ولا أن يزوج أولاده بغير اذنه . وقد يتخلص من الرق مقابل مبلغ يتفق مع السيد على دفعه وقد رغب بعض السادة فى جمع المال بهذه الوسيلة خصوصاً عندما أرادوا القيام بالحروب الصليبية

الحروب وعيوب الاقطاع

قد يتسرب الى الذهن أن الإقطاع أوجد الأمن فى البلاد وصان مصالح الناس بالدقة ولكن الحقيقة غير ذلك فقد ظلت المنازعات والحروب سائدة وكثيراً ما كان التابع يحنث فى يمينه وينتهز أول فرصة لينقض على سيده متى آنس منه ضعفاً ، ولا سيما اذا كان السيد قاصراً أو امرأة ، فلم تكد تفتر الحروب بين السادة المتجاورين وبين كل سيد وأتباعه وبين الاتباع فيما بينهم . وليس ذلك بعجيب من قوم شغفوا بالحرب والفروسية الى حد أنهم كانوا اذ أعوزتهم الحروب عمدوا الى التسلى باقامة حفلات حربية يدعى اليها الفرسان من بلاد قاصية يتبارون بالرماح والسيوف حتى تسيل الدماء فى هذه الالعاب

وبقى الاشراف عاكفين على هذه المنازعات حتى سئمت الكنيسة هدر الدماء وارادت أن تخفف من ويلات الحرب فأعلنت الأشراف والفرسان أن يكفوا عن القتال ثلاثة أيام من كل أسبوع وهددت

بالحرمان كل من يخالف هذه الهدنة الربانية ، ثم انتهزت قيام الحروب الصليبية فحولت الحماسة الحربية نحو الشرق



المبارزة في العصر الوسيط

ومن مساوىء الإقطاع أنه حال دون تكوين ممالك متحدة فقد كان في فرنسا مثلاً أكثر من مائة قسم من إمارة كبيرة تكاد تكون دولة مستقلة ، الى قطيعة لا تتجاوز بضعة افدنه . وكذلك الشأن في بقية ممالك أوروبا . وعلى الرغم من اعتراف الامراء بسيادة الملك أو الامبراطور اسماً كانوا لا يترددون في الاستفادة من ضعفه وشن الغارة عليه في كل فرصة

وسهل عليهم ذلك ان الاتباع كانوا يقسمون يمين الولاء والاخلاص لسيدهم المباشر دون الملك ، فكانوا في حل من القتال تحت لواء سيدهم ولو ضد الملك . ولا ننسى انه لم يكن للملك في عهد الإقطاع جيش دائم

كالجيوش الحالية بل كان يعتمد أولاً على الفرسان المقيمين فى قصبته خاصة وثانياً على الفئات التى يمده بها أمراء البلاد . وكان نظام الإقطاع يقضى على كل أمير أن يقدم للملك عند الحرب عدداً معيناً من الفرسان مزوداً بالخيل والسلاح والمؤن فكان الجيش العام عبارة عن وحدات متباينة تحت قيادة رؤساء مختلفين

ومن المساوىء أيضاً انقسام الشعب الى طبقات عدة لكل طبقة مصالح وأغراض خاصة تعمل على الوصول اليها بالجور على حقوق الطبقات الأخرى وأهم هذه الطبقات الأشراف والفرسان والرقيق

العوامل التى أضعفت الاقطاع : —

الملك والشعب — إن الأشراف هم وحدهم الذين استفادوا فى عهد الاقطاع إذ تسرب الى أيديهم شطر كبير من سلطة الملوك . فأضحى هؤلاء لا يكادون يتمتعون بأكثر من لقب الملكية فأخذوا يتحينون الفرص للقضاء على نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لهم من القوة مستميلين العامة الذين كانوا يتألمون من الفوضى والظلم المقترن بالنظام الاقطاعى والذى حال دون استتباب الأمن اللازم لتنمية الصناعة والتجارة ، وبذلك اتحدت مصالح الملك والشعب فعملوا معاً على التخلص من نفوذ عدوهم المشترك . رغم أنه فى بعض الممالك بقيت للأشراف املاكهم والقابهم ، ولا سيما بعد أن صار الملك يختار مستشاريه وموظفيه من بينهم

الحروب الصليبية — لما قامت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر كان الأشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا، وخرج منهم عدد كبير الى

الشرق قتل أكثرهم وأقام آخرون في الاراضي المقدسة ، فقل بذلك عدد الأشراف في أوربا هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان إمداد الحملات الصليبية اضطرهم الى بيع أملاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم الى تحرير ارقائهم مقابل مبالغ أدوها اليهم الارقاء . وقد أقام هؤلاء العتقاء في المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة فزادت اهمية المدن وقويت الطبقة الوسطى واستطاعت المدن بفضل جدها وثروتها أن تشترى هي أيضاً حريتها من الأشراف ذوى السيادة عليها ، وتكتفي بحماية الملك أو الامبراطور

ظهور المدن

كان امراء الإقطاع يعتمدون على مناعة حصونهم ودروع فرسانهم فلما اخترع البارود واستعمل في أوروبا في القرن الرابع عشر وسلح به الملك رجالة من عامة الشعب لم تعد للحصون ولدروع حصانتها الاولى فضعفت قوة الامراء وزاد سلطان الملك .

اختراع البارود

أما أهم محاسن الاقطاع فصيانة أوربا من هجوم قبائل البربرة التي كانت تهددها . فقد أوقف زحف الصقالبة والمجر من جهة الشرق ، وقاوم غزو أهل الشمال من نرمنديين ودانمركيين . كما قاوم أمراء الاقطاع في جنوب فرنسا وفي ايطاليا محاولة عرب المغرب فتح هذه البلاد

محاسن الاقطاع

ولما طال استقلال الامراء في اقطاعياتهم تولدت فيهم روح حربية وصعبت عليهم الاستكانة لظلم الملوك الغاشمين وسترى الأشراف في انجلترا يوقفون الملك يوحنا عند حده ويجبرونه سنة ١٢١٥ على أن يمنحهم « العهد الأعظم » الذي كان اساساً لحرية الشعب الانجليزى

الفروسية

وربما كان أهم ما خلفه العهد الاقطاعى ظهور الفروسية التى تنطوى على مبادئ انكار الذات وأيثار الغير والمروءة والشهامة ونصرة الضعيف واحترام المرأة

كان العرب يعتمدون على الخيل فى حروبهم فعندما لهم «شارل مرتل» فى موقعة «تور» سنة ٧٣٢ أعجب بما للخيل من الصفات الحربية فكون فرقاً من الفرسان على النسق العربى ومن ثم انتشر النظام فى كل أوربا.



فارس والقرن الخامس عشر

وكان الفرسان يلبسون دروعاً ثقيلة من المعادن المختلفة لوقاية اجسامهم ويحاربون بالرماح والسيوف

وكان ابناء الاشراف يبعثون من سن السابعة الى فارس مشهور ينشأون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه فى الصيد والحرب . وفى سن الحادية والعشرين يحتفل بتنصيب الشاب فارساً ، وكانت الحفلة بسيطة فى أول أمرها ولكنها صارت دينية فاصبح الشاب يقضى ليلة الحفلة فى العبادة ليباركه القسيس ، فاذا أصبح حضر الصلاة ثم تقدم سيده فضرب كتفه بعرض السيف قائلاً

« قم يا سيد فارس » ويلقنه واجبات الفارس ويقسم الشاب أن يكون خادماً للكنيسة حامياً للمظلوم والضعيف عفوفاً طاهر الذيل كريماً محافظاً على مواعيده مضحياً كل شيء لأجل دينه ووطنه وصحبه

ومن هذا يتضح ان الفروسية كان لها مظهران . مظهر حربي تولد من نظام الاقطاع . ومظهر إنسانى جاء عن طريق الكنيسة . وكان يرجى من عهد الفروسية أن يخدم المجتمع فى عصر كثرت حروبه وانحطت فيه الأخلاق لولا أن الفروسية كانت ارستقراطية قبل كل شيء فلم يستفد عامة الشعب منها كثيراً

ظهور قوة الكنيسة والبابوية

مصدر قوة الكنيسة : أولا الدين

إن أول مصدر لقوة الكنيسة جاء من اعتقاد الناس أنها هى الواسطة فى غفران الذنوب ، والواسطة فى دخول الجنة . وقد كان الاهتمام بشؤون الحياة الأخرى شغلهم الشاغل . ومن شدة خوف الناس من عقاب الآخرة كانوا يعكفون فى بيوتهم . ويكرسون حياتهم لعبادة الله يعذبون أنفسهم فى هذه الحياة كى يخف عقابهم فى الآخرة . ولما كان رضاء الكنيسة ضرورياً لغفران الذنوب وكان غضبها مما يؤدى الى غضب الله ودخول النار ، أصبح للكنيسة سلطان قوى على الجميع

استقلال الكنيسة

المصدر الثانى لقوة الكنيسة هو استقلالها إذ بقيت الكنيسة تحت حكم الامبراطورية الرومانية حين كانت قوية ، فلما ضعفت الحكومة المركزية ودخل البرابرة الأقاليم الرومانية أخذت الكنيسة تتخلص تدريجياً من تدخل الحكومة فى شئونها ورقابتها عليها ، وجاهر أحد

أساقفة رومة في القرن الخامس « أن العالم تحكمه قوتان: قوة الكنيسة وقوة الملك والأولى متفوقة على الثانية لأن الكنيسة مسئولة أمام الله عن أعمال الجميع حتى الملوك أنفسهم ».

ظهور البابوية

ليس في قرارات مجلس « نيقية » ولا في قوانين « ثيودسيوس » ما يفسر أن لرومة أو لأسقفها أو كنيستها سيادة في أوربا غير أن الناس كانوا يعتقدون أن كنيسة رومة أسسها الرسول بطرس، صاحب المنزلة الأولى في نظر المسيح عليه السلام والمسيحيين ولذلك اعتبرت الأولى بين الكنائس في الغرب إذ ليس من بينها من تستطيع أن تفخر بأن مؤسسها رسول. وساعد على ذلك أن رومة كانت سيدة العالم وعاصمة الامبراطورية. فاعتبر أسقفها أول الأساقفة.

ليو الأكبر

ولما صار ليو الأكبر Leo (٤٤٠ – ٤٦١) أسقفاً لرومة وكان رجلاً عالي الهمة شجاعاً كبير الآمال والأطماع. وضع أساساً لقوة البابوية من حيث حمل فالنتنيان الثالث Valentinian III امبراطور الغرب أن يصدر سنة ٤٤٥ منشوراً يعلن فيه أن أسقف رومة متفوق على جميع أساقفة الغرب وأنه يعتبر المرجع الأعلى لهم جميعاً وحتم على الأساقفة تتبع أسقف رومة في كل ما يقرره وهدد كل من يخالف ذلك ببطش الحكومة وعقوبتها. وتعتبر مساعي « ليو » خطوة الأولى في تفوق البابا في غرب أوربا. فلما سقطت الامبراطورية الغربية أصبح أسقف رومة بطبيعة الحال الوارث للامبراطورية واعتبره الجميع زعيماً وممثلاً

لهم أمام قواد البرابرة وأخذ الأسقف يباشر بعض أعمال الحكومة

البابا غريغورى الأكبر (٥٩٠ — ٦٠٤)

ويعتبر غريغورى أول من رفع منار البابويه بعد أن كانت مجرد أسقفية، وذلك إذ كان له من اليد الطولى فى ارسال القسس والرهبان ليبشرو بالدين بين لوثنيين. واعادة المسيحية فى جنوب انجلترا بعد أن محاها السكسون الوثنيون

وزيادة على ذلك زادت قوة الكنيسة وثروتها وتسعت أملاكها فصرف غريغورى جزءاً من وقته فى إدارة « إرث لرسول بطرس » إدارة منطوية على الدقة والرحمة . وقد وجه التفاته أيضاً إلى ترتيب الطقوس الدينية والموسيقى والصلوات فى الكنيسة، وبهذه الوسيلة اجتذبت الكنيسة غير المسيحيين اجتذابا لم يكن لها من قبل . ولم يكن عمله فقط هو لدى رفع اسمه بل شخصيته أيضاً، من الاحترام والتوقير الذى استحقه أدى الى تسجيله قديساً بعد موته . ومن المؤكد أن الكنيسه لم تفقد الى الآن أثر الروح الذى بثه فيها غريغورى

أثر ظهور الاسلام

ولما ظهر الاسلام واستحوذ على أهم مراكز المسيحية فى الشرق خصوصاً الكنائس التى أسسها الرسل وهى بيت المقدس وسكندرية وانطاكية، لم يعد ينافس رومة الا القسطنطينية . ولكن أسقف الأخيرة فى تحت سلطة الامبراطور، بينما كان أسقف رومة بعيداً عنه ومستقلا عن نفوذه

ثم ما لبث قرب الاسلام من الدولة الرومانية الشرقية ان أدى إلى

لزوم الاصلاح بإخراج الصور والتماثيل المقدسة من الكنائس ، والامتناع من عبادة العذراء ، ووجوب تزوج القسس . وانضم الامبراطور «ليو الثالث» إلى هذه الحركة فثار سخط الكنائس الغربية وأعلن مجلس رومة سنة ٧٣٢ أن تحطيم هذه الصور زيغ ، وأصدر البابا قرار حرمان ضد ليو . واتسعت مسافة الخلف بين كنيسة رومة وكنيسة القسطنطينية . وزادت قوة رومة باعتمادها على تلك الدولة الفتية — دولة الفرنجة ذلك الاعتماد الذي حدا بالبابا أن يتوج «ببين» ملكا سنة ٧٥١ ، ثم شرلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ كما تقدم

الرهبنة والاديرة

الرهبنة فكرة فلسفية قديمة كانت معروفة قبل المسيحية اذ كثيراً ما كانت تنعزل عن العالم طوائف من الرجال وطوائف من النساء رجاء أن يعيشوا عيشة طاهرة

ابتدأت الرهبنة في الشرق حيث نفر الرهبان زرافات الى صحراء [illegible] مصر وغيرها، ليعيشوا في الكهوف والاكواخ الحقيرة وليقطعوا حياتهم في التعبد . ومن السابقين الى الرهبنة القديس «انطنيوس» المصرى، وكان تقياً ورعاً حج الى بيت المقدس ثم باع أملاكه وتصدق بثمنها ولجأ الى الصحراء سنة ٢٥١ واقتدى به آخرون، ومن ثم جعل الرهبان يجتمعون تحت سقف واحد فنشأت الاديرة ووضع لكل دير نظاماً خاصاً به . ومن مصر انتقلت الرهبنة الى شمال افريقية وصقلية ومنها الى ايطاليا وبقية اوربا

وفي نظام الاديرة غير مستقر حتى ظهر القديس «بندكت» (٤٨٠ [illegible] ٥٤٣) ووضع للاديرة نظاماً خاصاً مكنها من أن تقوم بدور جدى في تاريخ أوروبا . وقد امتازت الاديرة التى اتبعت تعاليمه

(١) بأن من كان يدخل الدير صار يقسم ويتعهد أن يعيش فقيراً أعزب وأن يطيع رئيسه مادام حياً

(٢) وبان حياة الراهب صارت حياة كد وكدح متوزعة في الكنيسة والدير والحقل، لكل ساعة من ساعات اليوم عمل خاص فجعلت الأديرة تقوم بالزراعة ورفعت من شأنها وضاعفت في حصلاتها . فضلا عن انها صارت معاهد للعلم

(٣) ولما كانت الرهبنة تفسر أحياناً بالعزلة قاوم بندكت هذه الفكرة أشد مقاومة فحتم على أتباعه أن يعيشوا معاً وينامو معاً ويعملو معاً ويقوموا بكل صغيرة وكبيرة لا أفراداً — بل بهيئة مجتمع

(٤) وكان كل دير يقوم بجميع شئون نفسه ولا يخضع لأسقف ما سوى إشرافه شخصياً

(٥) وقد أغفل بندكت فى قبول الرهبان كل الفروق الاجتماعية والمالية والجنسية، فظهرت المساواة والاخاء داخل الأديرة بين الرومانى والمتبربر والعبد والحر

ومنذ القرن العاشر حتى تطرق الضعف والفساد فى نظام الاديرة وقام اصلاحها من جديد. فنهض دير «كلونى Cluny» بفرنسا الذى تأسس سنة ٩١٠، وترأسه جماعة من أكفأ الرهبان عرفو بالصلاح والحزم والنشاط ففضل الدير بالرهبان. وتفرع عنه عدة أديرة سارت على نسقه وأصبحت مبادىء دير «كلونى» سائدة فى أكثر الأديرة الاوربية.

وفى أوائل القرن الثالث عشر بدأت حركة رهبنة اخرى على يدى القديس «فرنسيس Francis»

ظهور الجمعية الفرنشسكانية

نشأ فرنسيس فى أسرة غنية من مدينة «أسيسى» فى ايطاليا وقضى مدة صباه فى الترف واللهو حتى مرض وجعل يفكر فى الهوة التى تفصل الاغنياء والموسرين عن الفقراء والمعسرين، فعطف قلبه على المرضى والمساكين ورغب فى مواساتهم وتخفيف آلامهم. ولم يأبه بتهديد والده إياه بحرمانه من الميراث ولم يترك صحبة هؤلاء البؤساء، بل نزع ملابسه وارتدى ملابس الفقر وخرج يبشر بالانجيل فى وسط ايطاليا. وانضم اليه كثيرون

من أمثاله فأسس عهد «الاخوان الفرنشسكان» ونال موافقة البابا «أنسنت الثالث» سنة ١٢١٠ وقد تشبه الفرنشسكان بالسيد المسيح عليه السلام فشرعوا يجوبون البلاد حفاة بملابس رثة ،يعيشون بكدهم متى وجدوا عملا، فاذا أعوزهم العمل عاشوا على الصدقات، مهمتهم العناية بالمرضى وزيارة المسجونين وتفريج كرب البائسين

ولم تمض سبع سنين حتى زاد اتباع فرنسيس فانتشروا في جميع أنحاء أوربا يبشرون بالدين ويساعدون المحتاجين .



راهب فرنشسكان

وقد خاف فرنسيس أن تتغير أخلاق الاخوان إذا قبلوا ما عرض عليهم من الهبات ،فحتم عليهم أن يعيشوا في هذه الدنيا غرباء لا يقتنون شيئاً ، مفضلين الفقر والتواضع في خدمة ربهم.

ولم يكد فرنسيس يغادر الحياة سنة ١٢٢٦ حتى توالت على الأخوان الهبات وزاد إيرادهم ففسد نظامهم كما فسدت كل نظم الأديرة حين أغدقت عليها العطايا ، فزال عنهم الحماس الديني والتقشف الذي صحبه

ظهور الاخوان الدومنيكان

وبينما كان فرنسيس يكون جماعته قام القديس «**دومنيك**» بتكوين عهد آخر للرهبان الشحاذين ، وهو اللقب لذى أطلق على اتباع فرنسيس ودومنيك

ولد «دومينيك» باسبانيا سنة ١١٧٠ وكان على عكس فرنسيس مثقفاً بالتعليم الديني تخرج في جامعة أسبانيه ودخل في خدمة الكنيسة وذهب سنة ١٢٠٨ إلى جنوب فرنسا حيث روعه إلحاد طائفة «الالبيجنس» فعزم على أن يكرس حياته لاقتلاع بذور الالحاد. وانضم اليه نفر قليل وطلبوا من البابا أن يعترف بمعهدهم فأجابهم إلى ذلك بعد تردد يسير. وبدأ ينشر دعوته حتى استطاع أن يؤسس ستين ديراً قبل سنة ١٢٢٠ . وقد سار الاخوان الدومينيكان سيرة الفرنسسكان في جوب البلاد والتزام الفقر، غير أن الدومنيكان كانوا علماء بأمور الدين مهتمين بإقناع الملحدين وهداية الضالين وارجاعهم في أحضان الكنيسة. ولهذا اعتمد عليهم البابا في تنظيم محاكم التفتيش

ويمتاز الرهبان الشحاذون عن سابقيهم بأنهم لم يقضوا حياتهم في الاديرة بل جابوا الآفاق واختلطوا بصنوف الناس رجاء أن يخلصوهم من غواية الشيطان، واعتبروا أنفسهم جند المسيح عليه السلام يأتمرون بأمر رئيس المعبد كما يأتمر الجندي أمر قائده

ولما أدرك البابا عظم الخدمات التي يؤديها الرهبان الشحاذون للكنيسة رفع من شأنهم وأباح لهم تأدية الواجبات الدينية التي كانت قاصرة على القسس. فنشأ العداء بين الطائفتين - الرهبان والقساوسة - وفاز الأولون ونالوا رضاء الخاصة والعامة. ولما كثرت الهبات على الدومنيكان أصابهم ما أصاب اخوانهم الفرنسسكان

أثر الاديرة

ولقد كان للأديرة أثر عظيم في المجتمع أهم عناصره ما يأتي :

(١) قامت الأديرة بانهاض الصناعة واصلاح كثير من الاراضي

التى لم تزرع من قبل ، وكانت مثلاً حسناً لمن حولها من الزراع والصناع

(٢) كانت الاديرة ملاجىء يأوى اليها المريض ، ويعول عليها ابن السبيل فى وقت لم تكن فيه المستشفيات والملاجىء معروفة

(٣) بينما العلوم تمحى فى كل مكان آخر حفظت الأديرة على جذوة العلم التى انتفع بها علماء النهضة الحديثة واحياء العلوم فيما بعد

(٤) وأهم من هذا كله الخدمات التى بها أيدت الاديرة نظام الكنيسة وأعدت سلطة البابا . لانه رغم تشاحنها مع الاساقفة القريبين منها كانت دائماً تحض على طاعة رئيس الكنيسة كلها ، حتى ان كل تطور فى الرهبنة كان يصحبه تطور يماثله فى البابوية . وكان كل دير حصناً منيعاً وبعثة دفاع عن بابا رومة ، وسيفاً مسلولاً على رقاب كل من جرؤ على مخالفته

الفصل السادس

ظهور الممالك الحديثة فى اوربا

١ — فرنسا

يبدأ تاريخ فرنسا من معاهدة «فردان» سنة ٨٤٣ حين صار القسم الواقع غربى الرين والرون مملكة مستقلة يحكمها «شارل» حفيد شرلمان وقد بقيت هذه البلاد عرضة لغارات العرب والنورمنديين مدة قرن من الزمن. وعجزت الحكومة عن صد هؤلاء المغيرين وستفحل خطب أيما ستفحل فصارت القوة الحقيقية بيد أمراء الاقطاع وكبار الملاك. أما الملوك فكادوا يكونون بلا مملكة ولا جند ولا إيراد اللهم لا ما سمح أتباعهم بتقديمه لهم

انتخاب أودو ملكا

وقد اشتدت غارات النورمنديين فى أواخر القرن التاسع حتى حصروا باريس سنة ٨٨٥، ولم يجد الملك حيلة فى ردهم عنها، فحرى (أودو ...) كونت باريس للدفاع عنها، فرفع النورمنديون الحصار. ولم تمض ثلاث سنين حتى انتخب الاشراف «أودو» ملكا عليهم بعد أن عزلوا آخر ملك من أحفاد شرلمان. ولكن هذا الانتخاب لم يزد فى قوته كثيرا لتمسك كل شريف باستقلاله فى مقاطعته الخاصة، ولمنافسة بقايا أسرة شرلمان له ولمن خلفوه، ولاستمرار هجوم النورمنديين الى سنة ٩١١، حين اتفق الملك معهم أن يكفوا عن المشاغبة وأن يقيموا فى المقاطعة التى عرفت فيما بعد باسم نورمندية، فصاروا يحكمون هذه الجهة مستقلين فى الواقع، ولكنهم يعترفون

لملك فرنسا نوع من السيادة الاسمية . وقد اعتنقوا المسيحية بعد ذلك واندمجوا في الفرنجة وأصبحت بلادهم من أحسن وأرقى البلاد بأوربا

بقي الملوك يتمتعون بسيادة اسمية الى أن انتخب سنة ٩٨٧ «هيو كابت شعد ميوكا - Hugh Capet» من أسرة اودو ملكا على فرنسا . ومن هذا الملك تناسل كل الملوك الذين حكموا فرنسا منذ ذلك الوقت . وكان «هيو» أميراً قويا استعمل هو وخلفاؤه هذه القوة لرفع شأن التاج الفرنسي حتى انتهى الأمر باخضاع جميع أمراء الاقطاع ، وصار الملوك يحكمون البلاد بلا منافس ولا يكادون يتقيدون بقيد ما

كان «هيو كابت» وقت انتخابه ملكا يحكم أرضاً بين نهري السوم واللوار تشمل باريس واورليان وتعرف باسم «دوقية فرنسا» وفيما عدا ذلك يحكم في كل مقاطعة أمير مستقل يعترف للملك بشيء من الطاعة ويقدم له بعض الخدمات أحيانا . وقد قضى ملوك فرنسا ثلاثة قرون يوسعون ملكهم ويجورون على أملاك الامراء بأشكال وطرق شتى الى أن صارت فرنسا كلها لهم ، وصار كل فرنسي رعية للملك، وان بقي للاشراف كثير من الاملاك

فيليب الاول (١٠٦٠ — ١١٠٨)

هو أول ملك نرى في عهده زيادة في قوة التاج وما ذلك إلا لحادثين حصلا في أيامه ساعدا على هذه الزيادة بطريق غير مباشر ، الاول أن «وليم دوق نورمنديه» أقوى اتباع الملك غزا انجلترا سنة ١٠٦٦ وهزم «هرولد Harold» ملك الانجليز والسكسون في وقعة «هيستنجز»

«Hastings» وصار ملكا لانجلترا . وبالرغم من أن هذا الفتح ضاعف قوة وليم إلا أنه أبعده عن فرنسا التي صار لأحفاده فيها أملاك شاسعة استطاع الملوك الفرنسيون ضمها اليهم . والحادث الثاني انه عام ١٠٩٥ دعا البابا الى الحرب الصليبية الأولى في «كليرمنت Clermont» وخرج الى الشرق كثير من أدواق فرنسا الاقوياء لم يرجع منهم إلا القليل وقل بذلك عدد المعارضين للملك

لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠)

تزوج من «اليانور Eleanor» وارثة «أكتين» فأصبح من المحتمل اضافة هذه الدوقية العظيمة الى أملاك التاج الفرنسي ، ولكنهما لم يتفقا ، فطلقها لويس بدعوى أن قرابتها منه تحرمها عليه . ولسوء حظ فرنسا أن تزوجت «اليانور» من «هنري الثاني» ملك انجلترا فصار له في فرنسا «نورمنديه» و«انجو» و«أكتين» ومجموعها أكبر من أملاك التاج الفرنسي .

ظهور الطبقة الوسطى

ولكن لويس نجح في سياسته الداخلية ، وأهم شيء في حكمه تحسين الادارة في دوقية فرنسا ، وحصر السلطة في يد الملك ، والتفاف رجال لا من الاشراف فحسب - بل من رجال الدين والمحامين حوله ، يخلصون كلهم في خدمته ، وبهذا قويت الطبقة الوسطى التي صارت أقوى معاضد للملوك

فليب اغسطس Philip Augustus (١١٨٠ — ١٢٢٣)

هو أول ملك سعى في تحويل دوقية فرنسا الى مملكة فرنسا ، وذلك ان تابعه «هنري الثاني» ملك انجلترا نال بفضل المصاهرات أملاكا

فى فرنسا أكثر وأغنى مما يملكه فليب نفسه . وورث هذه الاملاك ابن هنرى «رتشارد» ثم «جون» . وكان جون هذا ملكا ضعيفا غبيا ، اقترف كثيرا من السيئات فدعاه ملك فرنسا يحاسبه على جنايته . فأبى الحضور أمام متبوعه . فعاقبه هذا بمصادرة أملاكه الفرنسية ما عدا أكتين .

فانضم جون الى الامبراطور « أتو الرابع » وساعدت الكنيسة فليب فانتصر على أعدائه فى موقعة « بوفين Bouvines » سنة ١٢١٤ وهى موقعة مهمة وهى من أهم المواقع فى التاريخ الاوربى ، بها أحرز التاج الفرنسى نورمنديه وانجو ، ثم صار ملك أراض أخرى واسعة حصل عليها بانتصاراته ، فأضحى ملك فرنسا أكبر أمير فيها لأول مرة ، وأضحى فى وسعه أن يناهض بقية الامراء

لم ينس فليب أثناء توسيع أملاكه أن يدخل اصلاحات مهمة اصلاحات فليب سيكون لها شأن كبير فى المستقبل ، فحافظ على حسن الرابطة بين التاج والكنيسة رغم الاختلاف فى بعض الاحيان . وثابر على سياسة جمع الطبقة الوسطى حول الملك ، بأن سمح للمدن بشطر من الحكومة الذاتية وكون مدنا جديدة . وشجع التجارة . فصارت باريس أعظم مدن فرنسا وزادت مساحتها وثروتها وأهميتها زيادة كبيرة فى عهده

وفوق هذا أوجد حكومة نظامية ومالية ثابتة وجيشا قويا . أما الموظفون فاختارهم فليب من الطبقة الوسطى دون الاشراف وجعلهم متوقفين عليه فى كل شيء . وأهم الموظفين هم النواب الذين كانوا يمثلون الملك فى الجهات المختلفة ويحافظون على حقوقه ونفوذه ، ويراقبون محاكم الاشراف ويقيمون ميزان العدل فى البلاد . وهم يشبهون رسل شرلمان

Missi Dominici . وأما الخزانة فملأها فليب بفضل اتساع ملكه وأخذه نقوداً من أتباعه بدل الخدمات الاقطاعية التي كانوا يقومون بها . وبحماية اليهود نظير هبات مالية يقدمونها له . وأما الجيش فلم يقنع فليب بالوحدات الاقطاعية التي كان يرسلها اتباعه . بل أنشأ جيشاً من رجال يختارهم هو ويدفع مرتبتهم . فيخلصون في خدمته

لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠)

صلاحه

كان هذا الملك قديساً مخلصاً لا يقل من هذه الناحية عن القديس فرنسيس . رغم أن أحدهم كان أقوى ملك في أوربا بينما عاهد الآخر نفسه أن يعيش فقيراً . كان لويس تقياً متقشفاً متواضعاً يخالط الفقراء ويعطف عليهم . وكان مع هذا حلو الشمائل دائم السرور محبوباً لدى رعيته



قصر لويس التاسع على السين

وسائر المسيحيين . حتى كانت الدول الاوربية ترجع اليه للفصل في مشاكلها الخاصة

ولم يحل صلاح لويس دون تمسكه بكل حقوقه إزاء الاشراف . بل

أزاء الكنيسة والبابوية فقد أكد للاشراف أنه لن ينقص من امتيازاتهم، ولما ثاروا عليه سنة ١٢٤٢، قضى عليهم بكل حزم وبأس حتى لم يعد يخشى أحد على التاج منهم. وحتم عليهم بعد ذلك أن يتعاملوا بالنقود التي يضربها الملك وأن يسمحوا لنائبه بحضور جلسات محاكمهم. كذلك لم يحل صلاح لويس دون تمسكه بحقوقه أمام البابوية نفسها، فلم يسمح لها بالتعدي على الحقوق التي كسبتها الكنيسة الفرنسية من قبل.

تمسكه بحقوقه أمام الاشراف والبابوية

وفي اواخر حكمه صار أخوه «شارل دوق انجو» مستكاً على صقلية ونابلي، وزاد هذا في عظمة الاسرة المالكة في فرنسا. وقد قام لويس بحملتين صليبيتين سيأتي الكلام عليهما فيما بعد

أما أعظم أعماله أثراً فهو ابتداء توزيع أعمال الحكومة وتقسيم مجلس الملك العام الى ثلاثة أقسام أو ظهوره بثلاثة مظاهر مختلفة: قسم يعنى بالامور الخارجية خاصة والسياسية عامة، وقسم ينظر في المسائل المالية ويشمل أعضاء المجلس الذين لهم خبرة أو ميل الى هذا العمل، وقسم يقوم بالقضاء ويحضره الاعضاء العارفون بالقوانين

تقسيم مجلس الملك

واشتهر هذا القسم الاخير باسم «البرلمان Parlement»، ولكنه لم يكن كبرلمان انجلترا يؤدي وظيفة التشريع، بل كان محكمة عليا تستأنف اليها القضايا المهمة. وقد نشط البرلمان ووسع اختصاصه وحرم محاكم الاشراف من بعض القضايا التي كانت تقدم اليها سابقاً، فصار بذلك دعامة من أكبر الدعائم التي عليها شيدت قوة الملكية

البرلمان

وفي حكم لويس صارت ممتلكات التاج تمتد بدون فاصل من بحر الشمال الى البحر الابيض المتوسط

فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤)

حاجة فليب الى المال

كان فليب ملكاً قوياً جريئاً، اتسع في عهده ميدان أعمال الحكومة وزاد موظفوها فاحتاج الى المال وسعى الى تحصيله بكل وسيلة وساعده في هذا وغيره موظفون اختارهم من الطبقة الوسطى ممن تشبعوا بروح القانون الروماني وما ينطوي عليه من تعظيم شأن الملك واطلاق يده في جميع أمور الدولة. ويمكن اعتبار حاجة فليب الى المال مفتاحاً لسياسته، فهي ما جرته الى محاربة فلندره والشحناء مع البابويه

فليب وفلندره

وكانت فلندره من أهم الاقطاعات التابعة لفرنسا وقد نشأت بها مدن صناعية تجارية زادت ثروتها بصناعة الصوف وغيره من المنسوجات، فأراد فليب أن يستولي عليها لتدر عليه خيراتها. فتغلب على الامير وحكمها سنتين، الا أن الاهالي ساءهم استبداد الملك بالسلطة، ولم يكونوا تعودوا الخضوع المطلق، فثاروا على الفرنسيين وانتصروا عليهم في موقعة «كرتراي Courtrai» سنة ١٣٠٢، فاضطر فليب أن يقنع بأخذ جزء يسير من فلندره الى ملك التاج

نزاع فليب والبابويه

وأراد فليب سنة ١٢٩٩ أن يزيد موارد خزانته، ففرض ضرائب على رجال الدين أسوة بغيرهم من رعاياه، فأصدر البابا قراراً حرم فيه على رجال الدين دفع هذه الضرائب، فتقدم الملك بمنع انتقال الذهب من فرنسا الى ايطاليا، فخسرت البابوية كل ما كانت تجبيه من الكنائس الفرنسية واضطر البابا أن يعدل عن خطته وأن يصالح فليب

تحسين القضاء

وكان فليب مولعاً بتقليد «جستنيان» وباستبدال طرق التقاضي

الاقطاعية طريقة التحقيق وإقامة الأدلة . وقد جد قضاة البرلمان فى رفع ملكهم الى مستوى الامبراطور الرومانى وجعله صاحب النفوذ المطلق ، فأصبحت كل القضايا المدنية التى تحدث فى ممتلكات التاج تعرض على البرلمان . وكثر الاستئناف اليه حتى أثقل كاهله فتضاعفت سلطة الملك فى القضاء ، وتفوقت محاكمه على محاكم الامراء



قصر صور من عهد شارل الخامس

مجلس طبقات الأمة

ولم يكن مجلس الأمة إلى ذلك الوقت جزءاً مهماً فى الحكومة ، وقتصر حضوره على كبار الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة ، فلما شجر الخلاف بين فليب والبابا ، أراد أن يتأكد أن الأمة فى جانبه ، فدعا المجلس للانعقاد سنة ١٣٠٢ وطلب إلى كل مدينة أن ترسل لحضوره مندوبين أو ثلاثة « ليسمعوا ما يقول الملك ويوافقوا عليه وينفذوا ما يأمرهم به » فقرر

المجلس موافقته على خطة الملك، ثم عقده فيما بعد عدة مرات على هذه الصورة فأصبح يعرف «مجلس طبقات الامة Etats Generaux» الاشراف والكنيسة والشعب المسمى الطبقة الثالثة

وبهذه الوسائل تمكن ملوك فرنسا من توطيد قوتهم ونشر نفوذهم واخضاع منافسيهم وجمع الشعب حولهم، والاستئثار بكل السلطة فى البلاد

انجلترا

من عهد سحيق نقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة «بريطانيه» فى شمال غربى فرنسا الى الجزيرة المواجهة لهم وسموها «بريطانيا» باسم بلادهم الاصلية، ومنها نزلوا ايرلنده. وقد بقى هؤلاء الاقوام أصحاب الشأن فى البلاد محافظين على العادات الكلتية التى سبق ذكرها، إلى أن دخلوا ضمن الامبراطورية الرومانية فى عهد الامبراطور «كلوديوس Claudius» وبقوا خاضعين لها حتى أخذت الدولة فى الضعف واضطرت نحو سنة ٤١٠ م. إلى سحب حامياتها من هذه الجهات النائية تحمى وطنها الاصلى من غارة «المتبربرين»، فترك الرومان بريطانيا بعد أن سلبوا أهلها صفاتهم الحربية الاولى وأصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم. فما أغارت عليهم قبائل «الانجليز» و«السكسون» و«الجوت» — الذين جاؤا من ألمانيا أثناء القرنين الخامس والسادس عقب سقوط الدولة الرومانية الغربية — سهل عليهم التغلب على البريطانيين الذين احتموا بالمستنقعات والجبال الغربية، وأصبحت البلاد تعرف باسم «انجلند» أى أرض الانجليز. ولذا يحسن التكلم عن هؤلاء المغيرين باسم الانجليز

غزو الانجليز والسكسون

تحولهم الى مسيحية

كان الانجليز وثنيين عندما هاجموا بريطانيا فأولعوا بنهب الاديرة والكنائس، ولكن البابا « غريغورى الاكبر » أرسل اليهم الراهب « أغسطين » سنة ٥٩٧ م. فانتشرت المسيحية بين الانجليز أنفسهم وارتبطوا من ذلك العهد باسقفية رومة

تفوق وسكس

أما من الوجهة السياسية فقد أنشأوا ممالك صغيرة متنافرة ما زالت في نزاع وشحناء، حتى تغلبت « وسكس » (أي مملكة السكسون الغربيين) على جميع الانجليز سنة ٨٢٥، فأصبح « أجبرت Egbert » ملكاً على جميع انجلترا وأدخل بعض اصلاحات تقليداً عن شرلمان الذى كان يعرفه شخصياً.

ولكن عهد السكينة لم يطل، اذ أن « أهل الشمال Northmen » الذين رأيناهم يغيرون على امبراطورية شرلمان وغيرها — أخذوا يغيرون على انجلترا أيضاً، ولا سيما الشواطئ الشرقية التى أصبحت عرضة لهجوم جماعات من الدنمرقيين. واستمر الكفاح بين الطرفين الى أن

ألفرد الاكبر

ظهر فى وسكس ملكها « الفرد الاكبر Alfred » (٨٧١ — ٩٠١) فقاوم الاعداء مقاومة عنيفة حتى اضطرهم فى النهاية أن يعاهدوه فى « ودمور Wedmore » سنة ٨٧٨ على الانسحاب من جنوب انجلترا والاكتفاء بنصفها الشمالى الشرقى، وأن يعتنق ملكهم الدين المسيحى.

اصلاحاته

وبعد هذا، أصلح « الفرد » حال الجيش والاسطول استعداداً للطوارىء، ووضع نظاماً لرفع مستوى التعليم بين رجال الدين، وشجع المكتشفين واهتم بالعلوم والآداب وأمر بترجمة كتب الاقدمين الى الانجليزية السكسونية فارتقت هذه اللغة، وبدأ فى عهده السجل

الانجيزى السكسونى «The Anglo Saxon Chronicle» وهو أهم المستندات التاريخية عن انجلترا من الازمنة القديمة الى سنة ١١٥٤

ولما مات «الفرد» قام خلفاؤه بتقوية وسكس وإضعاف الدانمرقيين مدة قرن من الزمن، حتى بلغت هذه المملكة الصغيرة شأوا عظيما فى عهد «ادجار Edgar» (٩٥٩ – ٩٧٥) بفضل مساعدة الكنيسة. ولكنها بدأت تنحط قوتها بينما زادت قوة أعدائها بانضمام النرويج والدنمرقة تحت حكم ملك واحد وهو «كانوت Canute» الذى استطاع أن يحكم انجلترا أيضا سنة ١٠١٧، فسار بالعدل والرحمة ولم يغير كثيراً فى نظم البلاد بل أناب عنه حكاما من أهلها فى كل قسم من الاقسام الاربعة الكبرى

ولم يطل عمر دولة كانوت بل تفرقت بعد موته وأصبح «ادورد الملقب بالتقى Edward The Confessor» ملكا فى وسكس وكانت حكومته ضعيفة فعظم أمراء الاقطاع. ولما مات سنة ١٠٦٦ دون أن يترك ولداً، ادعى الملك رجال كثيرون منهم وليم دوق نورمندية الذى عبر «المانش» وقابل «هرولد Harold» ملك الذى انتخبته وسكس وهزمه فى موقعة «هيستنجس Hastings» سنة ١٠٦٦ وعرف باسم «وليم الفاتح» ثم توج ملكا على انجلترا

حكم النورمنديين والانجفن

أراد وليم من أول الامر أن يكسر شوكة أتباعه فى مملكته الجديدة وان يحول دون تقوية نظام الاقطاع فى انجلترا، فكان يمنح كل تابع

مساحات صغيرة فى أقاليم متباعده حتى لا يستطيع ضم شمل أعوانه لمناوأة الملك، وأقام الحصون فى الجهات المختلفة ليشرف منها عليهم. وعلى الثورات التى ينتظر أن يقوم بها الاشراف.

ثم طعن الاقطاع طعنة نجلاء. اذ كان المعروف فى أوربا أنه اذا حدثت حرب بين الملك والشريف وجب على اتباع الشريف أن يحاربوا تحت لواء سيدهم ضد الملك، ولمنع هذا الخطر العظيم جمع وليم كل ملاك الأراضى من جميع الطبقات سواء أكانوا تابعين له مباشرة أم للبارونات، فركعوا أمامه واقسموا يمين الطاعة والاخلاص وأن يكونوا فى صف الملك اذا حصل نزاع بينه وبين أحد الأشراف. واستمال وليم البابا الذى شجعه على هذا الفتح وسمح للكنيسة أن يكون لها محاكم منفصلة فى انجلترا فعمل رجال الدين على تأييد العرش

الاحصاء

وقد أمر وليم بمسح جميع الاراضى واحصاء كل السكان والممتلكات والمواشى، وأسس حكومة مركزية قوية أدت الى امتزاج النورمنديين بالانجليز واختلطت عادات الجنسين ولغتهما ونظمهما وصارت اللغة الفرنسية لغة البلاط والطبقات العليا. وكان من نتائج الفتح ان اتصلت انجلترا ثانية بأوربا فنشطت الحركة التجارية وشتبكت هذه المملكة فى السياسة الأوروبية العامة. خصوصاً لما زادت الممتلكات الفرنسية فى يد ملك انجلترا وتطلع ملوك فرنسا الى طردهم منها كما تقدم

اتصال انجلترا بأوربا

هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩)

هو أول ملوك أسرة «انجو أو البلانتجنت» وقد سبق الكلام على جمع سلطة

ممتلكاته الواسعة في فرنسا، أما أهم أعماله في انجلترا فيفضلها جميعاً تقويته الحكومة لحد لم يعرف في العصور الوسطى ونشأ عن ذلك اتحاد الشعب ونمو البرلمان وقد هدم هنرى الحصون التي بناها البارونات حديثاً، واسترجع كثيراً من الأراضي التي منحوها سابقاً فلم يستطع أحد منهم أن يعصى له أمراً . وقد مهد سيادة الملكية بحسن القضاء والادارة

القضاء

وكون محكمة الملك . وجعل قضاتها يجوبون البلاد ويحضرون المحاكم المحلية فأصبحت كل القضايا المهمة في يد قضاة الملك، ولا يخفى أن القضاء في العصور الوسطى كان مورداً مهماً من موارد الحكومة

أصل المحلفين

وكان يساعد القضاة المتجولين أعيان البلاد الذين كانوا يقدمون أسماء المجرمين لينالوا جزاءهم . ومن هذا الأصل نشأت فكرة وجود « محلفين » وجرت العادة أن يكون عددهم اثني عشر يحضرون المحاكم ويقررون أن المتهم مدين أو برىء

الجيش

ولما كان هنرى لا يعول على الوحدات الاقطاعية في الحرب أهمل طلبها وفرض بدل الخدمة العسكرية ضريبة خاصة تعينه على إيجاد جيش تحت أمره مباشرة، وأمهر من جيوش الاقطاع

اتحاد الشعب

ونجم عن هذه الاعمال أن تيقن البارونات أن لا سبيل الى استقلالهم عن الملك، فلجئوا الى التقوى عليه بالانضمام الى الشعب وبدأت تنمحي الفروق اللغوية والجنسية بين الانجليز والنورمنديين ، وكون الأشراف مع عامة الشعب ذلك الاتحاد الذي ستظهر نتائجه الخطيرة أيام الملوك الضعاف

رتشارد قلب الأسد

وقد تولى بعد هنرى ابنه « رتشارد » (١١٨٩ - ١١٩٩) المشهور

« بقلب الأسد» الذى قضى أكثر أيام حكمه فى الحروب الصليبية و شتهر بالشجاعة والكرم والشمم ، ولكن انجلترا لم تستفد إلا استنزاف ثروتها فى حروبه وافتدائه من الأسر

وتولى بعده أخوه « جون John » وكان ضعيفاً سيء التصرف ميالاً إلى الظلم والغدر، جلب على نفسه سخط رعيته من أول الأمر، وزاد السخط لما عجز عن حماية أملاكه فى فرنسا فضاعت نورمندية ثم لحق بها غيرها سنة ١٢١٤ عقب موقعة « بوفين » التى أوقعها به فليب أغسطس قرب «ليل» ، فاستاء بعض الاشراف لما فقدوا ما كان لهم من الأملاك فى فرنسا واستاء الشعب لما حل به من العار، واحسوا أن «جون» لا تصعب الثورة فى وجهه . وشجعهم على ذلك وجود خلاف بين الملك والبابا على تعيين رئيس أساقفة انجلترا ، أدى الى اصدار قرار الحرمان ضد المملكة كلها ، وحض البابا ملك فرنسا على غزو انجلترا فاضطر الملك «جون» الى الخضوع الى حد أنه قبل أن يحكم البلاد كتابع للبابا وقسم يمين الولاء على ذلك

وبلغ استياء الشعب أشده سنة ١٢١٥ ، فثار الأشراف وضموا اليهم رجال الدين وأهل النصرة وغيرهم وأرغموا الملك على منح «العهد الأعظم Magna Carta » وهو يعتبر أساس حرية الشعب الانجليزى . وأهم نصوصه:

١ — أنه لا يجوز للملك أن يقبض على شخص أو يسجنه أو ينفيه أو يصادر أملاكه أو يحرمه من حقوقه إلا اذا حوكم هذا الشخص أمام محكمة مكونة من نظرائه . وفى هذا تقييد لسلطة الملك التنفيذية وقد فسرت هذه المادة بأنها أساس حرية الفرد وضمان « شخصى » فى انجلترا

٢ ليس للملك أن يفرض ضريبة أو يطلب منحة إلا بموافقة المجلس الأعظم ما عدا حقوق الملك الاقطاعية المعروفة . وقد فسرت هذه المادة بأنها تحرم على الملك أن يفرض ضريبة دون موافقة البرلمان ، وهذا تحديد لسلطة الملك التشريعية

٣ ليس للملك أن يبعث بأحد له فينكر حق أحد أو يؤخره أو يساوم فيه بأي طريق ، وبذلك أصبحت سلطة الملك في القضاء محدودة

ورغم أن العهد الأعظم لم يضمن المحاكمة أمام محلفين ، ولم يشرك الشعب في القوة السياسية . ورغم أنه كان مستنداً إقطاعياً إلا أنه لا يزال يعد أساس الدستور الانجليزي . ولما أبى جون أن يرتبط به فأعلن الأشراف عليه الحرب واستعانوا بملك فرنسا ولم يخلصهم من هذه الورطة إلا موت جون سنة ١٢١٦

أصل البرلمان

وقد تنبه الناقمون ضد الملك أنه لا يكفي ارغامه على إعطاء وعد، أو تهديده بالحرب إذا أبى تنفيذ وعده، بل لا بد لهم - إذا أرادوا الاشراف على الحكومة أو الاشتراك فيها - أن تكون لهم هيئة دائمة تمثلهم وتنفذ رغباتهم . ولم يكن مثل هذه الهيئة جديداً في انجلترا بل كان يوجد أيام ملوك الانجليز السكسون مجلس من عقلاء الرجال يسمى « ويتان Witen » لا يكاد الملك يعمل عملاً مهماً دون أخذ رأيهم . وكان هذا المجلس يحضره الأشراف والأساقفة، فلما فتح وليم انجلترا استدعى الى مجلسه كل من تسلموا أرضهم من الملك وسماه المجلس الأعظم الذى بدأ في أيام هنري الثالث يسمى « البرلمان »

هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)

كان هنرى أحسن من أبيه رغم طيشه وضعف إرادته. ولم يكن من رأيه أن يستمر فى المشاحنات التى أثارها والده وكذلك كان البارونات يودون أن يعطوه فرصة يظهر فيها اخلاصه وأمانته

ولكن الملك أخطأ فى سياسته الخارجية وفرض ضرائب باهظة للسير فيها ، فقاومه الأشراف برياسة « سيمون دى منتفورت «Simon de Montfort» واجبروه على دعوة المجلس الى « كسفورد» سنة ١٢٥٨ ، حيث تقرر ان يجتمع المجلس الذى بدأ يسمى برلمان ثلاث مرات فى العام ، ويكون البرلمان على اتصال تام مع خمسة عشر عضواً يعينهم بنفسه للاشراف على جميع أعمال الملك . وكذلك اشترط البرلمان أن يكون له تعيين كبار الموظفين مثل قاضى القضاة وامين الخزانة . وبهذا زادت حقوق الشعب وتقيدت سلطة الملك . ولكن كل هذه الاحتياطات لم تمنع وقوع الحرب الأهلية التى هزم فيها الملك وأخذ أسيراً وصار « سيمون دى منتفورت » يدير الشئون باسم هنرى الثالث فجمع سنة ١٢٦٥ برلماناً دعا اليه البارونات والاساقفة ورؤساء الاديرة كالمعتاد ، ثم أراد أن يبرهن للملك ان الامة مجمعة على خطته فكاتب حكام الاقاليم أن يرسلوا الى البرلمان عضوين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة فأصبح نواب الشعب يشتركون فى البرلمان لاول مرة على قاعدة المساواة مع عظماء الأشراف ورجال الدين ، وكان الجميع فى أول الامر يجلسون فى قاعة واحدة ولكنهم انقسموا بعد ذلك الى مجلسين : مجلس العموم ومجلس اللوردة ويجمع الاشراف ورجال الدين

سيمون دى منتفورت

حرب الاهلية

شعب العامة فى البرلمان

أدوارد الاول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)

يعد حكم أدوارد من أهم العصور فى تاريخ انجلترا ان لم يكن أهمها جميعاً لأنه كان فى وسعه أن يقضى على قوة البرلمان الذى عارض أباه وجده. ولكن حزمه هداه الى أن البرلمان يمكن استعماله كوسيلة من وسائل الحكم. وقام فى هذا الشأن بتجارب عدة حتى إذ كانت سنة ١٢٩٥، تورط الملك فى حروب مع فرنسا وسكتلندة، وبدل أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من رقابة الأمة عمد الى الاستعانة بها فجمع برلماناً على نسق برلمان سنة ١٢٦٥ ويفوقه بتمثيل الشعب تمثيلا أقرب الى الكمال. وصار هذا الاجتماع نموذجاً للبرلمانات المقبلة وبقى البرلمان على هذا النظام دون تعديل أساسى الى عام ١٨٣٢

البرلمان النموذجى

وبعد ذلك بعامين أيد ادوارد كل العهود التى منحت للشعب ووعد من جديد الا يجبى ضريبة أو يصادر منحة الا بموافقة البرلمان، فثبت مركز هذه الهيئة ورسخت قدمها فى السيطرة على الحكومة. بينما جمعية صفات الشعب الفرنسية التى جمعها فيليب الرابع سنة ١٣٠٢ لم تقو على مقاومة الملكية. وما ذلك إلا لأن اشتراك الشعب مع الملك قديم فى انجلترا إذ كان موجوداً قبل الفتح النورمندى كما ذكرنا، بينما لم يوجد فى فرنسا الا فى حكم فيليب الرابع، ولأن البرلمان الانجليزى نقسم الى نواب ولوردة فقط، وانقسمت جمعية صفات الامة فى فرنسا الى أشراف ورجال كنيسة وشعب، فصارت الكلمة العليا للطبقتين الممتازتين، ولأن لقب اللورد وكرسيه فى مجلس اللوردات يرثهما ابنه الأكبر فقط

برلمان انجلترا وجمعية صفات الشعب

بينما أبناؤه الآخرون يجتهدون في دخول مجلس العموم . ولأن البرلمان الانكليزي نجح في الثلاث بلزوم موافقته على الضرائب والمنح وبهذا وحده نال حقوقاً كثيرة من الملوك . أما مجلس طبقات الامة فلم ينجح بل صار لملوك فرنسا منذ سنة ١٤٢٩ حق فرض الضرائب دون موافقته ،



قبر إدوارد الثالث في وستمنستر

لأن موقع فرنسا بين أمم معادية دعا إلى ايجاد جيش مستديم صار خطراً على حقوق الشعب وحريته، بينما كان الانجليز في غنى عن الجيوش

المستبدة بفضل تحصنهم وراء أمواج البحار . فتضاءلت هذه الهيئة ولم تدع للاجتماع بعد سنة ١٦١٤ الا قبيل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩

ولم يخل عهد ادوارد الاول من حروب مهمة فقد انتصر على أهل ويلز واستولى على جزء من بلادهم سنة ١٢٨٤ ولقب ولى عهده «أمير ويلز Prince of Wales» ومن ذلك الوقت صار ولى عهد انجلترا يعرف بهذا اللقب. وكذلك حارب اسكتلنده وضمها الى مملكته . ولكن الاسكتلنديين ثاروا وانتخبوا روبرت بروس Robert Bruce ملكا عليهم واستردوا استقلالهم

المانيا وايطاليا بعد سقوط دولة شرلمان

يختلف تاريخ القسم الشرقي من امبراطورية شرلمان عن تاريخ القسم الغربي لانه بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ صارت «استراسيا» مقسمة الى ست دوقيات مستقلة وهي سكسونيا وبفاريا وفرنكونيا وسوابيا ولورنجيا ولورين

ست الادواق وكانت كل دوقية تمثل قبيلة خاصة وتحرص على مصلحتها الذاتية ولا تعبأ كثيراً بالمصلحة العامة . رغم خضوع الجميع لاحفاد شرلمان خضوعاً سمياً . وزاد الطين بلة ان القبائل المتبربرة من المجر والصقالبة أكثروا من الاغارة على الدولة وضعف الملوك عن حماية ملكهم فاعتمدت كل دوقية على نفسها ووكلت القيادة الحربية الى دوقها ، فقوى نفوذ الادواق وصعب على الملوك اخضاعهم فعمت الفوضى وزاد الاضطراب وتطلبت الظروف رجلا يجدد عهد شرلمان

انتخاب هنرى السكسونى ملكا ومن الغريب ان ذلك الرجل المنشود لم يظهر من بين احفاد

شرلمان ولا من الفرنجة بل من السكسون الذين كانوا أشد أعدائه والذين لم يخضعوا له لا بعد حروب طاحنة . إذ في سنة ٩١٨ خلا عرش المانيا وكانت الملكية انتخابية ولكن بطريقة غير منظمة فاجتمع قوم من سكسونيا وفرنكونيا وانتخبوا هنرى السكسونى ملكا ووافق الباقون على هذا الاختيار فعرف باسم « هنرى الاول » الملقب « بالصياد »

هنرى الاول (٩١٨ — ٩٣٦)

كان هنرى يعلم أنه لا سبيل إلى التغلب على الادواق الشدة بأسهم فى عصره فوجه همه إلى الدفاع عن البلاد ومد نفوذه فيما وراء نهر الألب وانتصر على عدة قبائل صقلبية وفتح البلاد التى سميت فيما بعد « برندبرج » التى سيكون لها شأن مهم فى تاريخ المانيا وكذلك احتل الشطر الجنوبى من الدنمرقة ونشر المسيحية فيه . ولكن أكبر معضلة قبلها هى اخضاع المجر الذين كانوا يسكنون حوض الطونة الاوسط ويجرون بجموعهم لهمجية البلاد المجاورة لهم . فنجح هنرى مقاومتهم ببناء مدن حصينة فى الجهات التى اعتادوا الاغارة عليها ونظم قوة من الفرسان لاقتفاء أثرهم وتمكن بهاتين الوسيلتين من كسر شوكتهم سنة ٩٣٣

أما حكمه فى داخلية البلاد فكان مؤسساً على كسب طاعة الادواق بالطرق الودية ومعاملتهم كأنهم أمراء مستقلون فكانت المانيا تحالفا من ست دوقيات لا مملكية مركزية

أتو الاول أو الاكبر (٩٣٦ — ٩٧٣)

انتخب ملكا بعد أبيه فأتم عمله فى الدفاع عن المانيا وتنظيمها

وتقوية مملكية ثم توج امبراطوراً كما توج شرلمان من قبل . وقد وسع «أتو» نطاق الاستعمار الجرماني فيما وراء نهر الالب . وللدفاع عن أملاكه أنشأ على حدودها دوقيات تحت الحكم العسكري تشبه العواصم في عهد الرشيد تتلقى أول هجوم يقوم به الأعداء واشتهرت هذه باسم «مرك Mark» . وقد حارب المجر وهزمهم قرب اجزبرج سنة ٩٥٥

هزيمة المجر هزيمة قضت على شرهم فلم يعودوا يهددون ألمانيا بل أقاموا بالبلاد التي عرفت باسمهم فيما بعد ودخلوا الدين المسيحي وتقدموا تقدماً سريعاً

وقد حاول «أتو» أن يخضع الدوقات وينشىء مملكة متحدة ونجح في ذلك بعض الشيء بأن عين أقاربه مكان بعض الادواق الثائرين وربط آخرين برباط المصاهرة مع الأسرة المالكة، غير أن هذا لم يقض على أطماعهم بل بقوا يحاربون «أتو» ومن جاء من بعده قروناً عديدة

[illegible] وكانت ايطاليا إذ ذاك في أمس حاجة تشملها الفوضى والاحتلال لأن الامبراطور الذي ورث أملاك «شرلمان» فيها كان يقيم في الشمال بلا حول ولا قوة لا يستطيع حماية هذا الجزء من غارات المجر، وكان الوسط مهدداً للعرب الذين استطاعوا أن يحكموه نحو ثلاثين سنة في أول القرن العاشر، وأما الجنوب فكان بعضه بيد الدولة الرومانية الشرقية ولكن قرصان المغرب كانوا لا ينفكون يغيرون عليه، فكان النظام والاتحاد منعدمين في إيطاليا، وزادها خبالاً ضعف البابوات واشتغالهم بمصالحهم الذاتية حتى عد القرن العاشر أظلم عصر في تاريخ البابوية إذ كانت رومة تمزقها الاحزاب المتنازعة على خيرات البابوية بينما البابوات أنفسهم لا يهمهم إلا التمتع بايراد وظيفتهم

وفى أثناء هذا الاضطراب دخل «أتو» ايطاليا لأن اديليد «Adelaide» أتو فى ايطاليا أرملة «لوثير» آخر ملوك الدولة الوسطى من سلالة شرلمان استجارت به ينقذها من « برنجار Berengar » الحاكم الحديد الذى أراد أن يكرهها على التزوج بابنه ، فعبر « أتو » جبال الألب سنة ٩٥١ وأنقذ « اديليد » بزواجه منها وعلان نفسه ملكا على لمباردى . وبذلك صار صاحب القوة فى ايطاليا والمانيا معاً وأصبح قريباً من البابا وزاد اهتمامه بشأنه

وفى سنة ٩٦٢ اختلف البابا مع بعض أحزاب فى رومة اتهمته بمخازى شنيعة فطلب إلى « أتو » المساعدة فحضر وأيد سلطة البابا وأعاده إلى عرشه . فاتضح للناس أن « اتو » يشبه شرلمن فى أنه حارب الوثنيين ونشر الدين بينهم وصار أكبر حاكم فى عصره وشد أزر الكنيسة ، تتويج أتو امبراطورا وانه لهذا يستحق أن يتوج امبراطوراً فتوجه البابا فى ٢ فبراير سنة ٩٦٢

وتعتبر الامبراطورية الرومانية المقدسة التى بدأت « بأتو » مكملة لامبراطورية « شرلمان » ووارثة لها بعد انقراض الاسرة الكارولنجية . ولكن مع التشابه بين الامبراطوريتين يوجد أيضاً مفارقات إذ كانت امبراطورية « اتو » لا تشمل إلا المانيا وبعض ايطاليا بينما كان شرلمان يحكم فى فرنسا واسبانيا أيضاً ، تلك الجهات التى كانت متأثرة بحضارة الرومان تأثراً عميقاً وعلى ذلك لم يكن لامبراطورية « اتو » من الصفة الرومانية ما كان لامبراطورية شرلمان

وقد كان لتتويج « اتو » نتائج بعيدة المدى لأن أخلافه ورثوا نتائج تتويجه عبئاً ثقيلاً أبهظ كاهلهم بمحاولتهم الاحتفاظ بايطاليا ودوام الرقابة على البابوية ، بدل التفرغ لخدمة بلادهم . وبعد حروب دموية طاحنة خرجت

ايطاليا من أيديهم واستقلت البابوية عنهم وبقيت ألمانيا متفرقة الكلمة بدل أن تتحد وتندمج إلى شعب قوى كما اتحدت فرنسا وانجلترا واسبانيا

وفى حكم خلفيه « اتو الثانى » (٩٧٣ — ٩٨٣) و « اتو الثالث » (٩٨٣ — ١٠٠٢) بدأت تتكون بولندة على نهر الاودر وشرقيه وقويت مملكة المجر بعد أن صارت مسيحية وأخذت هاتان القوتان تهاجمان ألمانيا من حين لآخر

أسرة فرانكونيا (١٠٢٤ — ١١٢٥)

كنراد الثانى

أولها « كنراد الثانى » وقد زاد سلطة الامبراطور بكل الطرق الممكنة وضم دوقية برغندية عن طريق لورنة وسلم دوقيات ألمانيا لأقاربه أو حكمها بنفسه وحاول أن يضعف الاقطاع بجعل الولايات كلها ملزمة بالمحاربة تحت لوائه وكسب محبة صغار ملاك بجعل أرضهم وراثية ومنع حرمانهم منها إلا بسبب وجيه . وتوسيع الامبراطورية وتقوية حدودها والاستيلاء على الدوقيات وربط صغار الأشراف بشخصه مهد السبيل لحكم ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦)

أعمال هنرى الثالث

كبح هنرى جماح الاشراف فى ألمانيا بتصدره لتنفيذ الخطة التى وضعتها الكنيسة لمحافظة على السلام وهى إعلان « الهدنة الربانية » من مساء الاربعاء إلى صبيحة الاثنين ومنع الحرب أثناء هذه الهدنة . وقد انتخب الأتقياء الأكفاء أساقفة ورؤساء أديرة ولم يحاول أبداً أن يبيع الوظائف الدينية بل شجع الاصلاح الذى قام به دير « كلونى » وبذل جهده لرفع مستوى أخلاق رجال الدين بتطبيق هذا الاصلاح

فى ألمانيا ونهض بمدارس الاديرة وأنشأ مدارس لغير رجال الدين وكان يحتم على أبناء الاشراف دخولها

وقد زار ايطاليا سنة ١٠٤٥ ليتوج امبراطوراً فوجد ثلاثة بابوات كل يدعى أنه صاحب الحق الوحيد ويستند الى تعضيد حزب من أحزاب المدينة فعزلهم جميعاً وولى بابا جديداً. وفى بقية حكمه عين ثلاثة بابوات كلهم من الاكفاء، وقاوم الرشوة وساعد المصلحين على رفع الكنيسة الى المكانة اللائقة بها — فالاباطرة اذن هم الذين أنقذوا البابوية من مخالب أحزاب رومة ورفعوها من دركات الرشوة والانحطاط الى درجات الوقار والعزة. وكانوا ينتظرون أن يعرف لهم رجال الدين هذا الجميل فيخلصوا لهم ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. بل انتهزت البابوية فرصة تولى هنرى الرابع فى سن السادسة وعملت على التخلص من رقابة الامبراطورية وانضم اليها رجال الدين واستمد البابوات لمناهضة الامبراطورة ومزاحمتهم على القوة الزمنية

الكفاح بين البابوية والامبراطورية

لما ساد نظام الاقطاع فى أوروبا أثناء القرن العاشر انحط شأن البابوية وأصبح مركزها موضع نزاع الاحزاب فى رومة، واعتلى عرشها أناس لا خلاق لهم كانوا سبباً فى تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها فى نظر المسيحيين. ويرجع الضعف الذى لحق البابوية فى القرن العاشر الى الامور الآتية: —

(١) الاملاك العظيمة التى كانت لرجال الدين. فأصبح الاساقفة

ورؤساء الأديرة بسبب ما يملكونه من الأراضي تابعين للملوك والأشراف حسب نظام الاقطاع . ولما كانوا بحكم مركزهم الدينية غير قادرين على توريث أراضيهم أصبح للملك أو للشريف حق تقليد الاسقف الجديد أو رئيس الدير وظيفته ، بعد أن يقسم له يمين الطاعة والولاء ويتسلم منه شارات الوظيفة . من ذلك نرى أن البابوية أو الكنيسة فقدت قوة هائلة باتصال كبار رجال الدين وأراضيهم بالسلطة السياسية

(٢) كانت الكنيسة تحبذ عدم الزواج بين رجال الدين ولكن جاء القرن العاشر والحادي عشر فانتشر الزواج خصوصاً بين صغارهم فخشيت الكنيسة أن يتسرب إيرادها الى أولادهم ، وقد يكونون من غير رجال الدين أو العلمانيين ،

(٣) لما أصبحت الوظائف الدينية مرغوباً فيها بسبب الأراضي الواسعة التي كانت تابعة لها أخذ الأمراء يبيعون هذه الوظائف ثم اتبع الاساقفة وبقية رجال الكنيسة هذه الطريقة وصاروا يبيعون الوظائف لمن هم أقل منهم فانحطت الوظائف الدينية فى نظر الناس

واستمر انحطاط الكنيسة والبابوية حتى جاء الامبراطور « هنرى الثالث » فاهتم بالوظائف الدينية وعين فيها رجالا ذوى كفاءة ومقدرة عند ذلك بدأ البابوات يشعرون بقوتهم ويعملون على إصلاح المساوىء حتى يعيدوا مجد البابوية الأولى وتتمتع الكنيسة باستقلالها وترغم الملوك والامراء على طاعتها . وعلى ذلك بدأ فى القرن الحادى عشر دور كفاح بين السلطتين الزمنية والدينية . ولقد نشأت فى هذا النزاع نظريتان

النظرية الاولى : هى أن السلطة الزمنية متفوقة على الروحية وهى

النظرية التي قال بها حزب الامبراطور وأيد أقواله بآيات من الانجيل وشواهد من التاريخ، فمثلا يقول السيد المسيح : - « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » - وقالوا أيضاً أن المنح التي أعطاها « بيبين Pepin » و « شرلمان » للبابا من شأنها أن تجعل القوة الروحية تابعة للزمنية

وهي أن القوة الروحية متفوقة على القوة الزمنية حتى في الشئون المدنية البحتة . وهذه هي النظرية التي قال بها الحزب البابوي وأيد هذا الحزب أقواله كذلك بآيات من الانجيل . ومما قالوه إن الكنيسة مسئولة عن أرواح العالم وحكامه . وفي مقدمة هؤلاء أعمال الأباطرة . وشبهوا القوتين بالشمس والقمر فقالوا كما أن الله خلق في السماء نورين : نور الشمس ونور القمر ، كذلك أوجد في العالم قوتين . قوة البابا وقوة الامبراطور ، ولكن كما أن القمر يستمد نوره من الشمس كذلك تستمد القوة السياسية سلطانها من القوة الدينية

وانقسم العالم المسيحي في غرب أوربا الى فريقين كبيرين - فريق البابوية وفريق الامبراطورية - وشرع كل فريق في اخضاع الفريق الآخر

بدء الكفاح

تقوت البابوية بظهور حركة إصلاح في الرهبنة مركزها دير « كلوني » في برغندية دعت الأديرة الى لزوم التمسك بالنظام الذي وضعه القديس « بندكت » وأشهر الذين قاموا بتقوية البابوية « هلدبرند Hildebrand » الذي ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم غريغوري السابع وليس في تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى رجل أشهر ولا أكثر نفوذاً من « هلدبرند » هذا

وقد قضى هلدبرند زمناً فى دير كلونى، ثم تركه سنة ١٠٤٩ حين ذهب الى رومة وعين سكرتيراً للبابا «ليو التاسع» ومن ذلك الوقت صار صاحب النفوذ الأكبر فى الامور الدينية وبقى كذلك الى ان مات سنة ١٠٨٥.

وبعد هلدبرند المثل الاعلى للبابوية، وكان ضئيل الجسم ولكنه كان ذا عزيمة لا تفل ويقين لا يتزعزع، فى أن الكنيسة هى صاحبة السيادة فى العالم كله، تستمد نفوذها من الله مباشرة وتعد هى ملوك الارض وأمراءها بالخلود. وكان يعتقد أن البابا له مركز فذ فى العالم فهو الذى يولى الاساقفة ويخلعهم، وله الحق فى خلع الاباطرة لأنه سيدهم الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقد بدأ تنفيذ خطته أن جعل انتخاب البابا بواسطة الكرادينالات وهم الرؤساء الدينيون فى رومة، وبذلك تخلص من القوة الزمنية التى كانت تسيطر على انتخاب البابا وسنحت الباباوات على اجراء الاصلاح فى الكنيسة وإعلاء شأن البابوية وكلمتها، وكان مقتنعاً تمام الاقتناع بلزوم تفوق البابوية وتوليها رياسة العالم المسيحى المتحد.

ولما وصل غريغورى السابع فى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣. أعلن خصه لنظريته القائلة أن الامبراطور ظل الله فى الارض. وقال إن الامبراطورية لا يمكن أن تكون كذلك لانها تعتمد على القوة الغاشمة وأما الكنيسة فتعتمد على الفضيلة، وهى بهذا معصومة من خطأ. واستنتج أن رئيس الكنيسة يجب أن يسيطر على الناس جميعاً

رأى غريغورى أنه يجب أن تكون الكنيسة وحدة متجانسة تخضع لرئيس واحد هو البابا، وعلى ذلك حتم على الاساقفة أن يقسموا

يمين الولاء له وحرمهم استقلالهم المحلى، وأعلن حق استئناف جميع القضايا المهمة إليه رأساً، ثم أعلن أن كلمة البابا هى العليا فى الكنيسة وأن ارادته فوق أكبر هيئة دينية وهى المجالس الملية. ثم أرسل نوابه الى كل الممالك يمثلونه أمام الملوك والامراء وينفذون إرادته وكانوا له بمثابة عيون وسفراء يخبرونه عما يجرى من الشئون المختلفة. وأخذ يكتب للملوك يذكرهم بتبعية أراضيهم للرسول بطرس ويطلب اليهم إرسال الأعشار

وحرم غريغورى سنة ١٠٧٥ زواج القساوسة وحرم قبول المناصب الدينية من العلمانيين وهدد رجال الدين بالحرمان اذا هم قبلوها وكذلك هدد الملوك والاشراف اذا هم ساعدوهم على قبول تلك الوظائف منهم رأساً

هنرى رابع

وفى سنة ١٠٦٥ بلغ هنرى الرابع امبراطور المانيا (١٠٥٦ — ١١٠٦) سن الرشد فأخذ يحكم بمفرده وكان شاباً نشيطاً ذكياً لا بأس بمواهبه ولا ينقصه الا قليل من صدق العزيمة والشجاعة الادبية ولو أوتيهما لعد من كبار رجال التاريخ، ولكنه كان مدعياً متكبراً شديداً فى معاملته لأدواته

ولما رأى البابا أن هنرى الرابع امبراطور المانيا لم يكترث بقراراته، أرسل اليه رسولاً يطلبه للحضور أمامه ويهدده بالحرمان إذ هو لم يحضر، فاعتبر هنرى هذا بمثابة إعلان للحرب وعقد مجلساً سنة ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا، فاجاب غريغورى بعزل الامبراطور وحرمانه ومن ثم بدأ النزاع على أيهما صاحب السلطة العليا

حرمان

والحرمان أمضى سلاح استعمله غريغورى ومن جاء بعده من البابوات لتهديد معارضيهم وارغامهم على الاذعان، فاذا صدر قرار الحرمان ضد شخص هجره الناس، وإذا كان ملكاً أصبح أتباعه فى حل

من أن يخالفوا أوامره ، وإذا مات حرم من صلوات الكنيسة ولم يدفن دفنة مسيحية ، وإذا نزلت نقمة الحرمان على أمة أغلقت كنائسها وخفتت أصوات الاجراس فيها ووقفت حركتا الزواج والدفن . ولا يجب أن يقلل من أهمية هذا السلاح فقد كان الناس فى القرون الوسطى لا يهتمون بأمر اهتمامهم برضاء الكنيسة وصالحة أو غرها

الأشراف وضعف الامبراطور

ولذلك ليس بغريب أن يضعف مركز هنرى بعد قرار الحرمان ، وانتهز الاشراف فى ألمانيا فرصة ضعف الملك وحاولوا الاستفادة من نكبته . فعقدوا جمعاً فى غيابه وقرروا نزول هنرى عن مظاهر الملكية ولزوم سعيه فى التماس العفو من البابا فى مدة سنة

عند ذلك أسرع هنرى الى إيطاليا ليحول دون حضور غريغورى لأنه رأى فى حضوره ضياع سلطته السياسية . ووقف هنرى مستأذناً

إذلال كانوسا

على باب قمة « كانوسا Canossa » فى شمال إيطاليا بالقرب من « بارما » حيث كان البابا نازلاً وهو فى طريقه الى ألمانيا . والتمس المثول بين يديه ثلاثة أيام متوالية وهو عارى الرأس حافى الاقدام لابساً لباساً من الوبر . وأخيراً أذن البابا له بالمثول وغفر له ذنبه ورفع عنه النقمة . ويعد هذا إذلالاً للملكية لا مثيل له فى التاريخ

الحرب بين البابا والامبراطور

غير أن مركز هنرى قد تقوى بعد حادثة كانوسا ، فسير جيشين الى إيطاليا وأخذ رومة سنة ١٠٨٤ ، وكاد البابا يقع أسيراً فى يده . ولكن النورمنديين جاءوا برياسة « روبرت جسكارد » فانسحب هنرى وترك لهم رومة . فنهبوها وأحرقوها . فثار أهلها على البابا وحلفائه وأخرجوهم منها ، وفر غريغورى الى « سالرنو » وهى من أهم المدن النورمندية ،

حيث مات منفياً سنة ١٠٨٥ . ولكن البابوية لم تضعف بعده بل زادت قوتها بالدعوة الى الحروب الصليبية وبالنجاح الذى أحرزته الحملات الأولى من هذه الحروب . أما هنرى الرابع فمات سنة ١١٠٦ ، منغصاً بسبب حروبه مع أبنائه .

ولم تحل مشكلة تقليد الاساقفة الا فى عهد هنرى الخامس سنة ١١٢٢ باتفاق «ورمس Worms» وبمقتضاه تنزل الامبراطور للبابا عن حق تقليد الاساقفة السلطة الدينية . فصار الاساقفة ورؤساء الاديرة ينتخبون بواسطة الكنيسة بحضور الملك أو من يمثله، ثم يقلدهم الامبراطور سلطتهم السياسية والقضائية والمدنية ويعطيهم الصولجان، كما يفعل مع أتباعه من العلمانيين ، أما الخاتم والعصا اللذان هما شارتا الوظيفة الدينية فتقوم الكنيسة بتسليمها للاساقفة أو لرؤساء الاديرة مباشرة

اتفاق ورمس

أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ — ١٢٥٤)

لم يحسم اتفاق « ورمس » النزاع بين البابا والامبراطور فتجدد النضال فى حكم الامبراطور « فردريك بربروس » ، وذلك أنه بعد أن انقرضت أسرة فرنكونيا انتخب أمير سوابيا «كنراد الثالث» ملكا سنة ١١٣٨ وكانت الأسرة تنتسب إلى «هوهنشتاوفن Hohenstaufen» وهو حصن فى جنوب سوابيا

وخلف «كنراد» سنة ١١٥٢ ابن أخيه «فردريك الأول» الذى عرف فيما بعد باسم فردريك بربروس أى ذى اللحية الحمراء، وهو أجل أباطرة العصور الوسطى وكان عصره فى ألمانيا عصر عظمة حربية ورخاء تجارى وتقدم فى العلوم والفنون . وكانت قد نمت فى ألمانيا مدن لا تقل عن

فردريك بربروس

نمو المدن

مدن إيطاليا حباً للاستقلال وحباً للرقي العلمي والفني ، وكثرت هذه المدن في الجنوب والغرب . وبرزت منها كولونيا ومايْنز واجزبرج وخوفاً من أمراء الاقطاع التجأت المدن إلى الامبراطور ليحميها ، فصارت قوة للامبراطورية تعينها على الادواق وتساعدها في حروبها مجتمعة .

مطامع فردريك

وكان فردريك قديراً واسع الخيال طموحاً إلى معالٍ لا يرضيه إلا أن تكون للامبراطورية قوة محسوسة في سياسة أوربا ، وكان يسعى للتمتع بحقيقة الملك وإقامة حكومة قوية متحدة في ألمانيا وبرغنديه وإيطاليا وإخضاع كل من يعارضه من أمراء ومدن

قمع ثورة رومه

وتحين فردريك فرصة قيام ثورة في رومة فدخل إيطاليا واتفق مع البابا « هادريان الرابع Hadrian IV » على أن يتوجه امبراطوراً مقابل مساعدته على قمع الثورة ، وتم ذلك سنة ١١٥٥

ولكنه ما كاد يعبر جبال الألب عائداً حتى بدأ سوء التفاهم بين البابا والامبراطور ، وذلك بسبب ادعاء البابا أن الامبراطور مدين له بتاجه وأن الامبراطورية انما هي منحة منحها البابا لفردريك . وقامت المدن

حلف مدن لمبارديه

اللمباردية بقيادة ميلان تعاكس الامبراطور وتعاون البابا في كفاحه ، ولما آنس الامبراطور من هذه المدن صلابة في مقاومته أعلن عليها حربها سنة ١١٥٨ وانتهى الأمر بأن ضرب ميلان التي تعد زعيمة لتلك المدن سنة ١١٦٢ بعد حصار ثلاث سنين . عند ذلك وجدت المدن خلاصها في الاتحاد فتحدت ، وبمساعدة البابا « اسكندر الثالث » تكونت « عصبة مدن اللمبارد » سنة ١١٦٧ وباتحادها تجدد بناء ميلان ، وأسست مدينة

«السندرية» نسبة للبابا اسكندر الثالث لتناوىء «بافيا Pavia» التى كانت موالية للامبراطور

فلما عاد فردريك الى يطاليا وتقابل سنة ١١٧٦ مع عصابة مدن المبارد بالقرب من ميلان، نهزم فى واقعة «لنيانو Legnano» وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ العصور لوسطى. اذ بعدها اضطر لامبراطور الى التماس العفو من لبابا فتقابلا فى البندقية ١١٧٧ وأعيدت حادثة «كانوسا» بعد مضى مائة عام بالضبط. وتقتضى هذ الاتفاق (اتفاق البندقية) لم يعد الامبراطور يمس ستقلال مدن المبارد واكتفى منها بالاعتراف له بالسيادة الاسمية

أما البابا اسكندر الثالث الذى كان محببا فى هذا الانتصار — فكان شيخا سياسيا عنيدا شديد المراس، قاد المعارضة ضد الأباطرة مدة خمسة عشر عاما بدون ان يلين. وانتهى الأمر بانتصار البابوية حتى ركع الامبراطور فردريك أمام البابا طالبا الغفران فى البندقية سنة ١١٧٧ كما ذكرنا. وقد قام فردريك بحملة صليبية وغرق فى الطريق سنة ١١٩٠ فى نهر فى كيليكية فى آسيا الصغرى

ومن أهم ما حصل فى عصره استئناف نشر حضارة الجرمانية شرقى نهر الألب بعد أن اكتسحها هجوم الصقالبة والمجر، ففى سنة ١١٥٦ صارت الأراضى الواقعة شرقى بفاريا على نهر الطونة الاوسط دوقية منفصلة سميت النمسا بعد قليل، وكان القصد منها تامين ألمانيا من غارات المجر، واليها انتقلت أسرة «هبسبرج» التى خلفت أسرة هوهنشتاوفن وسادت المانيا بل أوربا جميعها.

وحوالى ذلك الوقت أيضا ظهرت فى الشمال تلك القوة التى مابرحت

تقوى رويداً رويداً حتى ضارعت النمسا بل وتفوقت عليها ، الا وهى دوقية براندنبرج التى أنشئت لتكون درعاً لألمانيا يقيها غارات الصقالبة . وتأيد مركزها كما بمنحه لقب « منتخب » سنة ١١٤١ . ولما انتقل حكم هذه الامارة الى أسرة « هوهنزلرن Hohenzollern » بعد ذلك غرس ، أحدث نمواً نمواً بطيئاً حتى صار أمراؤها ملوكاً فى بروسيا سنة ١٧٠٠ ثم أباطرة فى ألمانيا سنة ١٨٧١

الكفاح بين البابا انسنت الثالث « Innocent III »

والامبراطور فردريك الثانى (١١٩٧ — ١٢١٦)

يعتبر انسنت هو وغريغورى السابع أعظم ممثلين للبابوية فى أوج عزها فى العصر الوسيط . تعلم انسنت فى جامعتى باريس وبولونى فى ايطاليا حتى صار ضليعاً فى القانون ، فصبغ ادعاءات البابوية بصبغة قانونية وتتلخص خطة « انسنت » فيما يلى :

(١) أن يصبح البابا السيد المطلق فى ايطاليا . وعلى ذلك منع الامبراطور من تثبيت نفوذه فى تلك البلاد

(٢) أن يكون البابا الرقيب الاعلى على ملوك أوربا

(٣) أن يخلص بيت المقدس من أيدى المسلمين وأن يخضع الكنائس الشرقية وخصوصاً الكنيسة الشرقية البيزنطية — كنيسة القسطنطينية — لسلطة البابا وأن يقضى على الملحدين فى كل مكان

والمدهش أن البابا انسنت هذا قد نجح فى تنفيذ خطته الى درجة ما

(١) أما من حيث النقطة الاولى من الخطة فقد خدم البابا ، فأصبح

فردريك الثاني ملكا على صقلية بعد موت أبيه هنري السادس سنة ١١٩٧.
ولم يكن لفردريك من العمر الا ثلاث سنوات أو ما حول ذلك. ثم ما لبثت أمه ان ماتت فتعين «انسنت الثالث» قيما على القاصر وبذلك أصبح البابا يدير شئون صقلية

(٢) أما من حيث النقطة الثانية فان البابا قد نجح في ذلك نجاحاً باهراً، فصبحت كلمته مسموعة في كل الحكومات وأصبحت القضايا تستأنف أمامه من كل الجهات. وليس أدل على قوة نفوذه من الحوادث الآتية في فرنسا وانجلترا وغيرهما

أما في فرنسا فانه أرغم الملك «فليب اغسطس» على رد زوجته الاولى فلما رفض الملك اصدر ضده قرار الحرمان فلم يسعه الا الاذعان

وأما في انجلترا فان البابا حتم على الملك جون أو يوحنا تعيين «ستيفن لنجتن Stephen Langton» — أحد رجال الدين المتمين له رئيساً لأساقفة «كانتربري Canterbury». فرفض الملك هذا التعيين وصادر ممتلكات الكنيسة وحرم ارسال النقود إلى البابا. فأصدر هذا ضده قرار الحرمان وأنزل النقمة بانجلترا وأعلن عليه حرباً صليبية، وحرض فيليب أغسطس على مهاجمة أملاك يوحنا وضمها اليه سنة ١٢١٣ م. فاضطر الملك يوحنا نهائياً إلى طلب الغفران فغفر له البابا بعد أن قدم له انجلترا هدية وتسلمها قطيعة، وقد اعترفت دول أخرى بسيادة البابا عليها وأهمها الصقليتين والسويد والدانمرقة والبرتقال وأرغونة

(٣) أما من حيث النقطة الثالثة في المنهج فان البابا «انسنت الثالث» أثار شعور القوم في أوربا نحو حرب صليبية جديدة، وهي الحرب

الصليبية الرابعة التي وصلت إلى القسطنطينية، وهناك خلعت الامبراطور البوزنطي وأقيمت حكومة لاتينية في القسطنطينية وعلى ذلك أصبحت الكنيسة تابعة للبابا

كذلك أثار البابا حرباً شعواء ضد الملحدين الذين ظهروا في جنوب فرنسا في ذلك الوقت حول مدينة تولوز ويعرفون « بالألبجنس Albigenses » نسبة الى مدينة « ألبي » وكانت لهم مدنية زاهرة في هذه البقاع فقضى عليها بعد هذه الحرب

فردريك الثاني (١١٩٧ — ١٢٥٠)

أما الامبراطورية فكان يمثلها في ذلك العصر فردريك الثاني وكان قصيراً ضئيلاً، إلا أن مواهبه النادرة ومبتكراته في الأفكار والأعمال أكسبته لقب « أعجوبة العالم » ولا شك انه أرقى ملك في العصور الوسطى من حيث التعليم والتسامح الديني والكفاءة الادارية والسياسية، بل هو أكثر شبهاً برجال العصور الحديثة

كان فردريك يقرض الشعر باللغة العامية الشائعة في جنوب ايطاليا، ويعد من هذه الوجهة من السابقين في ميدان أدبيات اللغات القومية التي شملت أوربا في أواخر العصر الوسيط . كذلك كان فردريك يجيد ست لغات من بينها اللغة العربية . ولوعاً بتشجيع العلوم والفلسفة ولذا أنشأ جامعة في « نابلي » ومدرسة للطب في « سالرنو Salerno » وحديقة للحيوانات في « بالرمو Palermo » . فتجلت في جنوب ايطاليا نهضة علمية فنية لم تعد اليها بعد عصره ، وكان يكرم العلماء ويتحبب اليهم وخصوصاً علماء

العرب. وبفضله نشأت أول حكومة مستنيرة فى أوربا وهى حكومة الصقليتين

إلا أن استنارته وحبه للعلوم جلبا عليه سخط البابوية التى وسمته بالالحاد وشوهت سمعته. أما فى ألمانيا فإن إهمال الامبراطور زاد فى نفوذ الأمراء

وكان كل من البابا والامبراطور يتطلع أن يكون سيد ايطاليا ولذا ألح البابا على فردريك أن يفى بوعده فى القيام بحرب صليبية حتى يبعده. ولكنه بالرغم من ذلك خرج الى الشرق ونال بسياسته ما لم ينله غيره من قبله بسيوفهم من تأمين الحجاج والاتفاق مع السلطان الكامل ملك مصر. ثم ذهب الى بيت المقدس فتوج نفسه ملكا عليها ثم عاد [illegible] فوجد البابا قد أعلن عليه حربا صليبية ونهب بلاده. فطرد فردريك جيوش البابوية وعقد الصلح بينهما. ولم يدم الصلح طويلا لأن البابا عزل فردريك وساعد مدن اللمبارد عليه

وبموت فردريك انتقل التاج إلى ابنه «كنرد الرابع Conrad IV» ولم يكن له قوة الغريزة ولا حسن الادارة اللتين كانتا لأبيه فلم يفلح فى تأييد مركزه فى ألمانيا التى توج فيها منافسه «وليم الهولندى» وحاول أن يكسب معونة ايطاليا ففاجأته منيته سنة ١٢٥٤ قبل أن يتوج امبراطورا، ولم يعقب الا طفلا يسمى «كنراديننو»

وبقيت ألمانيا بعد وفاته بدون ملك الى سنة ١٣٣٧ وتعرف هذه المدة «بالفترة» التى انتهت بانتخاب «رودلف هبسبرج Rudolf Hapsburg» ملكا وهو مؤسس أسرة هبسبرج المعروفة ولم تكن له ولا لأخلافه قوة تذكر لأن ألمانيا انقسمت الى نحو ارمائة إمارة قطاعية.

ظهور عظمة هبسبرج

وأهم ما حدث بعد رودلف انضمام بوهيميا الى أملاك أسرة هبسبرج بطريق الوراثة. ولم تمض مدة طويلة حتى ألف الناس انتخاب الامبراطور من أسرة هبسبرج دون سواها ، وقد زادت ممتلكات هذه الاسرة بفضل مصاهرات مع الاسر المالكة في برغنديه ثم في أرغونة وقشتالة فأصبح السبيل ممهداً لعظمة الامبراطورية في عهد شارل الخامس المعروف بشرلكان (١٥١٩ — ١٥٥٥)

الفصل السابع

الحروب الصليبية

تمهيد : حالة الشرق قبيل الحروب الصليبية

عرفنا كيف امتدت أملاك الدولة الاسلامية فى القرن السابع فوسعت بلاد العراق والفرس والشام ومصر . وكيف امتدت هذه الفتوحات فى القرن الثامن حتى شملت بلاد المغرب والأندلس غرباً وحتى وصلت الى نهر جيحون شرقاً . ولم يكن من المستطاع بقاء هذه الممتلكات الواسعة خاضعة لحكومة واحدة مدة طويلة، وذلك بسبب تعدد الاجناس المختلفة وبسبب النزاع والتنافس القائم بين القبائل العربية (مثل مضر وحمير) وبسبب ظهور الخوارج . لذلك ما لبثت الدولة أن تمزقت واستقلت الاجزاء المتطرفة منها كبلاد الأندلس وبلاد المغرب ثم مصر ثم الشام ثم شمال شرق بلاد الفرس ، وعلى ذلك ضعف سلطان الخليفة العباسى منذ القرن العاشر ولم يتعد نفوذه بلاد العراق

ظهور الاتراك السلاجقة

ثم كثرت الجنود المرتزقة من الاتراك فى خدمة الخليفة واغتصبوا السلطة السياسية منه تدريجا ، فظهرت قوة الاتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ويعرفون بذلك نسبة الى زعيمهم « سلجوق » . وموطنهم الأصلى الأراضى التى حول بحر قزوين ووراء نهر جيحون . والمؤسس لسلطتهم السياسية هو « طغرل بك » السالف الذكر إذ قلده الخليفة القائم بأمر الله السلطة الزمنية سنة ١٠٥٥ واقتصر الخليفة على سلطته الدينية

وقرن اسمه باسمه فى الخطبة . وأخذ السلاجقة يمدون نفوذهم شيئاً فشيئاً حتى شمل بلاد العجم والعراق والشام وآسيا الصغرى

ألب أرسلان

وفى عهد السلطان « ألب أرسلان » الذى خلف طغرل بك (١٠٦٢ - ١٠٧٢) هدد السلاجقة ممتلكات الدولة البوزنطية فى آسيا الصغرى وهددوا حدود مصر أيضاً . ولما شعر البوزنطيون بالخطر الداهم ثاروا على امبراطورهم وولوا عليهم جنديا اسمه « رومانوس » فهاجم السلاجقة بقوة بوزنطية عظيمة وتقابل الفريقان فى أرمينيا وانهزم البوزنطيون أخيراً سنة ١٠٧١ فى وقعة « ملاذكرد Manzikert » قرب بحيرة « وان » . وتعد هذه الوقعة من الوقائع الخاتمة لانها مدت سلطان السلاجقة الى سواحل بحر مرمره وعرضت عصمة الدولة البوزنطية للخطر حتى صار الامبراطور يدفع الجزية للسلاجقة

والى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام واعادة تكوين وحدته السياسية فقضوا على الدويلات التى قامت فى الاقاليم الاسلامية بسبب ضعف الخلافة . وكان الاتراك السلاجقة مفطورين على حب السلطة والحروب كما كان العرب فى أول أمرهم فلم يتأثروا بالسكنى فى الحضر ومعيشة الترف ، وأدخلوا روحاً جديدة فى الاسلام ونهضوا به نهضة عظيمة فى القرن الحادى عشر

ملك شاه

وجاء بعد « ألب أرسلان » ابنه السلطان جلال الدين « ملك شاه » (١٠٧٢ - ١٠٩٢) وهو أعظم سلاطينهم ووزيره « نظام الملك » من أعظم وزراء الاسلام وكانت مملكته تمتد من نهر السند الى البسفور واهتم « ملك شاه » بشئون الحكومة بنفسه وظل طول حياته يجول فى الاقاليم المختلفة

ليتعرف أحوال رعيته. فنظم القوانين ونشر العدلة واهتم بالتعليم وعضد الشعراء والعلماء وظهرت المدارس والجامعات فى المدن الاسلامية وأهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفيـة فى بغداد وما زال « نظام الملك » ساعياً فى نشر العلم حتى وشى به فعزل

ولما مات الملكشاه سنة ١٠٩٢ ضعفت دولة السلاجقة و تقسمت بين أبنائه وأقاربه الذين كان يعينهم حكاماً ويطلق عليهم اسم « الاتابكة » وعلى ذلك قامت على أنقاض دولته حكومات صغيرة تعرف بحكومات الاتابكة ، وكان هؤلاء يتشبهون « بالملك شاه » ويحاولون مواصلة خطته من حيث الاهتمام بالقانون والتعليم

وبسبب تمزق دولة السلاجقة عاد الاسلام ضعيفاً كما كان قبل ظهورهم وتفككت أواصر وحدته السياسية وحرم زعيما قوياً يقود القوات الاسلامية ضد المهاجمين من الصليبيين و استمر الحال كذلك الى سنة ١١٢٧ حين ظهر « عماد الدين زنكى » كما سيأتى بعد

ولو أن الحروب الصليبية التى ابتدأت بعد أربع سنين من موت الملك شاه جاءت متقدمـة قليلا لتعذر نجاحها، ولـكن البابا « أربان الثانى Urban II » اختـار للحملات الصليبية الوقت المناسب فنجحت الحملة الاولى

الحروب الصليبية

الحروب الصليبية حملات دينية عظيمة قامت بها أوربا مدة من الزمان من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر لتخليص

لارض المقدسه فى فلسطين من أيدى المسلمين ، ولايجاد كنيسة وحكومة لاتينية فى الشرق . وانما سميت بهذ الاسم لأن لذين اشتركو فيها من اهل أورا كانو يضعون علامة الصليب على اكتافهم إشارة لمهمتهم المقدسة والاسباب التى دفعت أوربا الى خوض غمار هذه الحروب هى -

(١) كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون فى قوة الكنيسة ويخشون بأسها وعقابها ويمتثلون أوامر رجالها ، وكانوا لشدة جهلهم وانحطاط حالهم يقترفون آثاماً كثيرة ويحملون أنفسهم خطايا عديدة ، ولم يكن أمام المسيحيين فى ذلك الوقت سبيل لرفع هذه الخطايا إلا القيام بالاعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتخشن فى الملبس واقتناء الصدقات. وأهم هذه الاعمال فى نظر الناس الحج الى الأماكن المقدسة التى وطئتها قدم السيد المسيح وعذب فيها من أجل دعوته الدينية واذا كان ثواب الحج فى نظر الناس عظيما فكم يكون عظيما ثواب القتال فى سبيل تحرير هذه البلاد من أيدى المسلمين

ولقد ظل المسيحيين فى زيارة الاماكن المقدسة متيسراً فى عهد دولة الخلافه العربية وعهد استيلاء الفاطميين على فلسطين . فقد كانت تلك الأماكن محترمة فى نظر المسلمين كما كانت فى نظر المسيحيين . ولكن لما استولى السلاجقة على فلسطين سنة ١٠٧٦ وكانوا حديثى عهد بالاسلام أظهروا تمسكا شديداً بالدين وظنوا أنه مؤسس على التسامح، فتغيرت الحال فلم يعد يلقى حجاج بيت المقدس من التسامح فى الدين ما كانوا يلقونه من قبل على أيدى أكثر الناس معرفة بحقيقة الاسلام

(٢) رغبة البابا أو الكنيسة الغربية فى السيطرة على جميع العالم المسيحي وقد شاهدنا نهوض البابوية فى عهد غريغورى السابع والسادس والثالث وعلمنا كيف أن البابا أراد أن يكون العالم المسيحى تحت حكومة دينية واحدة رئيسها البابا ، فكان طبيعياً أن ترحب الكنيسة بفرصة تكون نتيجتها خروج المسلمين من بيت المقدس وإخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها

(٣) وهناك أسباب ثانوية كميل الفرسان والاشراف الى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم فى تكوين إمارات وحكومات فى الشرق ورغبة الرقيق فى التخلص من قيود الاقطاع التى كانت تربطهم بأرضهم

الظروف التى مهدت السبيل لهذه الحروب

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت الملك شاه وتفكك الوحدة الاسلامية وعدم ظهور زعيم قوى يجمع شتات القوات الاسلامية .

(٢) قيام المدن فى ايطاليا وخصوصاً جمهوريات جنوه والبندقية وبيزا ، اذ لولا تكوين هذه القوات البحرية والتغلب على قرصان البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب واحتلال النورمنديين لجنوب ايطاليا وصقلية . لتعذر على الصليبيين عبور البحر الأبيض المتوسط الى فلسطين

(٣) تحول المجريين الى المسيحية الأمر الذى فتح الطريق بين غربى أوربا والشرق

(٤) انتصار البابوية على الامبراطورية ، وتفوق البابا فى غرب أوربا جعل كلمته مسموعة وجعل كل الحكومات تسارع إلى تلبية ندائه

السبب المباشر

أما السبب المباشر للحرب الصليبية فهو استنجاد أمبراطور القسطنطينية بدول الغرب، فإنه لما انتصر السلاجقة وأصبح مركز الامبراطورية مهدداً عمد الامبراطور إلى الاستنجاد بأقوى أمير في غرب أوربا وهو البابا، وصادف أن أول طلب للامبراطور وصل إلى البابا غريغوري السابع سنة ١٠٨٠ فكان وفق أمانيه. ولولا اشتغاله بنزاعه مع الامبراطور لبدأت حركة الحروب الصليبية في عهده

ثم استنجد الامبراطور «الكسيوس Alexius» مرة ثانية بالبابا «اربن الثاني Urban II» سنة ١٠٩٥ وكان هذا البابا فرنسي الأصل تخرج في دير كلوني Cluny. وبفضل ما أوتيه من العلم وما كانت عليه البابوية من القوة جمع سنة ١٠٩٥ مجمعاً عاماً في «كليرمنت Clermont» تمثلت فيه كل الطوائف من جميع أنحاء غرب أوربا وحضره من الأساقفة مائتان وخمسة وعشرون أسقفاً. فخطب البابا هذا الجمع كما خطبهم سفراء الكسيوس وكان «اربن» خطيباً مؤثراً فشرح حالة بيت المقدس وأعلن وجوب إنقاذه من أيدي المسلمين وحرض الناس على الانضمام للحركة. وأعلن حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها دون حاجتين. ووعد الذين يموتون في سبيل هذه الحرب جنات النعيم، فأجاب الجميع بصوت واحد «هكذا أراد الله Dieu le veut». عند ذلك وضع البابا الصلبان على أذرع الذين تطوعوا ولذا سميت حروب بالصليبية.

(مجمع كليرمنت)

(هكذا أراد الله)

وسرت في الناس روح دينية قوية تسربت إلى أعماق نفوسهم. فهرعوا من جميع غرب أوربا ومعهم عائلاتهم مدفوعين بهذه الفكرة

الجديدة . والحقيقة أن أوربا المتنازعة المتنافرة . المنقسمة الى دوقيات وإقطاعات عدة . قد اتحدت لأول مرة بعد سقوط الدولة الرومانية وأصبحت يداً واحدة وتمسكت بفكرة عامة ومما يزيد فى أهمية هذه الحركة أنه لم يظهر فى الشرق مثل هذا الشعور أمام خطر هجوم الصليبيين ، بل ظل الأمراء المسلمون متنازعين حتى ظهر صلاح الدين بعد قرن من الزمان

وعلى أثر انتشار الدعوة اجتمعت الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء . وساروا من غير نظام ولا استعداد يريدون تخليص بيت المقدس غير عالمين بطول المسافة بين بلادهم وبين هذه الجهة . واقترفوا فى طريقهم جرائم وفظائع أدت الى قيام المجريين والبوزنطيين صدهم . وأخيراً وصلوا الى القسطنطينية ورأى الامبراطور أن يتخلص منهم فساعدهم على العبور فوصلوا الى « نيقيه » وكان عددهم ثمانمائة ألف فقاتلهم هناك السلاجقه وأفنوهم عن آخرهم سنة ١٠٩٦ . والمسئول عن هذه الحملة بطرس الناسك ، الذى جعل يطوف فى أوربه يحث الناس على محاربة المسلمين والفارس الفرنسى الملقب « والتر المفلس »

حملة بطرس الناسك

الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٧ — ١٠٩٩)

فى هذه الاثناء كان الاستعداد للحملة الأولى قائماً على قدم وساق وكثر المتطوعون من الفرنسيس والبرغنديين والنورمنديين ورؤساء هذه الحملة من طبقة الاشراف والأمراء التى تلى طبقة الملوك . وأهمهم « جدفرى Godfrey دوق اللورين و« ريموند Raymond دوق بروفنس »

زعماء الحملة

في جنوب فرنسا و«بوهمند Bohemund» بن روبرت جسكارد مؤسس مملكة النورمنديين في جنوب ايطاليا

وكان «جدفري» أصلح الصليبيين وأحبهم الى الناس. أما «ريموند» فكان أرفعهم منزلة. وأما «بوهمند» فكان أقواهم وأشدهم مراسا. واتخذ كل زعيم طريقا خاصا مع أتباعه واتفقوا على أن يجتمعوا في القسطنطينية ربيع سنة ١٠٩٧. لأن ذهابهم مجتمعين يجعل المؤونة صعبة. ولما اجتمعوا في القسطنطينية كانوا نحو مائة ألف فارس وستمائة ألف من المشاة من حجاج وقساوسة وغير ذلك خلا النساء والأطفال

موقف الكسيوس

ولم يكن الامبراطور الكسيوس مستعدا لقبول هذا العدد العظيم في عاصمة ملكه وخاف أن يدبر الصليبيون خلعه، وكل ما كان يرمي اليه من الاستعانة بأوربا هو أن ترسل اليه نجدة تساعده على السلاجقة ولما سمع بهذا العدد العظيم والزعماء المشهورين وعدم مبالاتهم بسلامة دولته، أخذ الحيطة لنفسه وحاول أن يستخدمهم في تحقيق أغراضه فكان لا يكاد زعيم يصل الى العاصمة حتى يقنعه الامبراطور أن يرد الى الدولة ما عسى أن يستولى عليه من مدن وأقاليم كانت الى عهد قريب تابعة لها، ووعد بامداد الصليبيين بالمؤن والذخائر أثناء سيرهم الى بيت المقدس

ولما انتهى عقدهم عبروا الى الأناضول في صيف سنة ١٠٩٧ وحاصروا «نيقية» فنقل «قلج ارسلان» صاحب سلطنة الروم عاصمته الى قونيه.

موقعة دوريليم

وبعد الاستيلاء على نيقية تقدم الصليبيون الى دوريليم (اسكي شهر) حيث هزموا جيوش ارسلان فلم يعد يعترض سبيلهم. وتفرغ الكسيوس الى استرجاع أسيا الصغرى ويئس من اتفاق الغربيين فكف عن

مساعدتهم، بل جعل ينهضهم رجاء أن ينتزع كل ما دخل فى حوزتهم

بعد موقعة دوريليم أرسل بوهمند أخاه تنكرد للاستيلاء على كيليكيا، فتقدم الى « الرها أو ارفا Edessa » و نزعها من يد الامير التركى وكون فيها أول أمارة لاتينية سنة ١٠٩٨



[illegible]

فتح انطاكية

أما بقية الصليبيين فزحفوا الى انطاكية وحاصروها فى ١ اكتوبر سنة ١٠٩٧ فقاومت تسعة أشهر ذاق فيها الصليبيون ويلات الجوع والبرد والطاعون حتى كاد يستولى عليهم اليأس. ولو تجد أمراء المسلمين فى سوريا لقضوا على الحملة إذ ذاك. ولكن انقسامهم مكن الصليبيين من الانتصار فأذاقوا أهل المدينة سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الالوف

وانتخبوا «بوهمند» أميراً على انطاكية وما يليها

قدس

وبعد أن استراحت الجنود تقدم كثير منهم الى «أورشليم» فى يونيه سنة ١٠٩٩ وكانت فى يد حامية مصرية صغيرة، فحاصروها خمسة أسابيع ثم وعدوا هاجمة على رجال الحامية ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى حدثت مذبحة عظيمة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً، وكتبوا الى البابا يبشرونه بقولهم «إذا أردت أن تعرف ما جرى لأعدائنا فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين الى ركبتيها»

وبعد الفتح انتخبوا «جدفرى» ملكا على بيت المقدس ولكنه اكتفى بلقب حامى قبر المسيح وانتخب بعده أخوه بدوين وشرع الغربيون يخضعون المدن الباقية فى فلسطين. وسهل عليهم هذه المهمة المساعدات التى كانت تقدمها لهم أساطيل مدن الايطاليه فأخذوا عكا سنة ١١٠٤ وصور سنة ١١٢٤، وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريمند دوق تولوز

نتائج الحرب الصليبية الاولى

١ — تكوين أربع إمارات لاتينية فى الشام (ا) بيت المقدس وحاكمه جدفرى ثم من بعده أخوه بدوين (ب) انطاكية وأميرها بوهمند أولا وأخوه تنكرد ثانياً (ج) طرابلس وأميرها ريمند (د) الرها وحاكمها بدوين. ولم يحاول الصليبيون إخضاع بلاد الشام، بل اقتصروا على احتلال السواحل وتركوا المدن الهامة التى فى الداخل مثل دمشق وحلب

٢ — ضمت الدولة البوزنطية جزءاً عظيماً من آسيا الصغرى بعد أن فتحه الصليبيون

٣ بدأت جمهوريات جنوه والبندقية وبيزه تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين . وجاء إلى بلاد فلسطين كثير من الاوربيين

٤ – قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الاقطاع المتبع فى أوربا ، وكانت كل إمارة مستقلة تماماً عن الأخرى رغم أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم

٥ لما كان العنصر الفرنسي متغلباً على غيره أصبحت اللغة الفرنسية هى السائدة وأطلق العرب عليهم جميعاً لقب الفرنجة

٦ ظهرت طوائف جمعت بين مبادئ الرهبنة ومبادئ الفروسية ، [illegible] مهمتها حماية المسيحيين والعناية بالمرضى والجرحى أثناء الحروب . وكانوا يأخذون على أنفسهم العهود المتبعة وهى الفقر والطهارة والطاعة . و[illegible] هذه الطوائف « فرسان المعبد » Knights of the Temple » وبعضهم كان يسمون Templars و « فرسان القديس يوحنا » Knights of St. John » ويلقبون باسم Hospitalers و « فرسان التيوتون » وغيرهم وما لبث أن انضم الاشراف والفرسان بكثرة إلى هذه الطوائف وانهالت عليهم المنح والاراضى والاموال ، حتى أصبحوا من أغنى الطوائف

٧ لم يمض جيل على وجود الصليبيين بالاراضى المقدسة حتى اندمجوا فى الاهالى وتصاهروا معهم وتأثروا بالبيئة الجغرافية . وقد كان المسيحيون الشرقيون ضد الصليبيين . والدليل على ذلك أنه فى الحروب المقبلة لم يستنجد الصليبيون بمسيحى الشرق مثل الشام مثلا

امتزاج الصليبيين بالاهالى

الحرب الصليبية الثانية

تمهيد

من أهم العوامل التي ساعدت الصليبيين على نجاحهم في الحرب الأولى انقسام دولة السلاجقة وعدم ظهور زعيم يجمع شتات القوات الاسلامية ويقودها ضد الصليبيين ولكن في سنة ١١٢٧ ظهر أول زعيم من أمراء السلاجقة عمل على توحيد قوى المسلمين وإيجاد وحدة قوية في الشرق تقوى الصليبيين وتطردهم من ديارها، وهذا هو

عماد الدين

عماد الدين زنكي الذي عين في تلك السنة أتابكا على الموصل والعراق. ولما كانت أملاكه مهددة بوجود الصليبيين في الرها توفرت أسباب النزاع بينه وبينهم ثم ما لبث أن استنجد به بعض مدن الشام مثل حلب وحماه ودمشق ضد الصليبيين فسار إلى الشام واحتل حلب وبعض مدن أخرى.

وفي سنة ١١٤٤ تمكن من فتح مدينة الرها وكانت من أمنع وأهم ممتلكات الصليبيين. وبينما كان يواصل فتوحاته مات مقتولا سنة ١١٤٦. وكان أميراً مصلحاً شهماً مشجعاً للتجارة والعلوم، أعاد الأمن في البلاد والثقة في نفوس القوم وترك من أولاده «سيف الدين» الذي خلفه في الموصل و«نور الدين محمود» الذي خلفه في الشام واتخذ حلب مقراً له

نور الدين

نشأ نور الدين في معسكر أبيه أميراً شجاعاً مشرعاً عادلا مستنيراً، وواصل سياسة أبيه في مكافحة الصليبيين وتوحيد القوات الاسلامية ضدهم

وفي سنة ١١٤٧ دمرت مدينة الرها على أثر فتنة قام بها الأرمن، فأثارت هذه الحادثة الشعور الديني في أوربا من جديد وقامت الحرب الصليبية الثانية خوفاً من تقدم المسلمين بزعامة نور الدين

الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧ — ١١٤٩

انزعج الناس في أوربا وخافوا نتيجة انتصارات نور الدين فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة التي سبقت الحرب الأولى ويرجع الفضل في تحريك همم الغربيين هذه المرة الى الراهب الفرنسي «سان برنارد» وكان ذا نفوذ عظيم في جميع غرب اوربا. ذكياً فصيحاً. أمكنه بهذا التأثير أن يضم الى صفوف الغربيين الملوك والامراء. وفعلا انضم ملك فرنسا لويس السابع وامبراطور المانيا كنراد الثالث. وكان العنصر الالماني في هذه الحرب هو المتفوق على كل العناصر الأخرى. وقد أخذ ملك فرنسا زوجته معه وكثر عدد السيدات في هذه الحملة

وأول من بدأ بالسير هم الالمان بقيادة الامبراطور فاتخذوا طريق البر وصحب بهم عمرونو والبوزنطيون للصبغة العائلية التي تصله بامبراطور الشرق. ولم يلبث أن ينتصر ملك فرنسا، فعبر البحر الى آسيا الصغرى واخترقها وتكبد خسائر عظيمة بسبب الجوع ومهاجمة السلاجقة له. فاضطر الى الرجوع الى نيقية حيث تقابل مع الفرنسيين وساروا في طريق أزاء سواحل آسيا الصغرى، ولكن هجمات السلاجقة لم تنقطع فأكملوا طريقهم بحراً ووصل الفرنسيون الى انطاكية سنة ١١٤٨

أما الامبراطور كنراد فوصل الى عكاء واتصل الفريقان بعد أن باد

ثلاثة أرباع قواتهم لأصلية وقصدوا دمشق وبذلك ارتكبوا غلطة سياسية لأن أمير دمشق كان مواليا للصليبيين ـ وجاء أتابكة الموصل وأتابكة حلب وجتمعت قوات سيف الدين وقوات نور الدين للدفاع عن دمشق . فلما لم يقو الصليبيون على أخذها عاد الامبراطور ثم ملك فرنسا إلى أوربا . وفشلت الحرب الصليبية الثانية وشلا كانت نتيجته تقوية الوحدة بين المسلمين وظهور ضعف الصليبيين فى الشام . فقل عدد الحجاج وانقضت أربعون سنة دون قيام حملة كبيرة

مقدمة الحرب الصليبية الثالثة

بقيت أمام نور الدين مشكلتان (١) أخذ دمشق التى كان أمراؤها مواليا للصليبيين (٢) محاولة أخذ مصر ومنع الصليبيين من تقوية نفوذهم فيها . أما دمشق فقد استولى عليها نور الدين سنة ١١٥٤ على أثر استنجاد أهلها به ضد الصليبيين ، وتعد هذه خطوة هامة فى سبيل توحيد القوات الاسلامية .

بقيت مسألة مصر ولما كان حكامها من الفاطميين الذين هم من الشيعة لم يشأ السلاجقة الانضمام اليهم . وكانت الخلافة الفاطمية فى آخر أيامها فى منتهى الضعف ، والقوة كلها فى أيدي وزراء لا هم لهم إلا استبقاء السلطة فى أيديهم . لذلك طمع كل من السلاجقة والصليبيين فى الاستيلاء عليها واستاق فى امتلاك الفريقين . أما الصليبيون فكانوا يريدون مصر لعدة أسباب منها مركزها الحربى والايراد الذى يمكن الحصول عليه منها ، ولأهميتها من جهة المواصلات البحرية بين الصليبيين وبين أوربا .

أما أهميتها لنور الدين فهى أنها تضيق على الصليبيين الخناق من جهة الجنوب فتحصرهم بين نارين. وتتلخص النزاع من أجل مصر بين نور الدين والصليبيين في الادوار الآتية

الدور الأول سنة ١١٦٤

بدأ النزاع بين وزيرين مصريين وهما ضرغام وشاور في عهد «العاضد» آخر الخلفاء الفاطميين وكان شاور وزيراً في الصعيد فعزله ضرغام فاستنجد بنور الدين وقدم له شروطاً عظيمة وهي ثلث ايراد مصر يدفع عنه حربية عدا تكاليف الحملة ولكن نور الدين تردد في ذلك لعدم ثقته في شاور ولأن إرسال الحملة معرضها لخطر مهاجمة الصليبيين الا انه بعد الإلحاح قبل نور الدين ولبى الطلب. فلما وصل هذا الخبر الى ضرغام أيقن بالانهزام ففكر في الأمر وتم رأيه على أن يستنجد بالصليبيين فاتفق مع أموري «Amaury» ملك بيت المقدس (سنة ١١٦٣ – سنة ١١٧٤)

ضرغام وشاور

وأرسل نور الدين قوة تحت قيادة «أسد الدين شيركوه» هزمت الصليبيين ومن معهم من المصريين. وقتل ضرغام. فخلا الجو لشاور وأصبح وزيراً فلما تم له الأمر في مصر غير سياسته وأراد التخلص من السلاجقة ونسي كل ما تعهد به لهم سابقاً. ولكي يأمن شرهم كاتب الصليبيين الذين سرعان ما جاؤا لنجدته ولكنهم عجزوا عن طرد شيركوه بعد أن حصروه ثلاثة أشهر في بلبيس، فاتفق الطرفان على أن يخليا مصر وتعهد الصليبيون بعدم التدخل في شؤونها

شاور وشيركوه

جلاء السلاجقة والصليبيين

الدور الثاني سنة ١١٦٧

قبل أن يغادر الصليبيون مصر اتفق معهم شاور اتفاقاً سرياً، فلما نما الى علم نور الدين خبر هذه المعاهدة اقتنع برأي شيركوه الذي ما فتيء ينصح لسيده بفتح مصر

وفي سنة ١١٦٧ جرد نور الدين حملة بقيادة شيركوه فسارت نحو مصر واخترقت الصحراء وعبرت نهر النيل الى الجيزة. وما لبثت أن جاءها الصليبيون حسب الاتفاق السري وعسكروا بالفسطاط وأرادوا أن يتثبتوا من المعاهدة فاستوثقوا من ذلك بعد مقابلة الخليفة الفاطمي «العاضد» واستحلافهما منه. وبعد أن وصل الصليبيون للشاطئ الغربي من النهر تقابل الجيشان في واقعة «البابين» جنوب المنيا بعشرة أميال وهزم الصليبيون.

واقعة البابين

ودخل شيركوه الاسكندرية وعين صلاح الدين حاكما عليها. ولكن حصرها الصليبيون بمساعدة الموريين من جهة البحر. ولما لم يتمكن من رد المحاصرين اتفق الفريقان على الهدنة ثم غادر شيركوه مصر بعد أن أخذ مبلغا من المال من الملك «أموري». وكذلك غادرها الصليبيون بعد أن تركوا بها حامية منهم.

غزو ثالث ١١٦٨

اعترض بعض الصليبيين على الخطة التي اتبعها الملك أموري في خرق الاتفاقية وأظهروا له ضرورة الاستيلاء على مصر، لأنها تفيد توحيد الصليبيين بعد أن اشتد الضغط عليهم من الشمال فدخل الصليبيون مصر في هذه المرة وقتلوا أهل بلبيس واقترفوا فظائع شتى لكي يرهبوا البلاد وعسكروا قرب الفسطاط

عند ذلك خشي شاور دخول الصليبيين فقر رأيه على حرق الفسطاط منعا لتقدمهم. واستمرت النيران بها اربعة وخمسين يوما. ولا تزال آثار هذه الحرائق موجودة بالفسطاط بالجهة الجنوبية الغربية من القاهرة

حريق الفسطاط

وعند ذلك استنجد خليفة العاضد بنور الدين فجاء شيركوه للمرة الثانية يقود حملته فاستقبله المصريون كمخلص ولما كانت مملكة

بيت المقدس مهددة من الشمال بقوات نور الدين عدو الصليبيين البلاد بعد أن فشلوا في الاستيلاء على مصر . وحاول شاور أن يتودد إلى شيركوه فلم يفلح وقتل شاور سنة ١١٦٩ وأصبح شيركوه وزيراً على مصر ولم يبق في الحكم إلا شهرين ثم مات وخلفه ابن أخيه صلاح الدين

صلاح الدين

تولى حكم مصر بعد شيركوه سنة ١١٦٩ فهو الذي انتفع بكل مجهودات عمه ولقب صلاح الدين بالملك الناصر وكان عمره إذ ذاك احدى وثلاثين سنة . وكان رجلا تقياً هادئ الأخلاق بسيطاً في معيشته. عاهد نفسه منذ أن تولى أمر مصر أن يهب حياته لطرد الصليبيين من الشرق وكان مركز صلاح الدين السياسي في أول الأمر في منتهى الدقة . وذلك لأنه كان رئيس وزارة الخليفة الفاطمي الشيعي وفي الوقت نفسه قائداً من قواد السلطان نور الدين السني المعين من قبل الخليفة العباسي . وزيادة على ذلك لم يكن صلاح الدين أكبر قواد نور الدين الموجودين في مصر في ذلك الوقت ، ولذا كان يخشى كثيراً أن يدعوه نور الدين إلى الشام ويعين قائداً بدله في مصر

غير أن صلاح الدين بمهارته وحذقه السياسي أمكنه أن يوفق بين التناقض الظاهر في وظيفته وأملت عليه سياسته أن يتريث في تحويل المذهب الشيعي في مصر . فبدأ بذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة . ثم أخذ يحبب لدرس التعاليم السنية ففتح المدارس وأحضر العلماء وأخذ يهيئ الجو للتغيير الديني المنتظر ، ثم عمل

حنكه
موقعه
حذقه السياسي

على أن يقوى مركزه فى مصر من غير اثارة شكوك نور الدين فدعا اليها أهله وأقاربه وعززهم وصاروا من أخص المؤيدين لسلطته. ثم تحبب الى المصريين وأحسن معاملتهم وأجرى العدل بينهم

ولما شعر صلاح الدين بأن أعوان الخليفة الفاطمى يدبرون خطة ضده أخذ يضعف من قوتهم وقتل «جوهر» رئيس حرس الخليفة وكان من السودانيين، وعلى أثر ذلك قامت فتنة السودانيين فى الصعيد سنة ١١٦٩ واستمرت مدة، ثم وصل فى غضونها خليفة العباسى والسلطان نور الدين الى اقامة الشعائر السنية فى مصر بدل مذهب الشيعة فقرر أن تكون خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى وكان ذلك سنة ١١٧١.

فتنة السودانيين

وبعدها بأيام مات «العاضد» آخر خلفاء الفاطميين فى مصر دون أن يعلم بما حصل وبموته انقضت الخلافة الفاطمية وتحولت مصر الى المذهب السنى نهائياً وأصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر. وقد حاول الصليبيون الذين فى بيت المقدس أن يحولوا دون امتلاكه اياها، فحاصروا دمياط نحراً بالاشتراك مع البوزنطيين ولكنهم ارتدوا عنها وتكبدوا خسائر فادحة، وكانت هذه آخر حرب هجومية قامت بها مملكة بيت المقدس فى مصر

مصر صلاح الدين

العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين

لما قوى مركز صلاح الدين فى مصر ورأى نور الدين أن الزعامة فى الشرق قد تنتقل اليه توترت العلاقات بين الاثنين، ولكن ما فتئ صلاح الدين المنهية يظهر خضوعه وولاءه لنور الدين وينفذ أوامره.

وبهذه السياسة تمكن صلاح الدين من توسيع نفوذه ففتح بلاد النوبة واليمن، غير أن كل هذا لم يمنع نور الدين من أن يضمر له بعض السوء الى أن مات نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ وخلا الجو لصلاح الدين

ولا شك أن نور الدين يعتبر من خيرة السلاطين الذين حكموا فى الشرق باتفاق آراء المؤرخين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت، إذ هو الذى أحيا دولة السلطان ملك شاه وحقق امانى عماد الدين زنكي، فوحد القوات الاسلامية فى الشام وحال دون انقسام كلمة المسلمين ازاء الصليبيين. وبموته أصبح صلاح الدين أقوى أمير مسلم فى الشرق

أما ابن نور الدين الذى خلفه وهو «الملك الصالح» فلم يكن له من العمر الا احدى عشرة سنة، ووقع تحت نفوذ بعض وزرائه وحاول صلاح الدين أن يتفق مع الملك الصالح فيكون تابعاً له كما كان تابعاً لأبيه فلم يفلح وقامت الحرب بينهما. وكان طبيعياً أن يحارب صلاح الدين حتى تبقى وحدة المسلمين والا ضاعت المجهودات التى صرفت وانقسم المسلمون فى الشرق كما حصل على أثر موت عماد الدين زنكي. وانتهت الحرب بهزيمة الملك الصالح واخذ صلاح الدين دمشق وأصبح سلطان مصر والشام بموافقة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥

صلاح الدين
والملك الصالح

ثم مات الملك الصالح سنة ١١٨١ فلم يجد صلاح الدين صعوبة فى أخذ حلب ثم الموصل وصار السيد الوحيد فى غرب آسيا بما فى ذلك سلطنة سلاجقة الروم. وعلى ذلك تحققت سياسة نور الدين وأصبح الصليبيون فى بيت المقدس محصورين بين قوات اسلامية متحدة من الشمال والجنوب والشرق

ن الحروب التى قامت قبل ذلك بين المسلمين والصليبيين فى الشام
لم تكن فى الحقيقة إلا مناوشات بسيطة انتهت بهدنة بينهم وبين صلاح
الدين سنة ١١٨٠. وأما الحرب العامة التى انتهت بخروج الصليبيين
من بيت المقدس فسببها انه سنة ١١٨٦ قام نزاع بين صلاح الدين
والصليبيين سببه ان كان يعمله أحد فرسان الصليبيين المسمى «رجينولد
Reginald de Castillon» صاحب حصن الكرك من قطع طريق
الحجاج والمسافرين إلى مصر وسلب القوافل. وقد حدث أنه سلب قافلة
فيها أخت صلاح الدين فصمم هذا على الانتقام، وزاده تصميماً قيام
«رجينولد» بحملة يقصد بها تدمير مكة والمدينة. فقامت الحرب العامة بين
المسلمين والصليبيين بقيادة صلاح الدين وسقط حصن الكرك. ثم تقابل



قلعة الكرك

الجمعان فى واقعة «حطين» فى يوليه سنة ١١٨٧ فانهزم الصليبيون انهزاماً
حاسماً وقتل منهم عشرة آلاف ووقع رؤساؤهم أسرى فى أيدى صلاح
الدين. ومن هؤلاء الأسرى صاحب الكرك و «جاى دى لوزنيان»

« Guy de Lusignan » ملك بيت المقدس ثم سقطت عكا ونابلس والرملة وقيسرية ويافا وبيروت ، وكلها كانت حصوناً هامة فتحت ابوابها للمسلمين من غير مقاومة

ثم فتح بيت المقدس عنوة ، واظهر صلاح الدين تسامحاً واتصف بالشفقة والرحمة نحو فقراء الصليبيين والنساء والاطفال ، فقد ترك لهم فرصة أربعين يوماً لاخلاء البلد ، وفرض دية شخصية كان يدفع بعضها من جيبه الخاص . وقد سمح بفك أسر « جاى دى لوزيان » بعد أن أقسم ألا يحاربه ولم يبق للصليبيين من إماراتهم وممتلكاتهم سوى صور .

الأسباب التى ساعدت على ضعف الصليبيين فى بيت المقدس

١ — لما مات الملك أمورى اعتلى العرش ملوك أطفال ضعاف وسادت المنازعات الأهلية

٢ — ان الصليبين كانوا منقسمين على أنفسهم فلا اتحاد بين من كان منهم فى أنطاكية مثلاً ومن كان فى بيت المقدس

٣ — ساعد على ضعف الحكومة المركزية تفوق نظام الاقطاع بين الصليبيين

٤ — فساد أخلاق الصليبيين بسبب تأثير البيئة فيهم وخصوصاً أن عدداً كثيراً منهم كان من عائلات وضيعة فى أوربا

٥ — إن الشئون الاقتصادية أصبحت فى أيدى تجار ايطاليين من جنوه والبندقية فلم يستفد الصليبيون من ذلك شيئاً

الحرب الصليبية الثالثة

لما ذاع خبر انهزام الصليبيين فى حطين وفتح المسلمين بيت المقدس وانكماش دولة الصليبيين فى الشام. تهيأت أوربا لحرب صليبية جديدة. وكانت الحالة فى أوربا قد تغيرت فى القرن الثانى عشر عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر، إذ بدأ الملوك فى أوربا يتغلبون على النظم الاقطاعية تدريجياً وأصبح سلطانهم قوياً فى البلاد وعلى ذلك لم يكن البابا هو المحرك الوحيد للحرب الثالثة كما حصل فى الحرب الاولى.

وقد كانت هذه الحملة مكونة من جيوش قوية منظمة لا من طوائف همجية مدفوعة بعامل الحماسة الدينية من غير نظام ولا استعداد. وزعماء هذه الحملة هم الامبراطور فردريك بربروس وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا. غير أنه إن صعب توحيد القوات الصليبية فى الحرب الاولى فإن توحيدها فى الحرب الثالثة كان أصعب لتقدم روح القومية فى ممالك أوربا وما جرت اليه من التنافس. ومع ذلك كله فان وقع خبر سقوط بيت المقدس فى نفوس الناس كان سبباً فى تخفيف تلك الفروق والمنافسات بين الملوك فى مبدأ الحرب الثالثة

وكان الامبراطور فردريك بربروس أول من تحرك للحرب إذ اجتمع الالمان فى « راتسبون Ratisbon » سنة ١١٨٩ واتخذوا الطريق الذى إلى آسيا الصغرى مخترقين بلاد المجر والبلقان. ثم ذهبوا إلى آسيا واخترقوا جبال طوروس ودخلوا بلاد الارمن فى كيليكيا سنة ١١٩٠، وهناك نزل الامبراطور فى نهر سالف وغرق. وكان لموت فردريك بربروس أثر

سيء في نفوس أتباعه فتشتت شملهم وبدأوا يتخاذلون بعد أن كانوا منتصرين ، وعاد جزء من الجيش إلى ألمانيا وسار الباقون بقيادة « دوق سوابيا » وهو ابن الامبراطور بربروس . ولكنه هو أيضاً مات في الطريق فتبدد الباقون ولم يصل منهم إلى عكا إلا النزر اليسير

قلب أغسطس وقلب الأسد

وفي أثناء ذلك اجتمع «فليب اغسطس» ملك فرنسا مع «رتشارد» ملك انجلترا وقاما من مرسيليا ومعهما جيوشهما وكثير من الاشراف سنة ١١٩٠ فوصلوا الى صقلية ولبثوا فيها مدة سنة ، ثم قاما قاصدين عكا ولكنهما عرجا على قبرص ففتحها رتشارد وبقي هناك الى أن استنجد به الصليبيون في الشام ، لان جاي دي لوزينيان عند خلاصه من الأسر ودعا نفسه ملك بيت المقدس وبدأ يحاصر عكا . فجاء صلاح الدين بقواته وحصره وضيق عليه وعلى من معه الخناق مدة طويلة

ويلاحظ أن صلاح الدين اكتفى بقوته البرية ولم يحاول حصار الصليبيين من جهة البحر ، وعلى ذلك أصبح هؤلاء متصلين بأوربا بحراً فكانت تأتي اليهم المؤن والرجال والذخائر . واستمر الحصار حتى جاء فليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وسقطت عكا في أيديهما سنة ١١٩١

عند ذلك دب النزاع بين الصليبيين وخاصة بين رتشارد وفليب فغادر فليب الشام وأصبح رتشارد بمفرده ، وأراد أن يواصل انتصاراته فأظهر في حروبه ضد المسلمين فروسية أكسبته شهرة عظيمة وانتصر على صلاح الدين في موقعة « ارسوف » ولكن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة . وعلى ذلك بدأت مفاوضات الصلح بين رتشارد وسيف الدين

موقعة أرسوف

صلح الرملة ١١٩٢ أخي صلاح الدين واتفقا نهائياً سنة ١١٩٢ على صلح الرملة وهو عبارة عن هدنة تستمر ثلاث سنوات وثمانية أشهر ويقضى بما يأتى

١ - يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين بشرط أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج

٢ - أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور إلى يافا

٣ - أن يرد المسلمون المخلفات الدينية

وعاد ريشارد الشرق سنة ١١٩٢ وفى أثناء الطريق وقع أسيراً فى يد «ليوبولد دوق النمسا» الذى سلمه الى الامبراطور هنرى السادس. ولم يطلق هذا الأسير إلا بعد أن دفع دية كبيرة. ومات صلاح الدين ان مات سنة ١١٩٣



نسر صلاح الدين

وكانت نتيجة الحرب الصليبية الثالثة أن أصبحت عكا مركزاً سياسياً للصليبيين بدل بيت المقدس، وامتد أجل بقائهم في الشام مائة سنة أخرى. أما أملهم في الاستيلاء على بيت المقدس فقد تبدد نهائياً

الحرب الصليبية الرابعة ١٢٠٢ — ١٢٠٤

فى سنة ١١٩٨ بدأت الحملة الرابعة التى انضم اليها عدد كبير من الطبقات الوضيعة مثل الحملة الأولى. وكان السبب فى قيام هذه الحملة

تحريض البابا « انسنت الثالث » وأهم زعمائها « بدوين دوق فلندره »،
واتفق الصليبيون مع رئيس جمهورية البندقية « اندريه دندولو » – وكان
رجلا كبير السن كفيف البصر سياسيا كثير المكر والخداع – على
أن يمدهم بالسفن والمؤونة مقابل مبلغ من المال وتعهدوا له أن يقتسموا
معه كل الغنائم والاراضي التي تقع في أيديهم.

دوج دندولو

وكان غرض الصليبيين الوحيد الوصول الى مصر ولكن « الدوج
« دندولو Dandolo » بمهارته أمكنه أن يؤثر في الصليبيين وأن يستخدمهم
في مصالح البندقية الخاصة. فساعدوه في اخضاع مدينة « زارا » سنة ١٢٠٢
وكانت تابعة للمجر. ثم زارهم أمبراطور قسطنطينية المخلوع واستنجد
بهم ومناهم اذا هم ساعدوه في استرداد عرشه. فقصدوا القسطنطينية
سنة ١٢٠٣ ولم يلقوا صعوبة في الاستيلاء عليها. ثم طالبوا الامبراطور
بالمبلغ الذي وعدهم به، واشتطهد، في جمع النقود من الناس فقاموا بالثورة
ضد الصليبيين. عند ذلك فر الامبراطور وقام الصليبيون يدافعون عن
أنفسهم فدمروا وقتلوا وسبوا ونهبوا وكسروا التماثيل التي كانت بالميادين
وأخذوا الصور الفنية، وأصبحت القسطنطينية وباقي ممتلكات الدولة
في أيدي الصليبيين والبنادقة مناصفة. والمدهش أن هذه الحركة لم تسبب
قيام المسيحيين في أوربا ضد ما اقترفه الصليبيون في القسطنطينية.
وهذا يدل على أن شعور الاوربيين من حيث الحروب الصليبية
أخذ يضعف

الاستيلاء على الدولة البوزنطية

وقد قابل البابا انسنت الثالث قيام الحكومة والكنيسة اللاتينية
في القسطنطينية بالاستحسان. واختار الصليبيون « بلدوين دوق فلندره »

أمبراطور على القسطنطينية وتركوا للبنادقة اختيار الرئيس الدينى للقسطنطينية وقد قسم الصليبيون البلاد الى اقطاعيات حسب نظام الاقطاع وأصبح أشراف الصليبيين أدواقا على هذه الاقطاعات، ونشأت دويلات فى سلانيك ونيقية وفى أثينا. أما البنادقة فاكتفوا باحتلال المرافئ والسواحل وأصبحت جميع التجارة فى أيديهم

وقد استمرت حكومة اللاتينيين فى القسطنطينية الى سنة ١٢٦١ وقامت فى هذه الاثناء حرب بينهم وبين البلغار انهزم فيها الصليبيون. وفى النهاية تمكن أحد البيزنطيين المسمى «ميخائيل باليولوغس» من تأسيس إمارة فى نيقية سنة ١٢٥٩. ثم هاجم القسطنطينية وزالت دولة الصليبيين الذين قاموا بالحملة الرابعة. واستمر بقاء البيزنطيين فى القسطنطينية الى سنة ١٤٥٣ حين جاء الترك. ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع فى القسطنطينية

بقية الحروب الصليبية

أما الحروب الصليبية التى تلت ذلك فهى حملات ثانوية ليس لها من الاهمية ما لسابقتها. وآخر مظهر من المظاهر الدينية التى استولت على الاوربيين الحملة التى قام بها الاطفال سنة ١٢١١ فى ألمانيا وفى فرنسا. فقد قام هؤلاء الاطفال واجتمعوا وصمموا على الذهاب الى بيت المقدس بعد أن انتخبوا منهم رؤساء. أما الاطفال الذين جاءوا من ألمانيا فارجعهم البابا، وأما أطفال فرنسا فذهبوا الى مرسيليا ومنها أخذهم بعض التجار وباعوهم فى الاسواق بيع السلع، بعد أن مناهم بانه سيحملهم الى بيت المقدس

الحملات الصليبية التي وجهت ضد مصر

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، قسمت دولته بين أولاده الثلاثة وبين أخوته وقامت الحروب بين أفراد العائلة ، ولكن لحسن الحظ ما لبثت الحالة إلا قليلا حتى ظهر سيف الدين أخو صلاح الدين وساعده الأيمن في حروبه — فحال دون انقسام الدولة . وكان يلقب بالملك العادل وكان من أكفأ القواد ومن أمهر السياسيين ورجال الدين. فاتفق مع أحد أبناء صلاح الدين واحتفظ بوحدة المسلمين في غرب آسيا وأصبح لمصر المكانة الاولى بين تلك الامارات . وكان «القاضي الفاضل» المشهور بأدبه وعلمه يساعد سيف الدين في شئون البلاد

ولما أيقن الاوربيون انه لا فائدة من استرداد بيت المقدس ما دام السلطان الايوبي قويا في مصر ، وجهوا حملاتهم ضدها . وأول هذه الحملات هي حملة «جان دي برين «Jean de Brienne» سنة ١٢١٨ ،

الحملة الاولى

هاجم الصليبيون دمياط وعلى الرغم من مناعة المدينة وكبر حاميتها سقطت وأتوا فيها بفظائع كثيرة ، واستعد الصليبيون بعد انتصارهم في دمياط للزحف على القاهرة وفي هذه الاثناء مات الملك حزينا ، وألقى مسئولية طرد الصليبيين من مصر على عاتق ابنه «الملك الكامل» (١٢١٩— ١٢٣٨) الذي ورث جميع الصفات الحسنة التي كانت لأبيه وعمه . فأقام الملك الكامل الاستحكامات للدفاع عن المنصورة . ولما خشي من اطراد نجاح الصليبيين تقدم لهم بشروط مدهشة وهي ترك مصر وأخذ بيت

المقدس . ولكنهم لم يقبلوا لانهم كانوا منتصرين ولأن مأربهم كان القضاء على مصر لأنها تحمى بيت المقدس، ولأن الروح الدينية كانت قد خمدت وحلت محلها المصلحة المادية، ولأن بيت المقدس محاط بامارات إسلامية فلا يسهل الاحتفاظ به

وقد أخطأ الصليبيون في اتخاذ الطريق الى القاهرة فساروا من وسط الدلتا حيث الترع منتشرة وتركوا الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية . وقد وقف لهم سلطان الكامل فى المنصورة مع النجدات التى جاءت اليه من جميع الجهات الاسلامية وكان الوقت وقت الفيضان . فقطع المصريون الجسور وأحاطت المياه بالصليبيين فلم يروا بدا من طلب الصلح وعادوا سنة ١٢٢١ .

الحملة السادسة وهى حملة الامبراطور فردريك الثانى

كان الامبراطور فردريك قد وعد البابا انسنت الثالث بالقيام بحرب صليبية ولكنه ظل يتنحل الاعذار حتى قام فى سنة ١٢٢٨ . وكان قد تزوج ابنة « جان دى برين » واتخذ لقب ملك بيت المقدس شرفاً . ولما قام بحملته كان محروماً من الكنيسة ولم يأخذ معه سوى خمسمائة

اتفاق الكامل وفردريك

فارس فكانت حملة غريبة من كل الوجوه . ومع ذلك فانه بسياسته ، ولما اشتهر عنه من عطفه على المسلمين، صادفت حملته نجاحاً لم تصادفه الحملات السابقة اذ اتفق مع السلطان الكامل — وكان متخوفاً من ضياع دمياط وتهديد القاهرة مرة أخرى — فسارع بعقد اتفاق مع فردريك الثانى

يقتضاه

(١) اعطى فردريك بيت المقدس شرط أن يحفظ المسلمون بلاد كل الاسلامية المقدسة. ومقابل ذلك يتعهد فردريك بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين

(٢) يتعهد فردريك بعدم ارسال نجدة للامارات الصليبية الموجودة فى الشام

ولما ذاع خبر هذا الاتفاق أنكره المسلمون والصليبيون فى وقت واحد. والحقيقة انه من الصعب الحكم على مزايا الاتفاق وهل هى فى مصلحة المسلمين أم فى مصلحة الصليبيين. ولكن أهميته للمسلمين هى أن احتفاظ الملك الكامل بمصر أهم كثير من بيت المقدس لان مصر كانت بلد خصب ورخاء فى حين أن بيت المقدس بلد جدب

أما الصليبيون فقد كان الاتفاق ضرراً عليهم لأنه نص على ألا تأتيهم النجدات من أوربا وهذا اضعاف لهم، ولا يغنى عنهم حكمهم بيت المقدس وحوله الامارات الاسلامية لان المسلمين لابد أن يستولوا عليه يوماً ما

عودة فردريك

ومع ذلك فان فردريك الثانى والملك الكامل قد قبلا هذه الشروط ودخل فردريك الثانى بيت المقدس وتوج نفسه ملكا هناك، ولكنه لما كان محروماً من الكنيسة انفض عنه الصليبيون فغادر بلاد الشام وعاد الى أوربا واصطلح مع البابا مؤقتاً فخفف البابا من حدته. وبقى بيت المقدس فى أيدى الصليبيين حتى جاء الملك الصالح أيوب واسترده سنة ١٢٤٤

[illegible]

وهى حملة لويس التاسع St. Louis ملك فرنسا سنة ١٢٤٩

لم تكن هذه الحملة حملة صليبية عامة بل كانت قاصرة على الفرنسيين وكان

لويس التاسع ملكا تقياً صالحاً مدفوعاً بالعامل الديني وهو يشبه جدفري دوق بويون .

سقوط دمياط — قصد الفرنسيون مصر واستولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ . وارتد المصريون الى المنصورة وحصنوا موقعهم هناك . ولكن لويس التاسع ارتكب الغلطة التي ارتكبها جان دى برين من قبل وهي السير الى القاهرة عن طريق الدلتا حيث تكثر الترع . عبر الصليبيون النهر وأقاموا استحكامات أمام المنصورة عند البحر الصغير وبنوا قنطرة على هذه الترعة، وفى هذه الاثناء مات الملك الصالح أيوب الذى خلف أباه

شجرة الدر — الملك الكامل سنة ١٢٣٨ . ولكن زوجته «شجرة الدر» اتفقت مع باقى الأمراء على مواصلة الدفاع ضد الصليبيين من غير أن يعلموا الناس خبر موت السلطان. وأخذت تباشر الحكم الى أن جاء «توران شاه» ابن الملك الصالح وتركت له مهمة الدفاع

توران شاه

لم يكد توران شاه يتسلم الامر حتى نظم قوات الدفاع . فنقل أجزاء السفن على ظهور الجمال الى دمياط وعندها ركبت السفن ونزلت بالبحر وهاجمت الصليبيين فى دمياط . وفى أثناء ذلك كان الملك لويس قد أعياه الوقوف أمام المنصورة وفشا المرض بين جنوده وحاول الهجوم على المسلمين فلم يفلح . وعلى ذلك قرر التقهقر نحو دمياط وحرق كل العدد والاستحكامات التى كانت مع الصليبيين ما عدا القنطرة التى كانت على ترعة «اشموم» البحر الصغير . وتعقبهم المسلمون ولحقوا بهم عند «فارسكور» وانسد أمامهم

الطريق بسبب وقوع دمياط فى أيدى المسلمين فهزم الصليبيون انهزاماً حاسماً ، وقتل منهم نحو ثلاثين ألف وأسر الملك ومن معه من الطبقات الشريفة ، ولم يفك أسره الا بعد دفع دية عظيمة من المال

أسر لويس تاسع

أما توران شاه فقتله المماليك لشدته . وكان المماليك من أقوى العناصر التى ساعدت على هزيمة الصليبيين فقوى مركزهم وتمموا على أخذ الملك من أيدى الايوبيين

وبتوران شاه انتهى عهد الايوبيين فى مصر وبدأ عهد سلاطين المماليك البحرية . وقد أدى الايوبيون لمصر خدمات جليلة اذ حموها من هجمات الصليبيين وكان أكثر ملوكهم ذوى مقدرة وكفاءة وكذلك كان الوزراء، وقد كانت سياستهم التجارية حازمة فاتفقوا مع البنادقة وعقدوا معاهدات تجارية كان من شأنها ان زادت فى ثروة مصر، وقد اهتموا بالعلوم والادبيات اهتماماً عظيما فظهر فى عهدهم الكتاب والمؤرخون مثل القاضى الفاضل وبهاء الدين زهير وكثر المتعلمون وانتشرت المدارس وظهرت نهضة أدبية عظيمة

مماليك البحرية

وبعد استيلاء جنود الملك الصالح أيوب على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ لم يبق للصليبيين الا بعض مدن على الساحل وعادت الحال إلى ما كانت عليه سنة ١١٨٧ أى بعد واقعة حطين. واستمر لقب بيت المقدس يتوارثه أبناء أسرة الهوهنشتاوفن الى أن انقرضت هذه الاسرة فأخذ ملوك قبرص هذا اللقب (لأنهم من نسل جاى دى لوزنيان) . وصلت عكا أهم مركز سياسى وتجارى فى يد الصليبيين واستمرت المنازعات الداخلية قائمة بينهم وبين تجار البندقية وجنوه

وفى أثناء هذا النزاع كانت قد ظهرت دولة المغول فى الشرق واستولت على البلاد الشرقية واستولى «هولاكو» المغولى على بغداد سنة ١٢٥٨ ودمرها وقتل الخليفة العباسى وقضى على الخلافة العباسية . وحاول الصليبيون أن يستميلوا المغول نحوهم ضد المسلمين . ولكن جاء أحد سلاطين المماليك المدعو «قطز» وانتصر على المغول فى وقعة «عين جالوت» فى الشام سنة ١٢٦٠ وهى من الوقائع الحاسمة فى تاريخ الشرق

وقعة عين جالوت

ثم جاء السلطان «بيبرس» سنة ١٢٦٢، وجدد عهد صلاح الدين فى حرب الصليب . وأخذ يخضع ممتلكات الصليبيين مدينة بعد أخرى وحصناً بعد آخر . فاستولى على يافا سنة ١٢٦٨ ثم اتجه شمالا وأخذ انطاكية . وفى سنة ١٢٨٩ سقطت طرابلس وأخيراً سقطت عكا سنة ١٢٩١ وانتهى عهد الصليبيين فى الشرق

نتائج الحرب الصليبية

كان للحروب الصليبية نتائج ظاهرة أهمها ما يأتى :

١ — حمت دولة البوزنطيين وحالت دون مهاجمة السلاجقة لأوربا . وما زالت السلاجقة لا تلقوا حرباً كبيراً منها

٢ — ظهور المدن فى أوربا وخصوصاً المدن التجارية وشراء حريتها من الأشراف بالمال والتخلص من نفوذ الأشراف . وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك فى أوربا . ومعنى هذا القضاء على نظام الاقطاع وإزالة بعض الفوارق التى كانت تفرق بين الطبقات فى أوربا . ومن أهم المدن التى نشأت فى ذلك الوقت مدن ايطاليا المستقلة . وكانت هذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت الى

أوربا كثيراً من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية

٣ - اختلط الغربيون بمدنية أرقى من مدنيتهم ، فتعلموا منها أشياء كثيرة لطفت من خشونتهم وهذبت أخلاقهم . وقد أدى اتصال المسيحيين بالمسلمين الى تخفيف حدة التعصب الديني الذي ينشأ عادة من جهل الناس بأحوال الشعوب الأخرى . وقد أدى هذا الاتصال أيضا الى تسرب علوم المسلمين الى أوربا وانتشارها هنالك بالتدريج ، حتى نشطت أفكار الاوربيين من عقالها ونفضت عنها غبار العصور الوسطى . وما زالت هذه الحركة الفكرية تنمو حتى أخذت شكلها النهائي فى النهضة الاوربية

٤ - بدأ اهتمام الناس بأخبار الرحلات والاستكشافات وذلك على أثر ما حمله الصليبيون الى بلادهم من حوادث وأخبار البلاد التي زاروها . وكانت نتيجة ذلك أن ظهر الرحالة « مركو بولو Marco Polo » فى القرن الثالث عشر . وهذه الرحلات مهدت الطريق لظهور « خرستوف كلمب » فى المستقبل

٥ - علمت شعوب أوربا وملوكها الاتحاد من أجل غرض واحد

٦ - قويت مركز البابا فى نزاعه مع الامبراطور

٧ - نشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقاً تجارية بين الغرب والشرق ، فزادت ثروة الحكومة والاهالى زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شاده سلاطين المماليك من الآثار . وبقي الأمر كذلك الى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق الى الغرب

الفصل الثامن

ضعف البابوية فى اوربا

كانت فى قيام الحروب الصليبية لدليلاً محسوساً على ما كان للبابا من القوة والنفوذ فى أوربا فى العصور الوسطى . وان تأسيس الامارات الصليبية فى سوريا وفلسطين واتصال الصليبيين فيها بالكنيسة اللاتينية فى روما بعد الحملة الاولى جعل للبابا فى أوربا مركزاً متفوقاً، بلغ منتهى قوته عندما أقام الصليبيون كنيسة لاتينية فى القسطنطينية من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ . غير أننا إذا دققنا النظر وجدنا أن هذا التفوق لم يكن حقيقياً. ولذلك فقد بدأ يضعف فى القرن الثالث عشر . فقوة الشعور الديني التى ظهرت فى الحروب الصليبية الأولى لم يعد لها اثر يذكر فى الحرب الرابعة وما تلاها .

ويمكن فهم أسباب ضعف البابوية بعد القرن الثالث عشر اذا عرفنا أهم الاسباب التى ساعدت على تقويتها فى العصور الوسطى .

تقوى مركز الكنيسة فى العصور الوسطى لضعف الملوك والسلطات المركزية ولتفشى نظام الإقطاع بما ينطوى عليه هذا النظام من اضطراب الأمن وانتشار الحروب الفردية والداخلية . ولاحتكار رجال الدين لكل وظائف الحكومة ولاعتماد عليهم فى كل شىء، لانهم كانوا وحدهم المتعلمين فى العصور الوسطى .

ولكن لما جاء القرن الثالث عشر كان الملوك قد نجحوا فى تكوين

حكومات قوية ، وفى اخضاع الاشراف والمدن ، وفى القضاء على نظام الاقطاع تدريجياً ، وكان قد صير من غير رجال الدين رجال وثق بهم الملوك فعينوهم فى الوظائف واستعانوا بهم على تحقيق اغراضهم . واهم من ذلك كله تمكن الملوك من كسب الشعوب الى جانبهم ، فاصبحت الشعوب أهم عضد لهم فى مناوأة الكنيسة

ولما شعر الملوك بقوتهم انكروا على السلطة الدينية تدخلها فى شئونهم الداخلية والسياسية . ولم يقبلوا أوامر البابا او يكترثوا بتهديداته كما كانوا يفعلون سابقاً . وعلى ذلك قام نزاع ثانياً بين السلطتين فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر كما قام فى القرن الحادى عشر بين غريغورى السابع وهنرى الرابع ، ولكن فى حين ان الاول كان من أجل تقييد رجال الدين بالوظائف كان النزاع الثانى من أجل فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها ، فرفضت الكنيسة ذلك واعتمدت على أن الأرضى موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يأخذ الملك عنها ضرائب . أما الملوك فانهم لما اشتدت حاجتهم للمال بسبب كثرة مصاريفهم طمعوا فى ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا فى فرض الضرائب عليها .

وأول ما ظهر هذا الكفاح بين السلطتين كان بين البابا « بونيفاس الثامن Boniface VIII » من سنة ١٢٩٤ الى سنة ١٣٠٣ وبين الملك « فليب الرابع » (١٢٨٦ — ١٣١٤) ملك فرنسا رغم ما كان بينهما من العلاقات الودية ، وكانت فرنسا المنزلة الأولى فى اوربا بعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن وضعف الامبراطورية

وكان البابا بونيفاس الثامن — من آخر الباباوات العظام الذين ظهروا فى العصر الوسيط — شيخاً طاعناً فى السن شديد المراس متمسكا بحقوق البابوية كما وضعها جريجورى السابع وكما شرعها ونفذها إنسنت الثالث، ولكن لم تكن له من القوة فى هذا الكفاح مثل ما كان لهما أمام فيليب الرابع ملك فرنسا فهو الذى قيل عنه أنه كان يساعده رجال القانون ويحضونه على التشبه بأباطرة الرومان، وقد فرض ضريبة ثقيلة على رجال الدين، فأصدر البابا سنة ١٢٩٦ قانوناً يقضى بعدم دفع ضرائب لأنه سلطة زمنية ويهدد بالحرمان كل من يقبل دفع هذه الضريبة من رجال الدين وكل من يجبر من رجال السلطة السياسية على أخذها

وعلى ذلك بدأ الكفاح بين البابا والملك. واعتمد الملك على تعضيد الشعب له فأصدر قراراً بتحريم تصدير الذهب والفضة الى الخارج، والغرض من ذلك حرمان الكنيسة من الأموال التى كانت تجبيها من فرنسا، فتخوف البابا وسعى فى الصلح سنة ١٣٠٠

إلا أن فليب صمم على عقاب البابا واظهار تفوقه عليه فجمع فى سنة ١٣٠٢ مجلس طبقات الأمة. دعا اليه ممثلين للمدن وللشعب زيادة على ممثلى الأشراف ورجال الدين. فقرر المجلس أن ليس للبابا سلطة فى فرنسا إلا فى الشئون الدينية وأنه لا رئيس للملك إلا الله، وأقسم نواب الطبقات أنهم يحاربون من أجل الملك ويضحون كل شىء فى سبيل تأييده

وبينما البابا يستعد لاصدار قرار بعزل الملك، أرسل هذا اليه قوة قبضت عليه فى بلدة « أنيي Anagni » فى إيطاليا، وقام أهل المدينة وخلصوه فدخل البابا رومة ولكنه مات حزيناً سنة ١٣٠٣. وتعتبر

حدثة « أناني » نقاماً لحادثتي كانوسا والبندقية ، ويجب أن لا يفوتنا أن تفوق البابا الديني كان معترفاً به ، ولكن وجه النزاع كان بشأن تدخل البابا فى الشئون الداخلية والسياسية .

بونيفاس وملك انجلترا

كذلك قام النزاع بين « بونيفاس الثامن Boniface VIII » وادوارد الأول ملك انجلترا للسبب نفسه . فجمع الملك البرلمان سنة ١٣٠١ وتقرر أن ليس للبابا حق التدخل فى الشئون الداخلية . وامتنعت انجلترا بعد ذلك عن تقديم المنحة التي تقيد بدفعها الملك يوحنا مع البابا أنسنت الثالث . ويعتبر بونيفاس الثامن آخر العظماء من باباوات العصور الوسطى ، ومن بعده لم تعد للكنيسة قوتها الأولى

الاسر البابلي

واختلف الكرادلة فى انتخاب خلف « لبونيفاس الثامن » وانقسموا إلى حزبين : حزب يؤيد ملك فرنسا وهو الحزب القوى وحزب ضعيف يحمد ما فعله البابا بونيفاس الثامن ، وقد تغلب الحزب الفرنسي نهائياً ، بعد أن بقى كرسى البابوية خالياً مدة سنتين . وانتخب « كلمنت الخامس » وهو فرنسي يعضده ملك فرنسا ، وكان أسقفاً « لبردو » فى فرنسا ، لذلك اختار البابا الجديد أن يتخذ مقره فى « أفيون » قرب نهر الرون فى مقاطعة « بروفانس » ليكون قريباً من ملك فرنسا . واستمر الباباوات فى « افيون » إلى سنة ١٣٧٧ وتعرف هذه المدة بمدة « الاسر البابلى » تشبيهاً لها بما لحق اليهود قديماً لما أخرجوا من ديارهم واسروا فى بابل وعادوا بعد مدة . ومدة الأسر البابلى سبعون سنة وكان الباباوات فى هذه المدة خادمين لمصالح فرنسا منقدين لسياسة ملكها ، وانتهزت بعض الحكومات هذه الفرصة واعلنت استقلال ملوكها عن البابوية وقلت

موارد الثروة لدى البابوات، فلجئوا إلى جمع الأموال بطرق أثارت انتقادات الناس كبيع الوظائف وبيع صكوك الغفران الخ . وشيد البابوات قصراً فخماً لهم في «أفيون» وعاشوا معيشة البذخ والتنعم وإن كانوا على العموم رجالا أقوياء صالحين حسنى الأخلاق

وأخيراً سادت الفوضى في ممتلكات البابوية في إيطاليا وخصوصاً في رومة نفسها . فتأثر البابا «غريغوري الحادي عشر» وقرر العودة إلى رومة سنة ١٣٧٧ . وسرعان ما بدأ عهد الانقسام العظيم الذي استمر نحو أربعين سنة (١٣٧٨ – ١٤١٥) وهو أن العالم المسيحي في غرب أوربا انقسم إلى قسمين على كل قسم بابا يدعى أنه صاحب الحق الشرعي وأنه يستمد سلطانه من الرسول بطرس

الانقسام العظيم

وتعرضت البابوية لانتقادات شديدة بسبب هذا الانقسام وقلت هيبتها في نظر القوم . وأصبح المسيحيون في حيرة أمام البابوية واشتغلت الجامعات ببحث الموضوع واقتراح الحلول التي قد تؤدي الى علاج حاسم . وبدأ الناس يفكرون في صلاح الكنيسة

ويكلف Wyclif ١٣٢٠ — ١٣٨٤

أول الذين نادوا بالإصلاح في القرون الوسطى « ويكلف » الذي ولد سنة ١٣٢٠ ، وبينما كان أستاذاً في جامعة اكسفورد طلب البابا المنحة المفروضة على انجلترا ، فكتب « ويكلف » معارضاً له . ثم تدرج من ذلك وأعلن حق السلطة الزمنية في ممتلكات الكنيسة إذا ساءت الكنيسة إدارة هذه الممتلكات ، ثم أعلن أن ليس للبابا قدرة إلا في حدود

الكتب المقدسة ، وأخذ يطعن فى البابوية وادعاءاتها وبطمها والاساليب التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . وكان «ويكلف» يعظ بالامة الانجليزية وتهم باثارة الفتن والتحريض على الثورة ومات سنة ١٣٨٤

وسرعان ما انتشرت آراؤه فى أوربا وخصوصاً فى بوهيميا حيث كانت الصلات بينها وبين انجلترا ودية ، فقام «يوحنا هوس» من جامعة براغ ونشر آراء ويكلف

يوحنا هوس John Huss

ولد يوحنا هوس سنة ١٣٦٩ وكان فى جامعة براغ (عاصمة بوهيميا) حين انتشرت آراء وكتابات «ويكلف» ، فأعلن أنه لا يحق للانسان أن يطيع أوامر أناس مثقلين بالذنوب والخطايا تخشيت السلطة الدينية والسلطة السياسية انتشار أفكاره

مجلس الدينه

ويعتبر « ويكلف » و « هوس » رسل حركة الاصلاح الدينى التى بدأت فى أوربا فى عصر النهضة . ولما اشتد انتقاد الكنيسة والبابوية اقترحت جامعة باريس أن يعقد مجلس دينى عام تكون سلطته وارادته فوق ارادة البابا ويترك لهذا المجلس علاج الحال . وأخيراً تغلبت فكرة دعوة المجلس وبدأت الحركة المعروفة بحركة « المجالس الدينية » Conciliar movement

مجلس بيزا

عقد أول مجلس فى بيزا سنة ١٤٠٩ باتفاق الجانبين — الجانب الرومانى والجانب الفرنسى — ولما لم يحضر البابوان قرر المجلس عزلهما وانتخب بابا جديداً فأضاف مجلس ثالثاً . لأن الآخرين لم يقبلا

أن ينزلا عن كرسي البابويه، وعلى ذلك انفض المجلس بعد أن زادت المسألة تعقداً وقر الرأى على اجتماع مجلس آخر

مجلس كنستانس سنة ١٤١٤

لما كانت نتيجة مجلس «بيزا» زيادة تعقيد المسألة قر الرأى على اجتماع مجلس آخر فى «كنستانس» سنة ١٤١٤ . ويعتبر مؤتمر «كنستانس» هذا من أهم المؤتمرات الدولية فى العصور الوسطى، استمر منعقداً ثلاث سنوات وحضره الامبراطور «سجزمند Sigismund» والكرادلة والأساقفة ورؤساء الأديرة من كل أنحاء أوربا، وحضره البابا الرومانى أولا ولكنه عاد فرجع الى رومة

وأهم المسائل التى نظر فيها المجلس هى:

١ — علاج الانقسام داخل الكنيسة وتوحيد البابوية

٢ — القضاء على فكرة الالحاد والنظر فى قضية يوحنا هوس

٣ — النظر فى اصلاح الكنيسة إصلاحاً عاماً

توحيد البابوية

أعلن المجلس فى أول أمره تفوقه على البابا وعزل البابا الرومانى ثم استقال البابا الذى تعين فى مجلس «بيزا» ولم يبق إلا البابا الفرنسى فى «أفينون» وهو «بندكت الثالث عشر Benedict XIII» فأبى أن يستقيل معتمداً على قوة الفرنسيين والاسبان . ولكن الفرنسيين انفضوا من حوله لرغبتهم فى علاج الحالة ولم يبق معه غير الاسبان فقرر المجلس عزله سنة ١٤١٧ . وانتخب بابا جديداً وهو «مارتن الخامس Martin V»

وبذلك انتهى الانقسام العظيم

محاكمة هوس

ثم نظر المجلس فى قضية يوحنا هوس . وكان الامبراطور قد أعطاه الأمن للحضور أمام المجلس فى «كنستانس» — وحاول أن يقنعه

بعدم التشبث بآرائه فلم يفلح . وقصر المجلس بحثه في القضية على المسألة الآتية : وهي أنه إذا كانت الآراء التي أبداها هوس في كتاباته توفق مصلحة وآراء الكنيسة كان بها ونجا من العقاب . وأما إذا كانت تخالف تعاليم الكنيسة فيجب عقابه . ولما كان الحل ظاهراً وهو أن الكتابات تخالف آراء الكنيسة إذ ذاك ، وإلا فلم يكن من داع لكتابتها . رأى المجلس نفسه مضطراً إلى إثبات إدانته في حين أنه كان يريد به خيراً .

حرق هوس

فلما ظهرت إدانته المجلس قبض عليه سنة ١٤١٤ ثم تسلمته السلطة المدنية وحرقته سنة ١٤١٥ . وكان ذلك على غير رغبة الامبراطور ولكنه لم يجد سبيلا لحمايته . ولم يقدر أن يفوه ببنت شفة في هذا الموضوع خشية أن يتهم بالالحاد . ولم يكن لحرق هوس من نتيجة سوى تقوية حركة الالحاد في بوهيميا

مسألة الاصلاح

أما المسألة الثالثة التي نظر فيها المجلس وهي مسألة الاصلاح فقد اقترحت إصلاحات عدة تناقش فيها المجلس مدة طويلة ولكنه لم يتخذ أي قرار نهائي بشأنها . وكل ما أثبته أن سبب الفساد في الكنيسة يرجع إلى إهمال البابا استدعاء المجلس الديني . وعلى ذلك اقترح المجلس لزوم عقد مجلس ديني مرة في كل عشر سنوات على الأقل

ويمكن القول بوجه عام ان مجلس « كنستانس » لم ينجح إلا في مسألة واحدة وهي علاج الانقسام وتوحيد البابوية

بعد ذلك عقدت مجالس دينية كثيرة لم تقم بعمل يذكر . وما لبثت النهضة أن جاءت وظهرت حركة الاصلاح الديني في أوربا

الفصل التاسع

فرنسا وانجلترا

فى نهاية العصر الوسيط

حرب المائة السنة

هى عبارة عن عدة حروب متقطعة تخللها فترات طويلة ، قامت بين انجلترا وفرنسا واستمرت من سنة ١٣٣٨ الى سنة ١٤٣٥

والسبب فى قيام هذه الحروب مسألة مهمة هى : هل يسمح لملك انجلترا بعد أن فقد نورمندية وانجو سنة ١٢١٤ ان يملك بواتو واكتين وغسقونية . وبذلك يعرقل مساعى ملك فرنسا فى سبيل توحيد مملكته سياسيا .

ولما كان ملوك انجلترا متمسكين بحقوقهم فى هذه الأقاليم لم تكن ثمة مندوحة عن قيام الحرب . اذ صمم ملوك فرنسا على نشر سلطانهم على جميع هذه البلاد . وكان من الطبيعى أن تنتهى الحرب بإحدى النتيجتين الآتيتين : اما أن ملك انجلترا ينجح فى اخضاع فرنسا واعلان نفسه ملكا عليها ، أو أن ملك فرنسا يتمكن من طرد الانجليز نهائيا ويضم أملاكهم الى فرنسا . ومما يسهل فهم هذه الحروب بيان ملوك فرنسا وانجلترا فى أثنائها . أما ملوك فرنسا فهم :

فليب السادس ١٣٢٨ — ١٣٥٠

يوحنا ١٣٥٠ — ١٣٦٤

شارل الخامس ١٣٦٤ — ١٣٨٠

شارل السادس ١٣٨٠ — ١٤٢٢

شارل السابع ١٤٢٢ — ١٤٦١

وأما ملوك انجلترا فهم :

ادوارد الثالث ١٣٢٧ — ١٣٧٧

رتشارد الثانى ١٣٧٧ — ١٣٩٩

هنرى الرابع ١٣٩٩ — ١٤١٣

هنرى الخامس ١٤١٣ — ١٤٢٢

هنرى السادس ١٤٢٢ — ١٤٦١

بوادر النزاع

ظهرت بوادر النزاع بين انجلترا وفرنسا على أثر انقراض أسرة هيوكابت — الاسرة الحاكمة فى فرنسا — سنة ١٣٢٨ بموت الابن الثالث لفليب الرابع . وبادعاء ادوارد الثالث ملك انجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا بما أن والدته هى ابنة فليب الرابع . غير أن علماء القانون فى فرنسا لما رأوا مطامع ملك انجلترا أعلنوا أنه — حسب التقاليد الفرنجية القديمة — لا يجوز لسيدة أو لوارثها اعتلاء عرش فرنسا . وعلى ذلك انتخب فليب السادس أول ملوك أسرة « فلوا » « ...... » ملكا على فرنسا وأصبح نجاح ادوارد الثالث بعيد الوقوع

وفى أول الأمر لم ير الملك ادوارد الثالث بداً من قبول الحالة . ولكن سرعان ما قام النزاع بسبب الحادثة الآتية

قام النزاع بين مدن فلندره وبين ملك فرنسا إذ حاولت هذه المدن الاستقلال عن ملك فرنسا فكبح جماح هذه الحركة. وكانت هذه المدن من أغنى مدن أوربا في العصور الوسطى لاشتهارها بالمنسوجات الصوفية. وكانت علاقتها بانجلترا متينة بسبب الروابط التجارية التى كانت تربط الفريقين. إذ كانت انجلترا تصدر أحسن الاصواف التى كانت تعتمد هذه المدن عليها في منسوجاتها. لذلك لما أعلن ادوارد الثالث حقه في تاج فرنسا انحازت مدن فلندره إلى جانبه

مدن فلندره

وفى سنة ١٣٣٦ أمر حاكم الفلندره بسجن كل التجار الانجليز الموجودين في بلاده. وأجاب ادوارد الثالث بمنع تصدير الصوف ومنع استيراد المنسوجات الصوفية رغبة في شل الحركة التجارية. وفى الوقت نفسه سعى في حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى بلاده وأسكنهم في إقليم «نورفك» وبدأت تظهر صناعة الاصواف في تلك الاقاليم. وكانت السفن الانجليزية تعمل في البحار للاحتفاظ بسيادة الانجليز على البحر بين فرنسا وانجلترا

مقاطعة تجارية

هذه هى مقدمات حرب المائة السنة التى لم تبدأ في فرنسا حتى سنة ١٣٤٦، إذ هاجم ادوارد الثالث ساحل نورمنديه وتوغل في الداخل حتى اقترب من باريس ثم عاد وقابل الفرنسيين في وقعة «كريسى» حيث انتصر الانجليز. ولهذه الوقعة أهمية في التاريخ إذ ظهر للعالم أن الصفوف المتراصة من المشاة، إذا عمت بالاتحاد وأحكمت استعمال الاقواس والنشاب، أمكنها أن تنتصر على الفرسان بسهولة. وعلى أثر هذه الموقعة أخذ الانجليز «كاليه» وبقيت في قبضتهم مدة قرنين من الزمن

موقعة كريسى

وقد اضطر الجانبان الى الكف عن القتال بسبب انتشار الطاعون المعروف بالموت الأسود الذى اجتاح أوروبا كلها ١٣٤٨ - ١٣٤٩ وأفنى نصف السكان تقريباً

موت الأسود

ثم تقابل الانجليز مع الفرنسيين فى حرب حربى سنة ١٣٥٦ فانتصر الامير ادوارد الملقب بالامير الاسود (ابن ادوارد الثالث) فى واقعة «بواتييه Poitiers» وفيها ظهر الانجليز مهارة فى استعمال الاقواس والنشاب وأخذ يوحنا ملك فرنسا أسيراً الى لندن. ولكن كل هذه الانتصارات لم تكن حاسمة واضطر ادوارد الثالث فى النهاية الى عقد معاهدة «برتينى Brétigny» سنة ١٣٦٠. وبمقتضاها نزل ادوارد الثالث عن حقه فى تاج فرنسا وعن حقوقه فى نورمنديه. وفى مقابل ذلك أخذ ادوارد «بواتو وغيين وغسقونيا وكاليه». وتبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا تقريباً، يحكمها من غير الاعتراف بسيادة فرنسا عليها

بواتييه ١٣٦٠

معاهدة برتينى ١٣٦

الا أن هذه المعاهدة لم تبق نافذة المفعول مدة طويلة عن «الامير الاسود» الذى حكم الاقاليم الجنوبية نيابة عن والده اشتد فى معاملة الاهالى الذين كانوا يفضلون الحكم الفرنسى بطبيعة الحال على الحكم الانجليزى، فقاموا بالثورة ضد الانجليز وشجعهم على ذلك مرض «الامير الاسود» وموته وضعف ادوارد الثالث فى شيخوخته. وتمكن ملك فرنسا «شارل الخامس» (١٣٦٤ — ١٣٨٠) من استرداد الاقاليم التى أخذها الانجليز بالتدريج ولم يبق لهؤلاء بعد موت ادوارد الثالث سنة ١٣٧٧ من الممتلكات فى فرنسا سوى «كاليه» واقليم صغير حول «بردو»

بعد هذا وقفت الحرب بين فرنسا وبين انجلترا بسبب سوء الحالة

الاقتصادية والاجتماعية فى المملكتين ، ففى فرنسا التى كانت ميدانا لهذه الحروب تعطلت الزراعة والصناعة والتجارة وانتشر الجنود وعاشوا بالنهب من مهاجمة البلاد

أثر الحرب في انجلترا

أما فى انجلترا فانه لما فنيت الايدى العاملة بسبب الموت الاسود الآنف الذكر واحتاج الاشراف الى عمال يعملون فى ضياعهم ومزارعهم ، ارتفعت أجور العمال لدرجة جعلت هؤلاء الاشراف يلجؤون الى الحكومة

ثورة الفلاحين ١٣٨١

فأصدرت هذه قانونا يهدد بالسجن من يأبى قبول الاجور القديمة ، فتذمر رقيق الاراضى وقام الفلاحون بثورة سنة ١٣٨١ واجتمع منهم نحو مائة ألف فى جنوب وغرب انجلترا ، وهاجموا قصور الاشراف وحرقوها ودمروها وأبادوا سجلات عبوديتهم . وفتحت لهم «لندرة» الابواب فدخلوها وطلبوا مقابلة الملك الصغير «رتشارد الثانى» . فقابلهم ووعدهم بالغاء الرق فتفرقوا . وتمكن الاشراف من الانتقام من زعماء الحركة انتقاما مريعا

وفى سنة ١٣٩٦ اغتصب هنرى الرابع العرش من رتشارد الثانى فأراد هنرى الخامس ابن هنرى الرابع أن يقوى مركز أسرته فى انجلترا

أجنكورت ١٤١٥

ويستميل اليه الناس بواسطة الحرب ضد فرنسا . فأعلن حقه فى تاجها سنة ١٤١٤ وهاجمها فى السنة التالية وانتصر على الفرنسيين فى واقعة « أجنكورت Agincourt » بالقرب من «كرسى» . وكانت الحالة فى فرنسا

الحالة في فرنسا

سيئة للغاية لأن شارل السادس كانت قواه العقلية ضعيفة ، فقام النزاع بين كبار الاشراف فى فرنسا كل يحاول الاستئثار بالسلطة . وكان أهم هؤلاء الاشراف « دوق برغندية » الذى حاول انشاء دولة مستقلة بين

فرنسا وألمانيا و « دوق ارلينز » .

وفى هذه الظروف العصيبة ضطرت الحكومة الى عقد معاهدة « تروى Troves » سنة ١٤٢٠ التى تقرر فيها أن يكون هنرى الخامس نائبا عن الملك فى فرنسا وأن يتوج ملكا عليها بعد موت شارل السادس. غير أنه في سنة ١٤٢٢ مات الاثنان وترك هنرى الخامس بعده ابنه هنرى السادس وعمره بضعة أشهر فعين « دوق بدفورد Bedford » وصياً على الملك فأحسن القوامة عليه وواصل الانتصار على فرنسا وعساعيه أعلن هنرى السادس ملكا على شمالها الى نهر اللوار حتى أسقط في يد ولى العهد — الدوفن Dauphin — الذى لم يجرؤ على تتويج نفسه ملكا . وكان ولى العهد « شارل السابع » خاملا بليداً لم يحاول توحيد الصفوف الفرنسية وبث العاطفة الوطنية والحماسة الحربية ضد الانجليز،



شارل السابع

فقوى مركز هنرى السادس فى فرنسا ولا سيما حين انضمت الى جانبه برغندية بعد أن قتل دوقها في وليمة أولمها « لدوفن » — وكانت برغندية من أغنى وأقوى مقاطعات فرنسا — واستطاع الانجليز أن يحاصروا « أورليان » ، وتعتبر أورليان مفتحاً لجنوب فرنسا

وبينما المدينة مشرفة على التسليم جاء المدد الى فرنسا من ناحية لم تكن فى الحسبان . ففى وسط هذا الانخذال والانهزام ظهرت في شرق

جان دارك

فرنسا فتاة قروية اسمها « جان دارك Jeanne D'Arc » أعلنت للناس انها سمعت مناديا يناديها بأن تقوم وتحارب على رأس الجيش الفرنسي، فتطرد الانجليز من فرنسا وتأخذ بيد ولي العهد فتتوجه ملكا على فرنسا في كنيسة « ريم »

وقالت أن مصدر هذه الرسالة سر الهي . وأنها مدفوعة بقوة الهية لتنفيذ مهمتها فاستخف الناس بدعوتها في أول الأمر، ولكنها نجحت في مقابلة ولي العهد « لدوفن » وأجابها الى طلبتها . وكان مجرد وجود جان دارك ، تلك الفتاة القروية المخلصة ، في وسط الجنود الفرنسية كافيا لتحميسهم وتوليد روح جديد لا عهد للفرنسيين به من قبل روح الاستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن أرض فرنسا .

فسار الجيش الفرنسي وعلى رأسه جان دارك مرتدية ملابس الرجال وبفضل ما أظهره الفرنسيون من الشجاعة هزم الإنجليز في سنة ١٤٢٩ ورفعوا الحصار عن « أورليان » وبعد ذلك حققت نبوءتها وتوج لدوفن في كنيسة ريم « ملكا على فرنسا في السنة نفسها . وأرادت أن تعود الى قريتها ولكن الملك ألح في لزوم بقائها في الجيش حتى يتم طرد الانجليز فبقيت جان دارك ودبت في نفوس القواد

جان دارك

عوامل الحسد والغيرة . فتركوها تقع أسيرة في أيدي البرغنديين سنة ١٤٣٠ أثناء حصار « كومبيين » وباعها البرغنديون لحلفائهم الانجليز الذين لم يعاملوها

كأسيرة، باعها لوها كساحرة مجددة وكونوا محكمة دينية حاكمتها فحكمت عليها بالحرق سنة ١٤٣١ ونفذ الحكم في مدينة «روان»

طرد الانجليز

بعد ذلك مات دوق بدفورد وانحاز البرغنديون الى جانب فرنسا في نفس السنة. وكان ذلك من أقوى العوامل التى ساعدت الفرنسيين على طرد الانجليز سنة ١٤٥٣ فلم يبق لهم إلا «كاليه». وتم بذلك توحيد فرنسا سياسياً وبدأ ملوكها يثبتون عرشهم ويقوون سلطانهم فى البلاد، حتى أصبحت فرنسا من أقوى الممالك فى أوربا إذ استطاع لويس الحادى عشر (١٤٦١ ١٤٨٣) ومن بعده شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨)، أن يحتفظوا بجيش دائم ويوطدوا السلطة الملكية الاستبدادية.

حروب

وقد نجح لويس الحادى عشر فى ضم دوقية برغندية وبروفانس الى التاج الفرنسى، حتى لم يبق من الدوقيات المهمة سوى برطانية وهذه ضمها شارل الثامن سنة ١٤٩١ بزواجه من وارثها. فأصبحت فرنسا كتلة واحدة فى وسعها أن تشرع فى غزو جيرانها الضعفاء. ولم يتأخر شارل الثامن عن غزو ايطاليا سنة ١٤٩٤. وبدخول هذه الحملة فى ايطاليا سرت روح النهضة الحديثة الى الفرنسيين فخرجوا من العصور الوسطى

حرب الوردتين

أما فى انجلترا فقامت حروب داخلية بين الاحزاب المختلفة من الأشراف تعرف «بحروب الوردتين» نسبة الى الوردة الحمراء التى كانت شارة أسرة «لنكستر» والوردة البيضاء التى كانت رمز أسرة «يورك»، وكانت كل من الاسرتين تدعى انها أحق بالملك من منافستها.

وبدأ النزاع حين ثار دوق يورك على الملك هنرى السادس وطرده. وتوج نفسه سنة ١٤٦١ باسم أدوارد الرابع (١٤٦١ — ١٤٨٣) وبقى

النزاع مستمراً حتى مات أدوارد الرابع وخلفه ابنه ادوارد الخامس فى الثانية عشرة من عمره، وقام بالوصاية عليه عمه «دوق جلستر» الذى زج به وبأخيه وأقاربه فى السجن، واعتلى العرش باسم رتشارد الثالث (١٤٨٣ — ١٤٨٥) ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابنى أخيه فى السجن، فسخط عليه الشعب وقام «دوق رتشمند» من سلالة أدورد الثالث من أسرة لنكستر

أسرة تيودور

وحارب رتشارد و نتصر عليه فى واقعة «بزورث» Bosworth سنة ١٤٨٥ وقتل رتشارد فى لمعركة وأعلن رتشمند ملكا على نجلترا باسم «هنرى السابع» فوضع بذلك أساس حكم «أسرة تيودور» فى انجلترا. وحسم النزاع بتزوجه من «اليصابات» وريثة أسرة يورك

وتولى أسرة «تيودور» بدأت عوامل النهضة تظهر فى انجلترا و دأ تاريخها الحديث

الفصل العاشر

الدولة العربية فى الاندلس

كان لفتح العرب أسبانيا أثر عظيم فى تقدم حالة البلاد الاجتماعية إذ أزال الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات وقضى على امتيازات الأشراف ورجال الدين، وحرر رقيق الأراضى اذا هم اعتنقوا الاسلام وأعطى الذين بقوا فى المسيحية حق الشكوى من أسيادهم. وأوجد فى البلاد حكومة مستنيرة تجبى الضرائب من الجميع على السواء وتعمل لمصلحة الجميع وترك العرب للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم وحريتهم التامة واكتفوا منهم بدفع الجزية يقدرونها حسب ثروة الافراد. أما اليهود فقد رفع عنهم الاضطهاد وأصبحوا أحراراً فى عقائدهم والقيام بشئونهم الخاصة. وما لبث الاطمئنان أن دب الى نفوس المسيحيين فى اسبانيا وفضلوا الحكم العربى على الحكم القوطى

لما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك عامليه موسى بن نصير وطارق بن زياد، أصبح حكم البلاد بيد عبد العزيز بن موسى بن نصير فأظهر كفاءة عظيمة وعين مجلساً خاصاً للنظر فى وضع القوانين والتوفيق بين مصالح القبائل المختلفة من العرب وأهمها الحميرية والعراقية والشامية. وشجعهم على الاختلاط والتصاهر مع المسيحيين وبدأ هو بتزوج أرملة «لزريق» ولما كان كثير من العرب الذين نزلوا باسبانيا قد باشروا الصناعة والزراعة والتجارة بمصر والشام، كان أول همهم فى اسبانيا

موجهاً الى اصلاح الاراضي والعناية بزراعة. فاستثمروا أراضيها الخصبة واستدروا خيراتها الكثيرة، فانتعشت البلاد بعد قليل من الزمن وأصبحت الأندلس من أحسن بلاد العالم وأرقاها من جميع الوجوه

ولما قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أخذ أمراء أفريقية الذين كان مركزهم «القيروان» يعينون حكاماً للأندلس من قبلهم، واستمر الحال كذلك حتى أرسل عمر بن عبدالعزيز حاكماً من قبله وهو «السمح بن مالك الخولاني» الذي قاد العرب شمالا ففتح «أربونه» على الساحل الشرقي بعد أن عبر جبال البرانس ودخل مقاطعة «اكيتين» ووصل الى «طولوشه»، وهناك قابله الفرنجة واشتبك معهم في واقعة قتل فيها سنة ٧٢١ م، وتعرف هذه الوقعة عند العرب باسم «بلاط الشهداء». وعلى أثرها تقهقر العرب جنوباً وحصنوا «أربونة» فأصبحت مركزاً حربياً بحريا وقاعدة فتوحاتهم في البحر الابيض المتوسط

عبد الرحمن الغافقي

هو من أهم الحكام الذين عينهم خلفاء الامويون على اسبانيا وأعظمهم كفاءة. كان محبوباً لدى الجند حازماً عادلا. وطد النظام والطمأنينة بالبلاد، واستطاع بحكمته أن يوفق بين المصريين والحميريين

موقعة تورز ٧٣٢م

وسار عبد الرحمن بجيشه شمالا فاحتل «بردو» وهزم دوق اكيتين، ودخل برغندية واحتل «ليون» ثم سار شمالا واحتل نهر اللوار الواقعة عليه عاصمة الفرنجة. فقابلوه بين «تور» و«بواتييه» واستمرت المعركة بضعة

أيم كانت نتيجتها قتل عبد الرحمن وانهزام العرب سنة ٧٣٢ . وكان يقود الفرنجة «شارل مرتل» ويعزى هذا الانهزام للأسباب الآتية :

(١) أن العرب تركوا حاميات عديدة في المدن والحصون التي فتحوها في طريقهم الى الشمال فأضعف ذلك من قوة الجيش

(٢) أن العرب كانوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ولم يطيقوا صبراً على إهمالها بل فضلوا المحافظة عليها على الحرب . وكان همهم بها من أشد أسباب انهزامهم

(٣) أن الفرنجة كانوا أكثر عدداً وقد انضم اليهم الالمان من الاقاليم المجاورة

(٤) وقوع النفور بين العرب والبربر

وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة في التاريخ لانها أوقفت العرب عند حد لم يتعدوه، إذ لو نجحوا في هذه الموقعة لوقع غرب أوربا تحت حكمهم وكانت نتيجة واقعة تور ان الفرنجة فطنوا للخطر الداهم من ناحية العرب في أسبانيا . فأوثقوا علاقتهم مع المباردين ومع الامارات المسيحية في شرق اسبانيا وزال الخوف من غزو الفرنجة، وتركوا العرب يتطاحنون الى أن تتضعضع قوتهم

ولما انتقل الملك من الامويين الى العباسيين أخذ الخلفاء يتقصون الامويين ويشردونهم ، فأفلت منهم عبد الرحمن الملقب « الداخل » وهو بن معاويه بن هشام بن عبد الملك بن مروان هرب الى مصر ومنها الي برقة ثم الى بلاد المغرب وخاطب جماعة من أنصار الامويين في أسبانيا فبثوا له الدعوة . ثم عبر البحر الى اسبانيا في خلافة أبي جعفر

المنصور العباسي فانتصر على « يوسف الفهري » الوالي العباسي في وقعة «موزاره» واستقل بالحكم فبايعه القوم سنة ٧٥٦

عبد الرحمن الداخل (٧٥٦ — ٧٨٧)

استقل في حكم أسبانيا سنة ٧٥٦ ميلادية أي بعد موقعة « الزاب » التي هزم فيها الامويون بست سنوات وأسس حكومة مستقلة عن مركز الخلافة ، وزاد في ... فقطع الخطبة عن العباسيين ولكنه لم يأخذ لنفسه لقب الخليفة بل تركه للعباسيين . وكذلك فعل من جاء بعده الى أن ضعف سلطان الخلافة العباسية

أعماله ولما ثبتت قدم عبد الرحمن الداخل الأموي بالأندلس أخذ في بناء المسجد والقصر في قرطبة . ووجد أن العرب والبربر يميلون الى الأخذ بنظام الاقطاع السائر في أوربا فيستقل كل منهم في مقاطعة ويتحدون وقت الخطر ، فأخذ عبد الرحمن يناهض هذه الحركة التي كانت في مصلحة الفرنجة في الشمال والذين بدأوا يزحفون جنوباً

وكان عبد الرحمن صادق النظر السياسي لطيف الطبع شديد الميل الى ما تنتجه الفنون والصنائع من الأعمال الجليلة وما تبتدعه العقول السليمة من الأشياء التي ترفع العقل وترقيه، وقد لقبه رعاياه « العادل »

ومات في سنة ٧٨٧، وخلفه ابنه « هشام » وكان حليماً محسناً فأحبته الرعية ، وخلفه ابنه « الحكم » سنة ٧٩٥ وكان قاسياً عنيف الطبع معتزلا عن الناس، وفي عهده تمكن شرلمان من أخذ برشلونة والجزء الشمالي من أسبانيا .

عبد الرحمن الاوسط ثم جاء « عبد الرحمن الأوسط » أو الثاني وفي عهده جاء النورمنديون وهاجموا

سواحل أسبانيا ودمروا الثغور والمدن فردوا خاسرين ، وفى عهده ظهر تفوق دولة العرب في الأندلس فى العلوم والفنون والآداب وجاء من بغداد «ذرياب» أحد المشهورين فى الموسيقى والغناء فوضع أساس الحركة الاندلسية الشهيرة فى الطرب والغناء والموسيقى ، وفى عهده أيضاً أصبح بلاط الملك مثالا ينسج على منواله من حيث الآداب والسلوك وظهرت الفروسية بأجلى مظاهرها فى اسبانيا ومنها نقلت الى اوربا

الادب و من

عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٩١٢ — ٩٦١

هو أكفأ من حكم أسبانيا من الامويين ، وجد بلاد الاندلس مضطربة فأخضع الثوار واحتل حصونهم ومدنهم وأصبح السيد المطاع في البلاد ودانت له الاندلس فى سائر جهاتها . ما عدا اقليمى « ليون » فى الشمال « وكتالونيا » فى الشمال الشرقى . وسرعان ما عادت الأندلس الى سابق مجدها وشوكتها . وهو أول من اتخذ لقب الخلافة لنفسه ولقب بأمير المؤمنين فى الأندلس وذلك على أثر ضعف الخلافة العباسية وتسلط موالى الاتراك فى بغداد . وظهر أمره فى أوربا وخافته الدول فأرسلت اليه سفراءها يخطبون وده ، وفى خلافته صارت مدينة قرطبة عاصمة الاندلس -- مركز العلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن وجاء الطلبة من جميع الاصقاع لحضور دروس جامعتها ، وشيد المبانى والقصور الفخرة . ومن قصوره العجيبة قصر « الروضة » ساق اليه المياه من أعلى الجبل . ومن منشآته أيضاً ضاحية الزهراء التى اتخذها داراً للملك وبنى

نهضة الاندلس العلمية

بها من المباني والقصور ما يقصر دونه الوصف [1]

ولما رأى عبد الرحمن أن أمراء العرب يحاولون الاستقلال عن خلافته وأنه لا يتمكن لا من دعيهم كثيراً أحد يدخل في خدمته عمالا من رقيق الأجانب من جنس الصقالبة ربّاهم تربية إسلامية وعهد إليهم بإدارة الأعمال وفي عهده استفحل أمر الفاطميين في شمال أفريقية وكان يريد أن يقضي على دولتهم لولا اشتغاله عن قوة حركات الامارات المسيحية في الشمال . ووصلت في عهده الزراعة والتجارة والصناعة إلى أعلى درجات الرقي في بلاد الأندلس

وجاء بعده ابنه الحكم الثاني وواصل خطة أبيه في كل شيء ومات سنة ٩٧٦ وبموته انتهت عظمة الدولة الأموية في الأندلس إذ ترك بعده ابنه هشام وهو ابن إحدى عشرة سنة وجعل الوصاية عليه لحاجب الدولة محمد بن عبد الله بن علي . وكان رجلا حازماً كثير الطمع قادراً . فأخذ مقاليد الأمور بيده وحجر الخليفة في قصره ولم يترك له عملا ما ومنع اتصال الشعب به وقام بدور يشبه دور حجاب القصر في دولة الفرنجة ، وقد قضى أغلب مدته يحارب الامارات المسيحية في اسبانيا فانتصر عليهم مراراً ولكنه عجز عن كسر شوكتهم . وتشبه محمد ابن علي بالخلفاء فلقب نفسه « المنصور » وذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ووضع إسمه كذلك على السكة . وجعل منصبه وراثياً في عائلته ومات سنة ١٠٠٢ بعد أن أدهش الاسبانيين والعالم بأعماله وجرأته ومقدرته

الحاجب

المنصور

---

(١) انظر في وصف قرطبة
تاريخ دوزي لأمصار قرطبة [illegible]
[illegible]

ويعد عهده من أزهر وأينع عصور الأندلس . ويفضل بعض المؤرخين عهده على عهد عبد الرحمن الناصر . وخلفه ابنه « عبد الملك » وواصل سياسة أبيه في الحكم . ولكن لسوء تقديره لأعمال أفراد هذه الأسرة كرهوا أن يفتات على حقوق صاحب الحق الشرعي . وكان النزاع بين الطبقات قد استحكم وقامت الثورة على أثر موت عبد الملك واستمرت مدة من الزمن اشتهر في أثنائها الحكام والأمراء العرب واستقلوا في مقاطعاتهم . وانتهى عهد خلفاء بني أمية وجاء عهد ملوك الطوائف

عبد الملك

ملوك الطوائف

انتهى عهد خلفاء بني أمية سنة ١٠٢٩ وجاء عهد ملوك الطوائف فظهر « بنو عباد » في اشبيلية و« بنو ذي النون » في طليطلة وصار عرب اسبانيا مقسمين إلى أكثر من عشر ممالك ، في كل منها أمير يدعى أن له حق السيادة على الآخرين فلا يفتأ كل منهم يغير على الآخر حتى حل بهم الدمار . على أن هؤلاء الملوك كانوا من أنصار العلم والأدب وعلى ذلك استمرت النهضة العلمية في البلاد على الرغم من ضعف الحالة السياسية . وقد اتضح تماماً أن مصير الاسبانيين إلى الفوز على العرب عاجلاً أو آجلا ، ولولا أن العرب استنجدوا بالبربر في شمال أفريقية لتمكن الاسبانيون من طردهم من اسبانيا في القرن الحادي عشر

انتصار الامراء الاسبانيين

وانتفع الاسبانيون بذلك الانقسام والضعف ، فأخذوا يحرضون الأمراء ضد بعضهم . وأول زعيم للاسبانيين في الشمال « سانكو » العظيم ٩٧٠ — ١٠٣٥ وهو ملك قشتالة ، ثم أخذ خلفاؤه يوسعون أملاكهم تدريجياً نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر « التاجه » . واتفق « الفنس

السادس » مع ابن عباد الثالث أمير شبيلية وأخذوا طيطله وهى من أقوى حصون العرب سنة ١٠٨٥ . ومن أهم لاسباب التى ساعدت ملوك قشتالة على النجاح اتحاد بعض أمراء العرب منهم ضد البعض الآخر ، وهذا يدل على أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها سبباً للحروب فى القرن الحادى عشر

دولة المرابطين أو الملثمين

فى أثناء تضعضع دولة المسلمين فى اسبانيا ظهر جماعة من البربر فى شمال افريقية يعرفون بالمرابطين نشروا سلطانهم من غمبيا الى الجزائر . ومؤسس هذه الامرة هو عبدالله بن تاشفين الذى بنى مدينة مراكش ، وأتم ملوكها يوسف بن تاشفين ، وكان تقياً سياسياً قوى العزيمة دانت له بلاد المغرب كلها سنة ١٠٩٤ ، ولما أخذ ملك قشتالة « الفونس السادس Alfonso VI » طليطله وهدد قرطبة ستنجد العرب به ، فدخل المرابطون بلاد الاندلس بجيش جرار عمت به حماسة كل العرب وقاتلوا المسيحيين فى واقعة « زلاقة » سنة ١٠٨٦ التى انتصر فيها البربر وانهزم الاسبانيون انهزاماً تاماً ، ولم يبر يوسف بن تاشفين بالعهود التى كانت بينه وبين ملوك الطوائف بل ضم اقليم « اندلوسيا » إلى دولة المرابطين فأصبحت تابعة لدولة البربر فى افريقية . وقد حاول أن يثبت قدمه فى اسبانيا باستصدار تقليد بحكمها من قبل الخليفة العباسى . وخلفه ابنه « على » سنة ١١٠٧ فعامل العرب معاملة أمة مغلوبة . واستحضر لذلك قبائل جمة من

افريقية فجردوا القبائل العربية من أملاكها. فنشبت الحرب الداخلية وانبرى الاسبانيون للتغلب على المسلمين بمساعدة كثير من الصليبيين

دولة الموحدين

قامت دولتهم بفضل مجهودات زعيمهم «محمد بن تومرت» الملقب بالمهدى ووزيره وقائد جيوشه عبد المؤمن

تلقى محمد العلم عن الامام الغزالى وأدرك كيف يتأتى الحكم بواسطة العقائد الدينية، ثم عاد إلى المغرب لنشر مذهب الغزالى وادعى أنه المهدى المنتظر، فلما قوى حزبه شرع يقاتل المرابطين بمساعدة تلميذه عبد المؤمن الذى ولى الأمر من بعده وكان خبيراً بالحروب. فأخضع دولة المرابطين واستنجد أهل الأندلس بالموحدين سنة ١١٤٧ فعبروا البحر ودخلوا البلاد فأزالوا منها بقايا دولة المرابطين

وكان ملوك هذه الدولة من العقلاء المستنيرين الذين عضدوا العلم والأدب فى الأندلس. وأهم ملوكهم أبو يعقوب يوسف وخلفه ابنه يعقوب وهو الذى حارب ملك البرتغال فى وقعة «العرقوص Alarcos» سنة ١١٩٥ فانتصر عليهم وكاد يظفر بطليطلة. وكان «أبو يعقوب» وابنه معاصرين لصلاح الدين، وفى عصرهما ظهر جماعة من كبار الفلاسفة والحكماء أمثال ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) وابن زهر، وكثرت المدارس والمساجد والمستشفيات

ولما مات يعقوب انتهز المسيحيون الفرصة فقاموا وأعلنوا حرباً صليبية على العرب في سبانيا وساعد على اذكاء نار هذه الحرب البابا انوسنت الثالث واجتمع المسيحيون وقاتلوا المسلمين في وقعة «لوزقة» أو «لوركة» سنة ١٢١٢ انهزم فيها العرب انهزاماً تاماً. ولم تقم لهم بعدها قائمة في سبانيا. وأخذ الاسبانيون يستولون على مدينة بعد أخرى ويفرقون بين أمراء العرب فيساعدون البعض ضد الآخر. حتى اقتصر سلطان العرب على مملكة غرناطة في جنوب الشرق من سبانيا. وأخذ الاسبانيون قرطبة سنة ١٢٣٦ وسقطت بلنسية سنة ١٢٣٨. ومرسية سنة ١٢٤٦ وسقطت اشبيلية سنة ١٢٥٨

وفي أثناء ذلك تمكن «ابن الاحمر» من تثبيت سلطانه على غرناطة وما حولها فانشأ حكومة قاومت الاسبانيين مدة قرنين من الزمن واتخذ غرناطة مقراً لحكمه وبنى قصر الحمراء الشهير. ووثق العلاقات بينه وبين المغاربة يستعين بهم ضد الاسبانيين عند الحاجة. وقد أعاد بنو الاحمر في غرناطة مجد الأندلس السالف واحتفظوا بتفوقها العلمي والصناعي والزراعي في هذه الأقاليم

ومات ابن الاحمر سنة ١٢٧١، واستمر الحكم في هذه الاسرة حتى قوى ملوك قشتالة وصارت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالاً، فأخذت قشتالة مدينة جبل طارق سنة ١٣٠٩ واتحدت مع البرتغال في موقعة «ريو صلادو» التي انتصرا فيها انتصاراً مبيناً سنة ١٣٤٠

واضطر سلطان غرناطة الى الاعتراف لملك قشتالة بالسيادة ودفع الجزية سنة ١٤٥٣. ثم اتحدت ارغونة وقشتالة بزواج «فرديند» ملك

أرغونة «بإيزابلا» ملكة قشتالة وصار لهما التصرف في هذه الممالك سنة ١٤٧٩. وحدث أن انقسمت الأسرة المالكة في غرناطة على نفسها



بهو السباع في الحمراء

واستعان أحد أمرائهم بفرديند، فتقدم لمساعدته وانتصر سنة ١٤٩٠ قرب مدينة «لورقة» واستمر فرديند وإيزابلا يعملان على طرد العرب من الأندلس فسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ وبذلك تم تكوين دولة إسبانيا الحديثة

الفصل الحادى عشر

مصر منذ الفتح العربى

مصر أيام الخلفاء (٦٤١ — ٨٦٨)

بقيت مصر بعد الفتح أكثر من قرنين من الزمن تابعة للخلافة يولى عليها الخليفة حاكما من قبله، وهذا الحاكم كثيراً ما كان يعين كبار الموظفين مثل أمير الجند وصاحب الخراج والقاضى

وقد بقى عمرو بن العاص يحكم مصر كلها أو بعضها مدة خلافة عمر وأهم ما حدث فى عصره بعد الحملة التى بها استرجع الرومان الاسكندرية سنة ٦٤٥ وحاولوا استرجاع مصر كلها فقابلهم عمرو وشتت شملهم .

وخلفه بعد عمرو عبد الله بن سعد بن أبى السرح ففتح النوبة وعاهدهم على جزية سنوية بقيت تدفع الى عصر المماليك

وبعد ذلك بثلاث سنين ارسل الرومان اسطولا عظيما لاستعادة مصر. فقابلهم العرب باسطول صغير وبعد تراشق بالنبال والحجارة تقاتلوا بالسيوف حتى لاذ الرومان بالفرار ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة «ذات السوارى» . ومن نتائجها أن بقيت مصر نهائياً للخلافة ولم يفلح الرومان فى استرجاعها

ولما اشتط عبد الله بن سعد فى جمع الخراج ورفعه الى ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار سخط عليه الشعب وبعثوا الى الخليفة وفداً كان له ضلع فى قتل عثمان

ولما قام النزاع بين على ومعاوية انقسم العرب بمصر الى فريقين بقيا فى حروب وشقاق الى ان تغلب عمرو بن العاص المولى من قبل معوية ودخل الفسطاط سنة ٦٥٨ . وبقى حاكما بها حتى مات فى سن التسعين سنة ٦٦٤ وقد كافأه معاوية على سالف خدماته فى التحكيم وغيره باعطائه خرج مصر له

ولم يتغير شكل حكومة مصر ايام الامويين والعباسيين . وانما كانت تتأثر الادارة بروح الحاكم ومقدار محافظته على الحق وحرصه على صالح الاهالى. وكان الحكام زمن الامويين كلهم من العرب ومنهم اربعة من ابناء الخلفاء أو إخوتهم

وقد التجأ مروان الثانى آخر ملوك بنى أمية الى مصر رجاء مقاومة العباسيين ولكنه هزم وقتل فى بوصير، واستولى « صالح بن على » قائد العباسيين على مصر دون مقاومة وجعل بنو العباس يولون على مصر رجالا من بيت الخلافة خاصة ومن العرب عامة حتى سنة ٨٥٦ . حين بدأ الخلفاء يعينون الاتراك ويقطعون البلاد لقواد الفرق التركيه التى بدأوا يستخدمونها بدل العرب والفرس ، ولكن هؤلاء القواد لم يحضروا بأنفسهم الى مصر بل كانوا يعينون عليها ولاة من قبلهم يديرون شئونها ويرسلون اليهم ما يبقى من الايراد

العباسيون فى مصر

وقد بنى العباسيون شمالى الفسطاط مقراً لحكمهم عرف « بالعسكر » نسبة الى المكان الذى عسكر به صالح بن على سنة ٧٥٠ ، وبنوا كذلك قبة الهواء (٨٠٩ — ٨١٠) على سفح المقطم موضع القلعة الآن ، وكان الحكام يفضلونها على العسكر أيام الصيف

مدينة العسكر

وكان ولاة العباسيين لا يكاد يستقر أحدهم في مركزه حتى يخلفه غيره ولذا كان الأمر مضطربا والشغب كثيراً، وزاده ضغثاً على إبالة الخلاف الذي وقع على أثر موت هرون الرشيد سنة ٨٢٠ بين ولديه الأمين والمأمون. ولم يستقر للبلاد قرار حتى أرسل المأمون سنة ٨٢٦ «عبدالله بن طاهر» وهو من أشهر قواد عصره فأخضع عرب الحوف الذين كانوا ثائرين ضد الحاكم، واستخلص الاسكندرية من يد جماعة من مهاجري الأندلس كانوا قد استولوا عليها ثم تغلب على الحاكم الذي كان يمثل «الأمين» وأعاد الأمن في نصابه. وكان عبدالله عادلا رحيماً تقياً محباً للعلماء والشعراء.

ولم يكد عبدالله يغادر مصر حتى رفعت الثورة عقيرتها واضطر المأمون أن يحضر بنفسه لاخضاعها فقضى عليها وترك البلاد هادئة. ومن ذلك الوقت قلت الثورات وكثر دخول المصريين في الاسلام حتى صار معظم السكان مسلمين.

وقد اشتهر في هذا العصر عدد من القضاة كانوا مثالا للزهد والنزاهة والعدل، وكثيراً ما كان القاضي يستمر في عمله مع ولاة مختلفين، وكان بعضهم لا يلي القضاء إلا مكرها

ولا يكاد يوجد بين الولاة خير من «عنبسة» آخر من ولي مصر من العرب، وكان «عنبسة» متواضعاً حريصاً على خدمة الرعية وإقامة الشعائر الدينية. وفي مدته استولى الروم على دمياط وخربوها سنة ٨٥٣ وتقدموا الى تنيس فهم «عنبسة» لقتالهم فلم يسعهم إلا الفرار. وفي السنة التالية رفض النوبيون دفع الجزية وغزا ملكهم «علي بابا» بلاد الصعيد بجيش

كبير ونهب اسنا وادفو فاستعان عنبسة بالخليفة فهزم « على بابا » بعد حرب طاحنة ورضى بدفع الجزية

وجاء بعد عنبسة ولاة من الترك جبهم جفاة لا عهد لهم بالحكم تفاقمت فى أيامهم الثورات وعمت الفوضى ، ولم ينتشل البلاد من هذه الوهدة إلا احمد بن طولون

١٨ الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥)

كان « طولون » مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية لخليفة المأمون سنة ٨١٥ فنال الحظوة لديه ، وقد ولد ابنه او متبناه « احمد بن طولون » سنة ٨٣٥ فنشأ نشأة طيبة وبرع فى علوم اللغة والقرآن والشريعة وولع بالتعليم العسكرى الذى كان يربى عليه فتيان الاتراك في سر من رأى (سامرا)

ولحسن حظه أن الامير « بقبق » الذى تزوج من أرملة طولون منح ولاية مصر (نحو سنة ٨٥٤) واختار احمد نائبا عنه فيها ، فحضر اليها سنة ٨٦٨ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان ابو العباس احمد بن طولون قديراً خبيراً باختيار الرجال فلم يمض وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه . ومن أكبر المساعدين له كاتم سره احمد الواسطى

كان موقف بن طولون محوطاً بالمصاعب الداخلية و الخارجية . حرج موقفه فاما الداخلية فدسائس « ابن المدبر » صاحب الخراج الذى أثرى على الاختلاس وابتزاز الاموال بمختلف الضرائب والمكوس . ثم قيام العلويين فى غرب الاسكندرية وفى سنا ومقاومتهم له مدة

ولم يقلل من حظ ابن طولون قتل الامير «بقبق» إذ أن الخليفة منح مصر للامير «يرقوق» وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده فى مصر وضم اليه الاسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلا تحت نفوذه أولاً. وما زال نفوذ ابن طولون يزداد حتى أعطيت مصر طعمة «للموفق» أخي الخليفة سنة ٨٧٢ فلم يعبأ ابن طولون بهذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا والتحف وصار فى الواقع ملكاً مستقلا فى مصر ولا سيما بعد أن تخلص من أكبر منافس له فى داخلية البلاد وهو ابن المدبر الذى بقى صاحب الخراج مدة طويلة ثبت فى أثنائه مركزه، ولكنه قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته فى الشام خوفاً من بطش ابن طولون

ولما استقر الامر لاحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة «القطائع» على «جبل يشكر»(١) وجعل لكل طائفة من أتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها، وشاد لنفسه قصراً فخماً تحت قبة الهواء به حديقة غناء وميدان لسباق الجياد. وأما مسجده المعروف فلم يشرع فى بنائه إلا سنة ٨٧٦ وستعرف عنه ما يكفيك فى بابه. وأهم ما يلاحظ فيه إقامة الاعمدة من الآجر لأول مرة بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة، وانه أول بناء استعمل فيه العقد المخصوص الذى لم يستعمل فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمن

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئاً الى «الموفق» فجهز هذا جيشاً لاخراج ابن طولون من مصر ولكنه لم يقدر على

(١) بين ميدان القلعة وزين العابدين

انفاذه لقمة المال . فتشجع ابن طولون وقوي عزمه على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت «ماجور» والي الشام وساق جيشه اليها سنة ٨٧٨ بحجة أن الخليفة كان قد أذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية «ماجور» ، ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات الى برقه، ومن جبال طوروس الى شلال اسوان

توسع ملكه

وبعد ان ترك ابن طولون حاميات في الرقة وحران ودمشق عاد الى مصر لان ابنه العباس الذي كان يحكم البلاد في غياب أبيه أراد أن يستقل بملكها ، فلما حضر أبوه التجأ العباس الى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر . وكذلك شجر الخلاف بينه وبين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣ وغنمت أموالا طائلة . وقد أعياه الجهد فمرض وحمل على سرير الى مصر حيث لم يجده حذق الاطباء فمات في مايو سنة ٨٨٤ قبل أن يبلغ الخمسين

انتصاره على الروم ٨٨٣

وكان أحمد بن طولون كريماً شجاعاً تقياً خبيراً بأخلاق الرجال . يشرف على أعمال الدولة بنفسه ويستطلع أحوال رعيته . ويقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويشجع الزراع ويؤمنهم على أملاكهم . وهو أول حاكم بعد الفتح الاسلامي أنهض قوة مصر وحمل عصمتها

صفات ابن طولون

وقد خلف أحمد بن طولون ابنه الثاني «أبو الجيش خمارويه» وكان في العشرين من عمره ميالا للترف يجهل الحكومة والحروب، فلا عجب

خمارويه

أن تآمر أعداؤه مع نائبه في دمشق على ارجاع الشام الى حكم الخليفة، ودخل « ابو العباس بن الموفق » دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويه ومعه ٧٠٠٠٠ مقاتل عند « الطواحين » قرب الرملة فذعر خمارويه وفر بأكثر جيشه الى مصر، وثبت قائده « سعد الاعسر » مع بقية جند فهزم الاعداء وأبى الخضوع لسيده فنهض خمارويه وهزمه في دمشق سنة ٨٨٦ وطرد عداءه الى سامرا. فولاه الخليفة مصر والشام والمواصم على الحدود الرومية لمدة ٣٠ سنة. وقد تشجع خمارويه فدخل عدة حروب ابدت مقدرته الحربية

ثم زوج بنته « قطر الندى » للخليفة « المعتضد ». وتكلف في ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر الى بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد اكثر من الجواهر والتحف الى غير ذلك مما دعا الى صرف الف الف دينار

وما زال خمارويه يسرف في البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب. وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه « بالقطائع » وتحويل الميدان حديقة غناء تتنوع فيها عطور زهور شتى، صفت أشكال بديعة، تغرد فوقها الاطيار التي أكثر من جمعها فيها. كذلك زين « بيت الذهب » بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه. ولما كثر أرقه مثلت له بركة من الزئبق يترجح عليه سريره، وقد شد بخيوط من حرير الى عمد من الفضة

وقد حقد عليه بعض جواريه فقتلنه من قبله وهو في طريقه الى دمشق سنة ٨٩٦

ابو العساكر

وخلفه ابنه «ابو العساكر» جيش وكان فى الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمركزه الخطير معنى . منغمساً فى لهوه فخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الادارة ونفدت اموال الخزانة، فعزله جنده بعد اشهر من اعتلائه العرش

خاتمة الدولة الطولونية

وجاء بعده اناس ضعاف لم يحسنوا القيام بواجبات الحكم فارسل الخليفة الى مصر جيشاً بقيادة «محمد بن سليمان» هزم الطولونيين وخرب القطائع عن آخرها ما عدا جامع ابن طولون .

وقد عمرت الدولة الطولونية ٣٧ سنة كانت مصر فيها مستقلة فى «الواقع»، ولذا استعادت كثيراً من عظمتها السالفة و بلغت من الحضارة والرخاء درجة لم تبلغها منذ الفتح الاسلامى

الدولة الاخشيدية (٩٣٥ — ٩٦٩)

عودة مصر للخلافة

بقيت مصر بعد زوال دولة ابن طولون ثلاثين عاماً فى هرج ومرج، لانها كانت تابعة للخلفاء العباسيين وكان هؤلاء ضعافاً لا يستطيعون تأييد الحكام الذين يعينونهم على البلاد، فصبح الامر والنهى بيد الجند الاتراك وقواده و صار الحكام الى استرضاء الجند بالعطاء كلما امكن ذلك

وليس ادل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم فى مصر ورغبة المصريين فى التخلص منهم من تمكن «محمدالخلنجى» وهو شاب من عامة الناس — من جمع عدد صغير من المصريين فى فلسطين سنة ٩٠٥ واعادة الخطبة للطولونيين هناك ، ثم دخول مصر وحكمه إياها ثمانية اشهر باسم الطولونيين

وادهى من ذلك وامر ان مصر كانت عرضة للغزو من جانب الخلفاء الفاطميين الذين ظهرت دولتهم في المغرب حتى نهبوا الاسكندرية ووصلت جيوشهم الى الفيوم سنة ٩١٤ . وعجز الحكام عن طردهم ست سنين كاملة رغم حضور المدد من بغداد اكثر من مرة

الا ان طرد جيوش الفاطميين لم يعقبه القضاء على الفوضى الضاربة اطنابها في البلاد ، بل بقي الجند يجوسون خلال الديار ويسومون اهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة ، حتى ولي امرها « محمد الاخشيد » سنة ٩٣٥ بامر من الخليفة الراضي . والاخشيد لقب ملوك « فرغانة » السابقين « ومحمد بن طغج » هذا من سلالة هؤلاء الملوك كان جده ضابطا في جيش المعتصم وخدم ابوه مدة في جيش خمارويه وكان محمد الاخشيد قوي الساعدين لا يقدر رجل آخر ان ينزع عن قوسه . وكان قائدا حذرا يفضل السلم على المغامرة في الحروب وبدخوله مصر عاد اليها الامن والسكينة ولم يجرؤ احد على الثورة في وجه جيش الاخشيد وفيه ٤٠٠٠٠٠ مقاتل

الاخشيد

وقد سبق ان خلفاء بني العباس كانوا اذ ذاك في منتهى الضعف ليس لهم من امر الملك شيء وان « بني بويه » حكموا فارس « والحمدانيين » حكموا العراق مستقلين عن الخليفة وكذلك حكم الاخشيد مصر مستقلا بها ، ولكن لا يتأخر عن مد يد المساعدة للخليفة البائس

الحرب في سوريا

وبينما الاخشيد هادىء في مملكته اذ انقض « ابن رائق » على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على ان تكون سوريا شمالي « الرملة »

لابن رائق وجنوبها للاخشيد يدفع عنه جزيه سنوية . ولما مات ابن رائق أخذ الاخشيد سوريا كلها بغير قتال وضاف اليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة . فأخذ الاخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس

ثم أغار سيف الدولة الحمدانى على دمشق وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور ، فخرج اليه الاخشيد ومزق جيشه كل ممزق فى واقعة « قنسرين » ودخل حلب ودمشق ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حباً فى مسالمته . ومات الاخشيد بدمشق سنة ٩٤٦ ودفن ببيت المقدس

موت الاخشيد

ويذكر للاخشيد باعادة الامن الى نصابه وجعل مركزه وراثيا وإن كان لمدة محدودة ، مما أدى الى استقلال مصر استقلالا فعلياً . فأصبحت تجبي اليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها

وتولى بعد الاخشيد ابناه « ابو القسم » أنجور (٩٤٦ - ٩٦١) وابو الحسن على (٩٦١ — ٩٦٥) ولكنهما لم يعطيا فرصة لاظهار مقدرتهما إذ كانا تحت وصاية « كافور » حاكم مصر الحقيقي كان ابو المسك كافور عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه استاذاً لأولاده ، وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين فى مد املاك مصر الى حدود الاناضول وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء وبذل لهم الصلات

كافور

ولما مات أبو الحسن على الاخشيد سنة ٩٦٥ عتلى العرش « كافور »

ومنحه الخليفة لقب استاذ مصر وأملاكها، فبقى يدير شئونها فى بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨ بعد أن حكم مصر اثنين وعشرين سنة ، وبمجرد موته جتمع رجال البلاط و تخبوا من تلقاء أنفسهم وبدون رجوع لأمر خليفة العباسى - من بنى الاخشيد ملكا لمصر وممتلكاتها كما تخبوا ولى عهد له . إلا أنهما لم يضطلعا بأعباء الحكم فتطلع « المعز » رابع الخلفاء الفاطميين الى ضم مصر الى أملاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمى الفسطاط سنة ٩٦٩ وانفصلت مصر عن بغداد نهائياً

٨ الدولة الفاطمية (٩٦٩ ١١٧١)

لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يعين خلفه انتخب مسلمو المدينة أبا بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء عليهم وأقر المسلمون عامة ذلك الانتخاب . إلا أن أناسا كانوا يرون أن مبدأ الانتخاب يجر الى مشاكل كثيرة و ن الاولى اتباع مبدأ الوراثة ، وان على ابن أبى طالب يجب أن يكون الوارث الوحيد للنبى صلى الله عليه وسلم لانه ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء و أبو حفيديه الحسن والحسين

وأصحاب هذا المذهب يعرفون بالشيعة لتشيعهم وتشجيعهم لعلى وأولاده . وقد أذكى تحمسهم لأهل البيت الاضطهادات الكثيرة التى أوقعها الامويون بآل محمد والتى بدأت بحادثة « كربلاء » وأدت الى سقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس مكانها. إلا أن العباسيين

اضطروا الى اضطهاد العلويين خوفاً من نفوذهم وكثرة الموالين لهم وتعدد الثورات التي قام بها الشيعة يحاولون القضاء على الدولة العباسية واحلال أحفاد « على » محلها

الشيعة وأفريقية

والذي يعنينا الآن انتشار دعوة الشيعة بين البربر في شمال أفريقية

لم تكن أفريقية يوماً ما مرتبطة بالأمويين ولا بالعباسيين ارتباطاً شديداً، بل كانت كثيرة الثورات والقلاقل كما رأينا حتى تركها الرشيد شبه مستقلة تحت أمرة بنى الأغلب . لهذا ولبعدها عن بغداد ، ولتفشي الجهل بين أهلها وتصديقهم ما يقصه دعاة الشيعة من المظالم التي لا تفتأ تقع على آل بيت محمد . ولسهولة اثارة حميتهم لدعوة دينية في الظاهر . ـ لكل هذه الاسباب وغيرها كانت أفريقية تربة خصبة لبث الدعوة لبنى على وفاطمة

عبيد الله المهدى

وأكبر الدعاة لبنى فاطمة في المغرب « ابو عبدالله الشيعى » . وقد بدأ ينشر الدعوة سنة ٨٩٣ « لعبيدالله بن محمد » من نسل جعفر الصادق فتبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدى المنتظر من بيت النبوة ، ولم تمض سنون قليلة حتى بلغ جيشه مائتي الف مقاتل وحتى قضى على الدولة « الاغلبية » من شمال أفريقية سنة ٩٠٨ وأعلن « عبيدالله المهدى » أنه المهدى المنتظر وانه وحده خليفة النبي سنة ٩١٠ وعرف نسله بالفاطميين [1]

وكان عبيد الله حاكما نشيطاً دان له شمال أفريقية من مصر الى قرب شواطئ المحيط الاطلسي ، وقضى على ما كان يرمى اليه الشيعة أنفسهم من اهمال الدين والانغماس في اللهو ونشر المذاهب الفوضوية

---

(١) انتساب عبيد الله المهدى الى سيدنا على موضع شك كبير

القائم بأمر الله

وخلفه ابنه « القائم بأمر الله » (٩٣٤- ٩٤٦) وقد أرسل جيشاً استولى على الاسكندرية سنة ٩٣٥ فطرده جند محمد الاخشيد وأوقع به هزيمة منكرة : ثم اشتغل « القائم » باخضاع ثورة داخلية فى المغرب استمرت الى حكم الخليفة الثالث الملقب بالمنصور (٩٤٦ — ٩٥٣)

المعز لدين الله

ثم أعقبهم « المعز لدين الله » (٩٥٣ - ٩٧٥) فافتتح عصر جديد . كان المعز سياسياً محنكا يعرف الشروط التى لا بد من توافرها لاحراز النجاح ، ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستخدمها لمصالحه ، هذا إلى أنه كان مثقفاً تأخذ بلاغته بالالباب ، وسع الكرم محباً للعدل

بدأ المعز بالطواف فى ملكه الشاسع لاستطلاع أدواء الرعية ووصف دوائها وعين « جوهر الصقلى » وزيراً وقائداً لجنوده ففتح بقية المغرب الى شاطئ المحيط . ولكن أكبر أمانيه كانت فتح مصر لعظم ثروتها ووفرة تجارتها ونشاط أهلها . ولما عمه من ضعف الحكومة بعد موت كافور ، وعصيان الجند وانخفاض النيل سنة ٩٦٧ وما تلاه من قحط ووباء فني به خلق كثير

جوهر وفتح مصر

شرع المعز بحفر الآبار على طول الطريق من « القيروان » عاصمة ملكه الى الاسكندرية وتخزين المؤن والذخائر وسير جوهر القائد من القيروان فى فبراير ٩٦٩ بمائة الف جندى . فلما وصل الى الاسكندرية طلب السكان منه الأمان فأمنهم وسار الى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة . ولم يبت ليلته حتى وضع أساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة متنزه يطل على

حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم « ما بين القصرين » . وكان الخليفة يمر من أحد القصرين الى الآخر بطريق تحت الارض خشية أن تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به . وقد بالغ المؤرخون فى وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة ، و بنى « الجامع الازهر » كذلك (٩٧٠ - ٩٧٢) ليصلى فيه خليفة الناس يوم الجمعة

ثم التفت إلى إعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما أرسله المعز من الحبوب وبالزام جميع التجار أن يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة أمام المحتسب (مندوب الحكومة فى السوق) . وضمان العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصرى وآخر مغربى . وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع له الجزية المعتادة وخطب له الحمد بيون فى شمال الشام وأخضع جنوب الشام وطرد منه حسين الاخشيد

توسع ممتلكه

وعند ذلك الح جوهر على سيده ان يبادر بالحضور الى عاصمته الجديدة فحضر اليها باهله وولده. بل ورفات اسلافه، ودخلها فى مايو سنة ٩٧٣ فستقبله أهل البلاد بالترحاب واعجبهم كرمه وبلاغته

دخول المعز مصر

وبحضور المعز صارت لمصر السيادة - لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط - بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها. إذ كانت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض ، منها تصدر الاوامر الى انحاء الدولة وتدبر شئونها ومنها يذهب الحكام لبقية البلاد

أعماله

وقد انتفع المعز بثغور مصر لزيادة اسطوله فاقام حوضاً فى المقس وهى ثغر القاهرة قبل بولاق - وبنى به ٦٠٠ سفينة وهو أكبر اسطول

رأته مصر منذ الفتح الاسلامى واستتق الجيش فى كفاية حربية عظيمة. وعني بالنيل والرى والزراعة والقضاء

وفى آخر حكمه غزا «القرامطة» مصر ووصلوا الى عين شمس سنة ٩٧٤ وانتشروا فى جميع انحاء القطر يفسدون ويخربون، ثم حصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا ان عمد الخليفة الى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف الى شيخ بنى طى اكبر حليف للقرامطة، فتخاذل فى الموقعة التالية. واستطاع «المعز» ان يطارد القرامطة فى سوريا ومات سنة ٩٧٥ فى السادسة والاربعين من عمره. وقد ترك لمصر دولة مترامية الاطراف لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم افريقية سنة ١٠٤٦ وضعف نفوذهم فى سوريا التى كانت مهداً للقلاقل. ولم تخضع لهم عن طيب خاطر الا الحجاز رغم ما كان لهم من قوة برية وبحرية اذ اتخذوا جنوداً من البربر. وآخرين من الترك وغيرهم من السودان

العزيز — خلف العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) اباه وكان حسن الطلعة قائداً جريئاً ميالا للتسامح حتى مع اعدائه. وقد استوزر من أول حكمه «يعقوب ابن كلس» وهو يهودى اعتنق الاسلام وبقى متربعاً فى كرسى الوزارة نحو خمسة عشر عاماً وكذلك استوزر «عيسى بن نسطوريوس»، وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة فى ربوع البلاد، ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والابهة ولا يقلان عن سيدهما فى حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والاحجار الكريمة، وغيرها من لوازم الترف والثروة التى جعلت مصر فى عهد الفاطميين مضرب الامثال

واهم من هذا آثار العمارة و الهندسة وتنظيم الحكومة فى عهده ، فقد بنى الجامع المعروف بجامع الحاكم لأن الحاكم هو الذى اتمه . وحفر ترعا عديدة وشيد القناطر والحياض

و« العزيز » أول من نظم الحفلات الرسمية وأول من اعطى موظفيه مرتباته عينا كما أنه أول من دخل مماليك الترك فى جيش مصر فكانوا وبالا عليها . ويعتبر العزيز احزم خلفاء الفاطميين وارشدهم . واسوء حظ مصر لم يعقب العزيز الا ابنا واحدا من أم مسيحية هو الحاكم بأمر الله



مشكاة من الزجاج المحلى بالمينا

(٩٩٦ – ١٠٢١)

تولى الحاكم فى سن الحادية عشرة وكان أبوه قد عين « بيرجوان »[١] أستاذاً له أى وصياً عليه ، و سدت قيادة الجند « لابن عمار المغربى » ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائباً عن الخليفة ففضل ابناء جلدته وأعلاهم على الجند الاتراك الذين جلبهم العزيز . فكثر الشجار بين الطرفين فى الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الامر بفوز الترك وقتل ابن عمار . واصبح الامر بيد « بيرجوان » ولكنه ترك حبل الامور على غاربها فبدأ « الحاكم » يباشر الادارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء ، فقتل

(١) لايزال شارع بيرجوان بالخرنفش يسمى باسمه

شذوذ الحاكم «بيحرين» وتجلى شذوذه لرعيته فى عدة أوامر خرقة للمادة منها قفل حوانيت نهاراً ولزوم فتحها وفتح المنازل واضاءتها ليلا وتحريم صنع أحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهن وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والملوخية والعسل

وبعد أن قضى عشر سنين من حكمه دون أن يتدخل فى الامور الدينية لغير المسلمين، حدثت نوبة من التعصب الاعمى حدت به الى اصدار خطرات من وساوسه ضيق على المسيحيين واليهود فى حين أنه كان يختار منهم أعاظم رجال دولته . وقد تمادى هذا الخليفة الشاذ فى سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رؤوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له

أبو ركوة — وفى عهده توالت ثلاث سنين مجدبة ساءت لها حال البلاد حتى طمع فى غزوها «أبو ركوة» وهو من الاسرة المالكة فى الاندلس، فر منها وأقام نفسه خليفة فى المغرب ثم غزا برقة ومصر حتى نزل بالجيزة وعسكر قرب الهرم ولم تتغلب عليه جيوش الحاكم الا بعد مطاردته الى النوبة بجهد جهيد

ومن آثاره تمام جامع الحاكم الذى بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد «دار العلم» أو «دار الحكمة» لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة. وكانت دار العلم قصراً فخماً بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الاقطار النائية

نهاية الحاكم — أما «الحاكم» فما زال جنونه يشتد حتى خيل اليه أنه إله جدير

بالعبادة وساعده ملحدون أتوا من المغرب ومن الفرس وأشهرهم «درازى» الذى أسس مذهب «الدروز» فى لبنان على اعتقاد ألوهية الحاكم وقد أثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد فى محنة كبيرة ووقف دولاب العمل فى كل مكان وخرج عليه الجند الترك والمغاربة وانضمت اليهم أخت الحاكم «سيدة الملك»، فهزموا الجنود السودانية التى كانت تحميه. وقتل الحاكم وهو يجول فى الصحراء ولم يعثر له على أثر ولا يزال «الدروز» يعتقدون أنه سيعود بعد اختفائه فيصلح العالم

الظاهر وخلفه ابنه الظاهر (١٠٢١ – ١٠٣٦) وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت بأعباء الحكم عمته «سيدة الملك»، فما أدركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبح الحرب فى الطرقات سجالا بين الجند والاهالى وكل ذلك والخليفة منغمس فى ملذاته عاكف على لهوه وقسوته

المستنصر ولما مات الظاهر خلفه ابنه المستنصر (١٠٣٦ – ١٠٩٤) وعمره سبع سنين، وكانت مصر قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً فحاول المستنصر أن يسترجع المغرب فأرسل عرب «بنى هلال» المشهورين ففتحوا برقة وطرابلس فقط وأقاموا فيهما

أما بلاد العرب فعظم نفوذ الفاطميين فيها، لا بجهودهم أنفسهم، بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سنة ١٠٦٣ وأعلنوا حق الفاطميين المقدس فى الخلافة

وقد تولى الوزراء فى أول حكم المستنصر دون أن يتمكن أحدهم من

الاحتفاظ بمركزه طويلا حتى تربع فى دستها رجل عصامى يسمى « اليازورى » (١٠٥٠ – ١٠٥٨) أراد اصلاح حال الفلاح وزيادة الأيراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس و دخر القمح اتقاء القحط ، ولكنه رغم ذلك لم يفلح لسوء الحال العامة. وكان اليازورى محباً للفنون مشجعاً للعماء ومات مسموماً سنة ١٠٥٨

اصطر سلاه

وبموت اليازورى تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا فى الحكم الا قليلا لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش ، حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل فى موظفى الحكومة المسئولين. ورد الطين بلة ان اشتد النزاع بين جند السودانية والاتراك وتغلب الترك وطردوا أعداءهم الى الوجه القبلى فأصبح الصعيد كله فى قبضة السودانيين واستوى الترك وحلفاؤهم من العرب بزعامة « ناصر الدولة بن حمدان » على الوجه البحرى وخربوه وتوالى القحط سبع سنين لغاية ١٠٧٢ حتى بيع الرغيف بخمسة عشر ديناراً وأكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها، ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضاً وصار لحم الآدمى يباع فى الاسواق

ولما فنيت ثروة المستنصر – وكانت ثروة لم يسمع بمثلها – نهب الجند الاتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان فيها ما يربو على ١٠٠,٠٠٠ كتاب من أنفس الكتب فى جميع العلوم التى عرفها العرب

٨ عصر الوزراء العظام

وقد ضاق الخليفة ذرعاً بمساوئ الجند ولا سيما الترك منهم فاستقدم «بدر الجمالى» حاكم عكا – وكان أول أمره مملوكاً أرمنياً ارتقى فى سلك الوظائف الكبرى حتى عين حاكما لجهات عدة – فحضر بجنده وأمرهم باغتيال زعماء الترك فى ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٣. ونزل الجمالى بشارع برجوان وأطلق الخليفة يده فى جميع الامور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما سرق عليه من نفائسه السابقة ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية، فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح أرضهم فكانت العشرون سنة الاخيرة من حكم المستنصر عهد أمن ورخاء. وقد بنى «بدر الجمالى» سوراً حول القاهرة وأزال الابواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة فى مواقع مختلفة من السور كما ترى الآن – بناها على نمط الحصون البوزنطية لما علم من مناعتها

بدر الجمالى

سور القاهرة

ومات بدر الجمالى فى ربيع سنة ١٠٩٤ فى الثمانين من عمره وخلفه فى الوزارة ابنه الافضل شاهنشاه ومات المستنصر فى السنة نفسها

وهنا يجدر بنا أن نلم بنظام الحكم في مصر زمن الفاطميين:

كان الجيش ذا طبقات عديدة أهمها طبقة الامراء وضباط حرس الخليفة يرأسهم الاساتذة ورجال الحرس وعددهم ٥٠٠٠، وكانت فرق الجيش كثيرة تسمى كل فرقة باسم الخليفة أو الوزير الذى أوجدها أو حسب جنسيتهم كالحافظية والسودانية والرومية والصقلية، وكان عدد الجيش يزيد وينقص من حين لآخر

الجيش

الأسطول

وكان أسطول الفاطميين مركباً من نحو خمس وسبعين سفينة حربية لوازمها من النقالات وغيرها وموزعاً على الاسكندرية ودمياط وعسقلان

وكان الموظفون قسمين رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فمنهم الوزير عادة والحاجب وهو يلي الوزير في المرتبة وقائد الجيوش العام وحامل مظلة الخليفة وحامل سيفه وحامل رمحه وصاحبا شرطة القاهرة والفسطاط ثم خدم القصر

الموظفون

أما رجال القلم فمنهم الوزير أحياناً وقاضي القضاة، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء في جامع عمرو يومي السبت والثلاثاء. ومدير دار الحكمة والمحتسب وخازن بيت المال، ويتبع رجال القلم صغار الموظفين في مصالح الحكومة غير العسكرية

الإدارة

كانت مصر مقسمة إلى أربعة أقسام كبرى الصعيد ويسمى أقليم قوص بقوص مركز حاكم عظيم، والشرقية وهي كل ما على فرع دمياط شرقاً وأهم مدنه بلبيس وقليوب، والغربية وهي ما بين فرعي النيل وأهم مدنها المحلة ومنوف وأبيار، والاسكندرية متصلة إليها البحيرة وكان حاكم كل أقليم يولي من قبله حكاماً على النواحي والقرى وتقوم الحكومة المحلية بكل الأعمال التي تعنى بها في ذلك كالاحتفاظ بالترع والجسور المحلية. أما الجسور العامة فكان يلاحظها موظف تنتخبه الحكومة العليا سنوياً ويساعده عدد كبير من الخبراء

الافضل شاهنشاه

ولما مات بدر الجمالى والمستنصر سنة ١٠٩٤ لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة واصبح الحكم فى مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم ان يصرف الامور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة . ولذا اهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سناً أو أضعفهم ارادة ليملأ به عرش الخلافة كلما خلا . فنترك هؤلاء الخلفاء المستضعفين جانباً ولنأت على شيء من ذكر الوزراء الذين ساسوا البلاد الى انقضاء دولة الفاطميين

خلف بدر الجمالى ابنه الافضل شاهنشاه فسار سيرة أبيه بالعدل والحزم فاستمرت الطمأنينة والرخاء . وكان شغله الشاغل اتقاء الخطر الذى يتهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الاولى فى سوريا وشرعت تنزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء . وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من أيام ابن طولون ولم تشذ عن حكمها الا فى فترات يسيرة . فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ من الجنود المصرية وتوغلوا فى جنوب فلسطين حاول «الافضل» ان يصد غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع «بلدوين» ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة ١١١٧ وحرق «الفرما» وتقدم الى «تنيس» ولم يرجعه عن فتح مصر كلها الا مرضه . ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل «الافضل» بايعاز من الخليفة سنة ١١٢١ وبقيت مصر بعده فى فوضى لا تكاد سلطة حكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة «طلائع بن رزيك» الملقب بالملك طلائع بن رزيك

الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب المجرمين. وكانت مصر شديدة الحاجة الى رجل قوى مثله بعد ان فقدت عسقلان فى السنة السالفة وكانت عسقلان آخر حصن من فلسطين فى يد المصريين، يتطلع ملوك بيت المقدس الى الاستيلاء عليه وتدفع عنه مصر بكل جهدها

طمع الصليبيين فى مصر

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان لم يبق امامه ما يمنعه من غزو مصر، اللهم الا خوفه من ان يقتص السلطان « نور الدين محمود » صاحب حلب على مملكته اثناء تغيبه بمصر لا سيما حين دخلت دمشق فى حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد ان كان اميرها حيف الصليبيين

ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس الى منع الآخر من امتلاك مصر. وقد بذل «طلائع» كل ما فى وسعه لمعاونة نور الدين قصد طرد الصليبيين من «سوريا»، ولكن نور الدين لم يبت فى الامر فصرف «طلائع» همته الى توطيد دعائم الأمن فى مصر نفسها، حيث عرف بقوة العزيمة والكرم وسماع شكايات الرعية على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة الى ذوى الفطنة والعلم

ولما قتل «طلائع» بدسائس القصر خلفه ابنه «العادل رزيك»، ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليه « شاور » وقتله، الا ان « شاور » لم يتم سنة فى الوزارة حتى نازعه فيها «ضرغام» حاجب الخليفة. ففر «شاور» الى نور الدين واستنجد به وتعهد ان يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة، ويدفع ثلث ايراد مصر جزية سنوية لنور الدين

اما « ضرغام » فلم يجد بداً من الاستعانة « بأمورى » ملك بيت المقدس، فلما حضر هذا الى مصر اضطر نور الدين الى ارسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه تغلبت على ضرغام والصليبيين وعينت شاور وزيراً

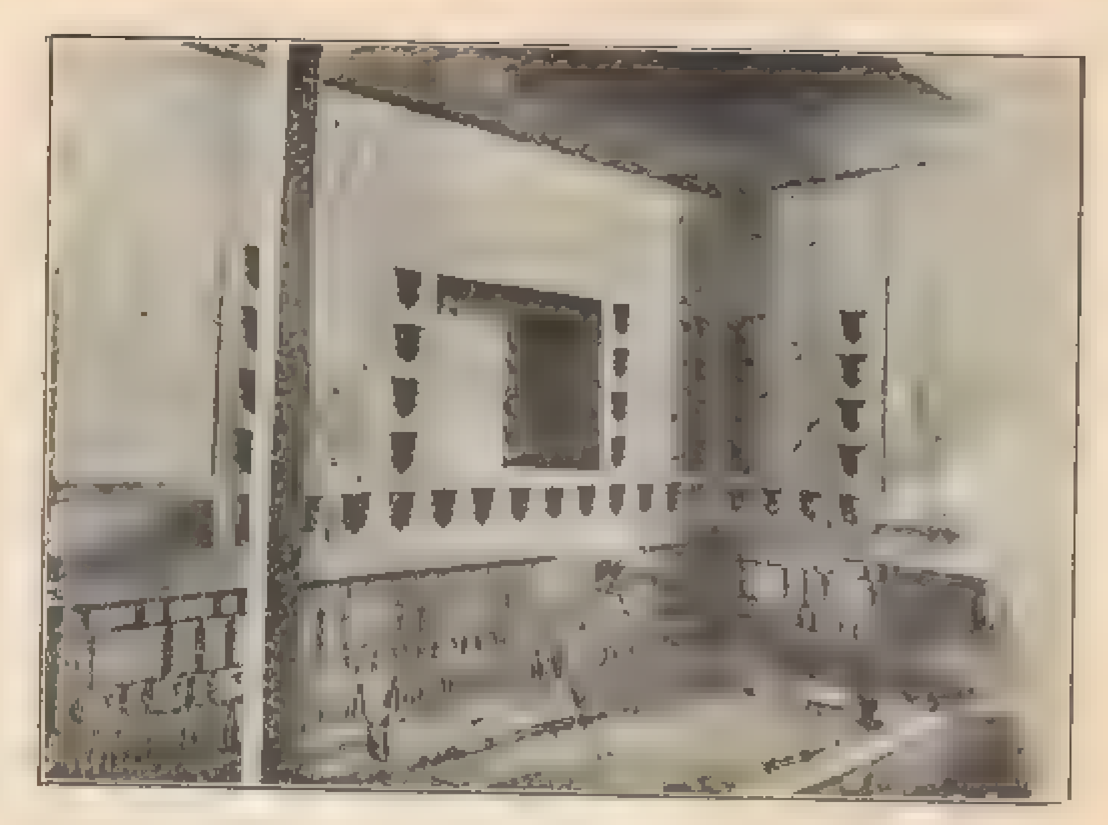
وما زال نور الدين وأمورى يتنازعان على مصر حتى انتهى الأمر بفوز نور الدين وصارت مصر مركزاً لدولة صلاح الدين الايوبى كما تراه مفصلا فى الحروب الصليبية

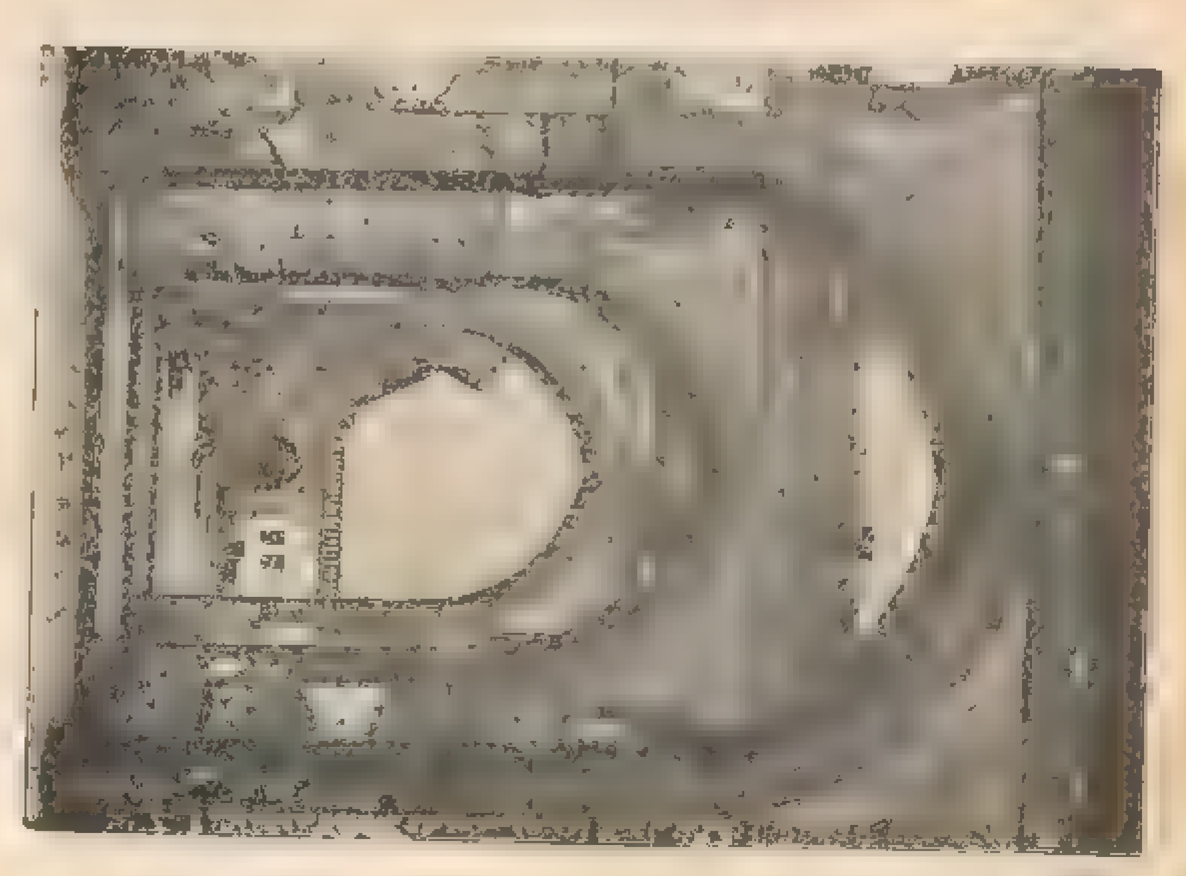
ولما زالت دولة الايوبيين سنة ١٢٥٠ اعقبهم مماليكهم البحرية الذين كانوا سببا فى محو دولتهم وولوا الحكم وراثياً تارة، وتارة بتولية أقوى امراء هؤلاء المماليك حتى استقر الملك ردحاً من الدهر فى أسرة قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٨٢). ولضعف السلاطين الاخيرين من هذه الاسرة عظم شأن فئة المماليك الشراكسة حتى استطاع احدهم ان يعزل آخر خلفاء قلاوون ويتولى الملك باسم « الظاهر سيف الدين برقوق »

المماليك البحرية

مماليك الشراكسة

ولم يستطع احد من المماليك الشراكسة ان يستقل بالسلطة عن زملائه تمام الاستقلال أو أن يورث ابناءه الملك. بل استمروا يختلف اقوياؤهم على عرش مصر حتى اهرم آخر سلاطينهم « الغورى » و « طومان باى » أمام قوات السلطان العثمانى « سليم الاول » سنة ١٥١٧ ففقدت مصر استقلالها الذى تمتعت به طول العصور الوسطى ودخلت ضمن ولايات دولة الاتراك العثمانيين.





الفصل الثاني عشر

نشأة الاتراك العثمانيين

أصلهم

الاتراك العثمانيون — كأسلافهم الاتراك السلجوقيين ، وكقبائل الهون الذين زحفوا على أوربا في القرن الخامس — من جنس المغول أو التوراني ، ومهدهم الاصلي وسط آسيا وشمالها . وينتسب الى هذا الجنس أيضاً قبائل التتار الذين زحفوا على شرق أوربا واستوطنوه أثناء القرنين السابع والتاسع

ظهورهم في التاريخ

والاتراك العثمانيون آخر القبائل الآسيوية التي زحفت على أوربا واستوطنتها ، وهم أثبت الدول المغولية التي ظهرت في التاريخ[1]

وقد بدأ تاريخ العثمانيين بحادثة روائية حسنة الشكل . وتدل على ما في أخلاقهم من الشهامة والبطولة . ففي منتصف القرن الثالث عشر كانت قبيلة صغيرة من قبائل وسط آسيا — التي اكتسحها المغول

(١) [illegible] (١٢٠٦ — ١٢٢٧) [illegible] ١٢٥٨

[illegible] (١٢٥٩ — ١٢٩٤) [illegible]

[illegible] (١٣٦٩ — ١٤٠٥) [illegible] سنة ١٥٢٥ [illegible]

تجول بقيادة رئيسها « أرطغرل » فى آسيا الصغرى قرب أنقرة ، إذ رأت جيشين يقتتلان فى معركة قد حمى وطيسها ، فما كان من رجال هذه القبيلة الصغيرة إلا أن اقتحموا ميدان القتال ، مدفوعين بغريزتهم الحربية . آخذين جانب الضعيف من المتحاربين ، فدارت الدائرة على الاقوياء و نصر « ارطغرل » وحلفاؤه الضعاف

وشد ما دهش « ارطغرل » ورجاله عند ما علموا أنهم ما نزلوا إلا لمساعدة بنى قرابتهم — الاترك السلاجقة — ضد جموع المغول المغيرين على سلطنة « قونية » ، ومليكها إذ ذاك « السلطان علاء الدين »

وقد كافأ علاء الدين تلك القبيلة الصغيرة على صنيعها الجميل بان أقطعها جزءاً من مملكته قرب « بروسة » - تلك القبيلة الصغيرة هى أصل الاترك العثمانيين ، ورئيسها « ارطغرل » هذا هو والد عثمان الذى سميت باسمه الامة والدولة

ولما مات « ارطغرل » سنة ١٢٨٨ ، خلفه ابنه الاكبر عثمان وأبدى شجاعة عظيمة فى التغلب على القبائل والقلاع المجاورة له والتى كانت بأيدى الروم . وكان جزاؤه أن رقاه السلطان « علاء الدين » الى رتبة الامراء ، وجعله حاكما مستقلا فى جميع الارضى التى فتحها

وفى عام ١٣٠٠ أغار المغول على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى فقضوا عليها . وتوفى السلطان علاء الدين ، واستقل كل أمير بمقاطعته وأصبح عثمان مستقلا تمام الاستقلال فى إمارته ، فجعل يوسع أملاكه رويداً رويداً حتى قاربت فتوحه « بروسة »

وقد اهتم عثمان بتنظيم جيشه وحكومته . فكبر اسمه وعظم شأن دولته وطار صيت آل عثمان بين الامراء . لذلك كله اعتبر عثمان المؤسس الاول لدولة آل عثمان ولهذ أيضاً انتسبت اليه الدولة والامة

وفي سنة ١٣٢٦ مات عثمان وخلفه ابنه « اورخان » الذى تدرب على أعمال الحرب والحكم فى عهد أبيه . وكان « أورخان » عالى الهمة شجاعاً ، فواصل الحرب حتى استولى على بروسه واتخذها مقراً للدولة الحديثة وبذلك اقترب آل عثمان من القسطنطينية مقر الدولة البوزنطية.

اورخان

ولم يكن بد من استمرار الحرب بين حكومتين إحداهما فتية قوية تريد أن توسع سلطانها والاخرى هرمة آخذة فى الاضمحلال فاستولى اورخان على أزميد، ولكن قبل أن يتمكن العثمانيون من الوصول الى القسطنطينية رأى أورخان ضرورة القيام بعدة اصلاحات كان لها أثر مباشر فى الانتصارات التى كسبها العثمانيون بآسيا الصغرى أولا ثم فى أوربا

وأهم الاصلاحات فى عهد أورخان تنظيمه للجيش وإنشاء فرقة الانكشارية أو اليكجيرية ومعناها الجيش الجديد . وقد كان الجيش فى أول الامر عبارة عن عدد من الفرسان يجتمعون وقت الحرب من غير نظام أو معرفة ثم ينصرفون بعد الموقعة ، فعول اورخان على أن يكون جيشه ثابتاً ووضع نظاماً خاصا لتدريب الجند وأشار عليه أحد وزرائه بتكوين فرقة من الشبان الاسرى من أبناء المسيحيين يجمعونهم ويفصلونهم عن كل ما يذكرهم بوسطهم الاول فينشأون على حب الدين الاسلامى والوطنية العثمانية. لا يعرفون سوى السلطان أباً والحرب والجهاد ديدنا ولما كانوا مقطوعين عن الاهالى صار لا يخشى من عصبيتهم أو تحزبهم

الانكشارية

فأعجب السلطان بهذا المشروع وأمر بتنفيذه وبذلك نشأت طائفة من أقوى الطوائف العسكرية التي ظهرت في التاريخ. وبعد ظهورها من أهم العوامل التي ساعدت الدولة على فتوحها العظيمة في أوربا والشرق. ولما كان مجال الرقي مفتوحاً أمام أفراد هذه الطائفة استبسل الجميع في الحروب وخاضوا غمارها مضحين بكل شيء إلا الشرف. وكان السلطان يجمع لهذه الفرقة

جندي انكشاري

الفاً من أبناء المسيحيين كل سنة. ولما وقفت الفتوح فرضتها الحكومة ضريبة على المسيحيين من رعاياها واستمرت هذه الطائفة عوناً للسلطان والحكومة مدة ثلاثة قرون وصل فيها أفرادها إلى أرقى الدرجات[1].

إصلاحات حربية

ومن إصلاحات أورخان أنه ولى أخاه الأكبر «علاء الدين» الوزارة وأمر بسك العملة وأسس المدارس والتكايا. ولما مات علاء الدين خلفه في الوزارة أكبر أولاده «سليمان» وعهد إليه السلطان في كثير من الحروب فاجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل سنة ١٣٥٧ ومعه عدد من

أول فتح في أوربا

(١) لما ضعفت الحكومة العثمانية في القرن الثامن عشر صار للانكشارية سلطة ونفوذ وكانوا سبباً في وقوع كثير من الفتن والاضطرابات ... في الشعب ... حتى قضى عليهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦.

أوى جنوده ، حتى اذا وصلوا الى الشاطىء الاوربي أخذوا ما كان به من قوارب وعادوا تحت جنح الظلام، ونقلوا عليها جيشهم وكان يبلغ ثلاثين ألفاً فتمكنوا من احتلال «غاليبولي» و بعض مدن اخرى كانت مبدأ فتوح العثمانيين فى اوربا

مراد الاول

وفى سنة ١٣٥٩ مات سليمان باشا ولى العهد فحزن عليه اورخان حزناً مفرطاً ولم يعمر بعده سوى سنة. وتولى بعده ابنه مراد الاول

فتح انقره

واصل مراد الفتوح كأسلافه وكانت فاتحة أعماله ان استولى على « انقره » مقر سلطنة بعض امراء السلاجقة الذين مكثوا مستقلين فى آسيا الصغرى والذين ما لبثوا ان اندمجوا تدريجاً فى دولة العثمانيين . أما

نقل العاصمة

على الساحل الاوربي ففتح مراد مدناً مهمة أولها « أدرنه » التى نقل اليها عاصمته لحصانة موقعها وقربها من الميدان الاوربي . وفتح ايضاً « بيده » وغيرها من المدن وبذلك أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وحالوا دون اتصالها بالممالك المسيحية الاخرى فى البلقان. ولما عظم اتصال أملاك الترك بالساحل

بدء الاسطول

الاوربي رأى السلطان مراد ضرورة انشاء بعض السفن الصغيرة فى بحر مرمره وبذا تكونت نواة القوة البحرية العثمانية

حلف أوربا

ولما رأى المسيحيون ازدياد قوة العثمانيين فى اوربا هالهم الامر وخشوا أن يكتسح الترك شرق أوربا فاجمعوا أمرهم وتكون حلف من ملوك الصرب والبلغار والمجر وكاتبوا البابا وطلبوا اليه أن تساعدهم أوربا ضد تقدم الاتراك، وسار جيش الحلفاء قاصداً « أدرنه » فارتدوا عنها خاسرين . وتقدم الاتراك غرباً يضمون أراضي البلغار ثم الصرب وتقابل الجيشان في

معركة قوصوه

سهول « قوصوه » سنة ١٣٨٩ حيث قامت معركة هائلة من أشهر معارك

التاريخ دافع فيها الصربيون ومن تطوع لمساعدتهم من أهل أوربا دفاع الابطال، واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين مدة من الزمن الى أن ضعفت مقاومة الحلفاء أمام هجمات الاتراك. فانهزم الصرب وقتل ملكهم. وكانت نتيجة هذه الموقعة ان فقدت الصرب والبلغار استقلالهما ومات كثير من امراء وأعيان أوربا

وبينما كان السلطان مراد يتفقد ميدان الحرب بعد الموقعة قام جندى من بين القتلى وطعنه بخنجره فخر صريعاً ومات لوقته ، بعد أن وصل حدود دولته فى أوربا الى شواطىء نهر الطونه

الصاعقة

وخلفه السلطان «بايزيد الأول» الملقب «بالصاعقة» وكان كأسلافه على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والمهارة الحربية ، بدأ أعماله بأن أمن جانب الصرب الذين اضطروا فى حروبهم وفى سبيل صيانة استقلالهم مسالمة و ... تخفيفين للاتحاب . فعين «اسطفان» بن «لازار» الملك

استقلال الصرب

المقتول، ملكا مستقلا على صربيا يحكم البلاد حسب قوانينها وعاداتها بشرط دفع الجزية وتقديم عدد معين من الجنود يشترك مع العثمانيين فى حروبهم . وتأييداً لهذا الاتفاق قبل السلطان أن يتزوج بأخت الملك اسطفان

رد الاوربيين

ثم همّ بتوطيد السلم فى اسيا الصغرى حيث لم تزل بقايا آل سلجوق يثورون ضد الدولة من حين لآخر، فضم كثيراً من مدنهم وأملاكهم ، ثم عاد الى أوربا فواصل الفتح فيها فاحتل «سلانيك» وحصر القسطنطينية . ثم بلغه أن أوربا قد كونت حلفا جديداً اشترك فيه عدد عظيم من فرسان المجر وبولنده وفرنسا والمانيا برئاسة «سجسمند

« Sigismond » ملك المجر . فسار اليهم السلطان بايزيد وأدركهم يحاصرون « يقوبوليس » ، فقض عليهم بايزيد وأوقع بهم شر هزيمة سنة ١٣٩٦ .

وأخذ بايزيد بعد هـذا النصر المبين يخترق بلاد مقدونيا واليونان ويفتح المدن ، وبيناهو يستعد لفتح القسطنطينية إذ وصل اليـه خبر هجوم المغول أو التتار على أسيا الصغرى بقيادة الطاغية « تيمورلنك » أى تيمور الأعرج، فجمع جيوشه وتقابل الجيشان فى سهل أنقرة سنة ١٤٠٢، ولما بدأت المعركة انحاز عدد كبير من جنود بايزيد الاسيويه الى امرائهم الاصليين الذين انضموا الى تيمور بعد أن استولى العثمانيون على بلادهم ، لذلك ضعف جانب العثمانيين فى الموقعة ودارت الدائرة على بايزيد فوقع أسيراً هو وابنه وانكسر العثمانيون شر انكسار . أما بايزيد فمات فى الاسر كمداً سنة ١٤٠٣ ، وسمح تيمور بنقل رفاته الى بروسة ليدفن بجانب أجداده وهذا يدل على أن تيمور كان يكرم بايزيد

وقد كادت هزيمة أنقرة تفضى الى زوال دولة العثمانيين لولا تجزؤ دولة المغول على أثر موت تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وهو فى طريقه الى الصين

وقد تجزأت الدولة بعد بايزيد وعاد أمراء آل سلجوق الى امارتهم كما استقل الصرب والبلغار و الافلاق . وقد زاد حرج الحالة أن أبناء بايزيد تنازعوا فيما بينهم على العرش واستمرت الحروب بينهم الى أن تغلب « محمد الاول » (١٤١٣ — ١٤٢١) فوحد الدولة من جديد وقمع الفتن وقضى على الفوضى والثورات واسترد جميع ما كان للدولة قبل واقعة أنقرة ، وعقد المعاهدات مع امبراطور القسطنطينية والامراء

المسيحيين ، يتفرغ الى توطيد دعائم الدولة فى الداخل . وبينما هو مجد فى
ذلك فاجأته المنية عام ١٤٢١ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وخلفه ابنه
«مراد الثانى» (١٤٢١ — ١٤٥١) فسار وفق الخطة التى ورثها عن أجداده
وهى العمل على توسيع رقعة الدولة ومواصلة الفتوح فى أوربا . وكان
امبراطور القسطنطينية قد اتفق مع مصطفى بن مراد الاول أحد
المطالبين بالعرش ، فزوده بالسفن والجيوش وسيره لمقاتلة أخيه فانحاز
جنوده الى مراد الثانى وقبض على مصطفى وقتل .

وأراد «مراد» أن ينتقم من امبراطور القسطنطينية فأعد جيشا عظيما
وحصر المدينة عام ١٤٢١ وبعد قتال عنيف ارتد عنها العثمانيون لمقاتلة
بعض أمراء آسيا الصغرى حيث انتصر مراد واستأنف فتوحه فى اوربا ،
فقام عليه جيش أوربى عظيم بقيادة القائد المجرى «هنياد» فسار
الجيش مخترقا بلاد البلقان حتى وصل الى «ورنة» على ساحل البحر الاسود
سنة ١٤٤٤ فانتصر العثمانيون انتصارا باهرا وقتل «لاديسلاس» [illegible]
ملك المجر وبولونيا . ومات مراد سنة ١٤٥١ بعد أن ثبت حكم الاتراك
فى أوربا . ولم يقف فى طريقه سوى «اسكندر بك» زعيم البانيا الذى أحسن
الدفاع عن بلاده وقد ساعدته حصانتها ووعورة مسالكها

وخلفه ابنه محمد الثانى أو الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) وهو الذى أحرز
أعظم نصر بفتحه القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وبذلك قضى على الدولة
الرومانية الشرقية التى صارت تعرف بالدولة البوزنطية أو الاغريقية
بعد ان عاشت عشرة قرون بعد سقوط رومة فى الغرب

وقبل ان نختم الكلام عن نشأة الترك يجدر بنا ان نعرف شيئا

عن أسباب ضعف الدولة البوزنطية وعن الخدمات التي قامت بها نحو أوربا .

خدمات الدولة الشرقية لأوربا

أما خدماتها فانها بطبيعة موقعها وقفت تحرس أوربا وتصونها من خطر هجوم الشعوب الشرقية كالفرس والعرب والسلاجقة . وبعملها هذا ساعدت الممالك الحديثة على المضي في سبيل تكوينها السياسي والدستوري . ومن خدمتها للمدنية والعلم انها في الوقت الذي عمت فيه الجهالة في أوربا كانت عاصمتها العظيمة مركزاً حصيناً لحفظ العلوم والفنون وفيها احتفظ بالكنوز الأدبية التي خلفها الاغريق والروم القدماء ومن خدماتها أيضاً أنها مدينة الشعوب الصقلبية التي نزلت بالبلقان ووسط أوربا ونشرت بينهم المذهب الارثوذكسي . وهذا هو سبب ارتباط الشعوب الصقلبية بعضها ببعض ذلك الارتباط المتين

الشعوب الصقلبية

والشعوب الصقلبية نوعان قسمان القسم الشمالي ويشمل البولونيين سكان بولونيه أو بولنده ، و« التشك » في بوهيميا وهؤلاء قد تحولوا في القرن العاشر الى المسيحية بواسطة مرسلين من الغرب فكان مذهبهم الكاثوليكي لا الارثوذكسي . أما صقالبة الجنوب فمنهم الصرب الذين نزلوا بالبلقان في القرن السابع وتحولوا الى المذهب الارثوذكسي في القرن التاسع وأسسوا دولة عظيمة برياسة ملكهم « دوشان » (١٣٣١—١٣٥٥) . ومع أن هذه الدولة تجزأت عقب موته فانها قاومت العثمانيين طويلا كما رأينا . ومنهم أهل البوسنه أو البشناق والهرسك والجبل الاسود .

الشعوب المغولية

أما البلغار فمن الجنس المغولي كالأتراك نزلوا بالبلقان في القرن السابع وتحولوا الى المذهب الارثوذكسي كالصقالبة . وعبر كذلك من

جنس المغولى نزلوا باوربا فى القرن التاسع ولكنهم اعتنقوا المذهب الكاثوليكى . وقد اختاروا منهم ملكا من لاسرة حاكمة فى فرنسا فى القرن الرابع عشر (١٣٠٨) فدخل فيها المدنية العربية . وقد قاموا بدور عظيم فى مكافحة الاتراك وخاصة بعد سقوط القسطنطينية .

أسباب ضعف الدولة

أما أسباب ضعف الدولة البوزنطية فتتلخص فيما يأتى :

(١) ظهور دول شرقية فتية قوية كالفرس والعرب اخذت من الدولة معظم املاكها فى الشرق وجعلت سلطانها قاصراً على شبه جزيرة البلقان وبذلك قلت موارد ثروتها

(٢) ظهور شعوب الصقالبة فى البلقان وتكوينهم ممالك قوية كثيرا ما شنت الغارة على الدولة وحاولت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها .

(٣) كان استيلاء الصليبيين على املاك الدولة كما بينا فى الحرب الصليبية الرابعة سببا لتجزئة املاك الدولة وازدياد الشحناء والاضطرابات الداخلية

(٤) انقسام الاراء الدينية داخل البلاد وخاصة فى القسطنطينية فقسم الاشراف كان يرى ضم الكنيسة الى بابا رومة حتى تنتفع البلاد بمساعدة البابا وملوك اوربا ضد غارة الاتراك . وقسم الشعب يرى وجوب استقلال الكنيسة الارثوذكسية . اضف الى هذه الاسباب التنازع على الملك وانتشار الوباء المعروف «بالموت الاسود» الذى ظهر فى شرق أوربا سنة ١٣٤٧ وفتك بالناس فتكاً ذريعاً مما أثر فى تجنيد الجيوش وجمعها .

فتح القسطنطينية

غير أن من أهم العوامل التى أدت الى سقوط الدولة البوزنطية ظهور الترك وتضييقهم الخناق على الدولة من كل جهة حتى صارت فى آخر امرها قصرة على مدينة القسطنطينية وما حولها . ولما استعد السلطان محمد الثانى للحرب الحاسمة بينه وبين البوزنطيين حاصر القسطنطينية براً وبحراً وكان جيشه يبلغ ٢٥٠٠٠٠ وأما السفن فعددها ٨٠ سفينة واقام حول أسوار المدينة عدداً من المدافع الضخمة التى كانت تقذف كرات عظيمة من الحجر الى مسافات بعيدة وكانت القسطنطينية فى غاية المنعة من الاسوار والبروج

الحصار

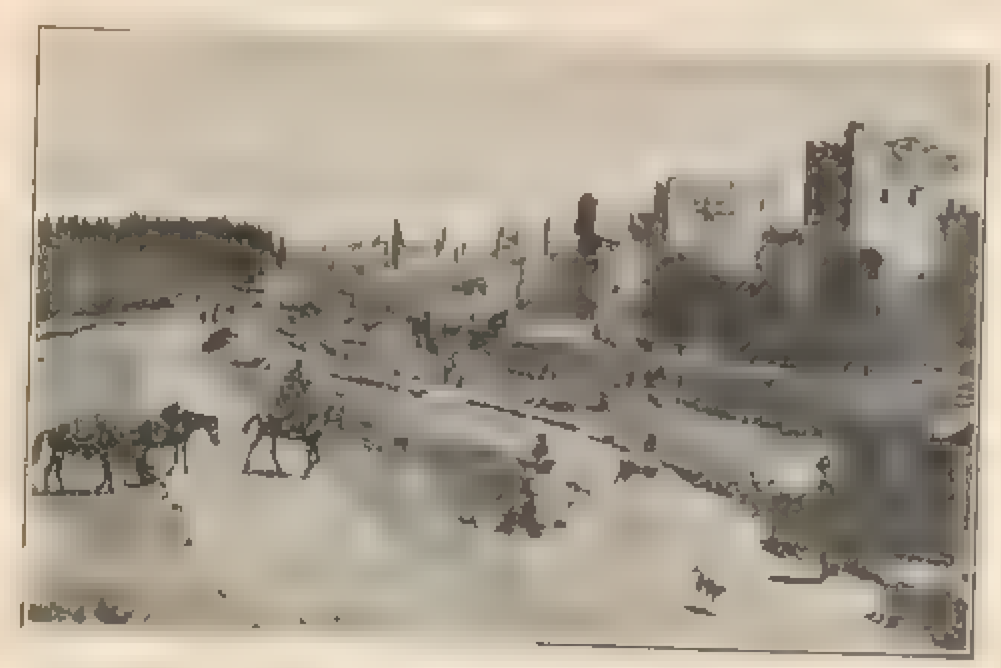
وكان امبراطور القسطنطينية «قسطنطين باليولوغس» آخر الاباطرة رجلا شجاعاً وطد عزمه على ان يموت فى سبيل الدفاع عن عاصمته فاستنجد باوربا فلم تلب الدعوة سوى جمهورية جنوة إذ أرسلت عدداً من السفن عليها بضعة آلاف من الجنود. ولما رأى السلطان دخول الميناء متعذراً لوجود سلاسل ضخمة على باب الميناء المعروف «القرن الذهبى» تحول دون دخول السفن، فكر فى طريقة تغنيه عن اقتحام الميناء من جهة السلسلة وذلك بان يصنع طريقاً من الخشب تنزلق عليه السفن على البر حتى تصل الى القرن الذهبى . وفعلا وجد المحصورون أنفسهم فى صبيحة ذات يوم أمام سبعين سفينة كانت قد نزلت الى الميناء تحت جنح الظلام. واستمر الحصار اكثر من خمسين يوماً ظهر فيها الجنود بسالة نادرة . وقد قتل قسطنطين بينما كان يدفع بنفسه على أسوار المدينة. وفى ٢٩ مايو

تسيير السفن على اليابس

١٤٥٣ هجم الأتراك هجومهم الأخير فتسلقوا الأسوار ودخلوا المدينة
وعملوا السيف فيمن تعرض طريقهم واحتلوا سراى الامبراطور
ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا وكان جمهور المسيحيين وقتاً فى
المعبد ينتظر نزول ملاك من السماء ينقذ المدينة فى الساعة الأخيرة
فقتل العثمانيون منهم وأسروا

تأمين السكان

ولما دخل السلطان المدينة أعلن النهب والسلب ودخل كنيسة
القديسة صوفيا وحولها الى مسجد جامع للمسلمين كما حول بعض كنائس



سور القسطنطينية

أخرى بالمدينة وترك الكنائس الباقية للمسيحيين وأعلن الأهالى أنه
لا يعارضهم فى دينهم وشعائرهم الدينية وأنه يضمن لهم حرية دينهم وأملاكهم

معاملة [illegible]

ودعاهم الى انتخاب بطريق لهم يكون له ولأساقفته السلطة الدينية التامة
فى جميع قضايا المسيحيين المدنية والجنائية وهذه المنح تدل على مقدار
ما أظهره الأتراك من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين

ويعتبر المؤرخون سقوط القسطنطينية فى أيدى الترك من الحوادث العالمية التى تدل على نهاية عهد وبدء عهد جديد، وذلك لعظم أهمية القسطنطينية من جهة، وللنهضة العلمية التى أحدثها علماء الاغريق وذيوع الادبيات الاغريقية القديمة بفضل هجرة بعض علماء الاغريق على أثر تهديد الاتراك للقسطنطينية

بقية أعمال محمد الفاتح

وقد واصل محمد الثانى فتوحه بعد سقوط القسطنطينية فاخضع معظم شبه جزيرة المورة. وتم له اخضاع البوسنة والصرب والبانيا والقرم ولم يقف أمامه سوى «هنادى» القائد المجرى وأمير ترانسلفانيا الذى صده عن بلغراد عام ١٤٥٦. وقد حاول فتح ايطاليا فلم يوفق إلا لاحتلال «أترانتو» عام ١٤٨٠.

ثم مات سنة ١٤٨١ وخلفه ابنه «بايزيد الثانى ١٤٨١ — ١٥١٢» وكان ضعيفاً فثار عليه أخوه الاصغر. وبدأ الانكشارية يتدخلون فى سياسة العرش حتى ارغموا بايزيد على النزول عن العرش وأعلن ابنه سليم الأول ١٥١٢ — ١٥٢٠ الذى هاجم فارس وفتح مصر وضمها للدولة عام ١٥١٧. ونزل له الخليفة العباسى بمصر عن لقب الخلافة فأصبحت له ولمن جاء بعده من سلاطين آل عثمان الزعامة الدينية والادبية فى العالم الاسلامى الشرقى. وقد بلغت الدولة منتهى قوتها فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وبدأت تركيا تتدخل فى السياسة الاوربية الحديثة وتأخذ مكانها بين الدول

الفصل الثالث عشر

حضارة العصور الوسطى فى اوربا

يمكن تقسيم العصور الوسطى بوجه عام الى قسمين :

القسم الاول يبتدىء من سقوط الدولة الرومانية الغربية الى القرن العاشر وتعرف هذه المدة بالعصور المظلمة ، لأنها كانت عصر جهل وفوضى اذ لم تستقر فى غضونها القبائل المتبربرة فى مكان واحد ولم تقم حكومات مركزية قوية . اذ كانت السلطة العليا ضعيفة والحروب الداخلية لا تخمد نارها

وأما القسم الثانى فيبدأ بالقرن الحادى عشر وينتهى بظهور معالم النهضة الاوربية وفيه ظهرت بوادر الرقى على أثر قيام الحروب الصليبية فتكونت المدن واشتد ساعد الملوك ونشأت القوميات الاوربية المختلفة بعد أن اضمحلت قوة الاقطاع وانحط شأن البابوية . وفى هذا العصر ظهرت الجامعات ونمت فكرة البحث العلمى الحديث

الحالة الاجتماعية

لما بدأت غارات المتبربرين أخذت المدن التى كانت عامرة زاهرة فى طول الامبراطورية وعرضها تضعف تدريجياً وتفقد أهميتها بسبب الفوضى التى عمت البلاد فتقلص عمرانها جميعاً وعفت آثار أكثرها وصارت المعيشة فى الأرياف هى السائدة .

وكان مركز الحياة الاجتماعية ضيعة السيد حيث يقيم الشريف أو

الأسقف أو رئيس الدير وكانت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها مستقلة عن بقية العالم تنتج كل ما تحتاج اليه من مأكل وملبس ومسكن، ولما كان أهل كل ضيعة يتعاملون بطريق المبادلة ويدفعون الضرائب من نفس محصولهم لم تدع الضرورة الى كثرة النقد

وقد ولدت العزلة عن العالم شعور الأخاء بين أهل الضيعة الواحدة وقوى فيهم هذا الروح اجتماعهم فى كنيسة واحدة وتبعيتهم لسيد واحد واشتراكهم فى الحضور بمحكمة الضيعة حيث يفصلون فى القضايا ويفضون المشاكل باشراف السيد أو نائبه

طبقات المجتمع

(١) لم يكن الملوك يتميزون عن غيرهم من الأشراف بغير اللقب فلم يكن للملك إيراد ثابت ولا جيش دائم . إذ كان اعتماده فى كل ذلك على ما يمده به أتباعه وكثيراً ما كان يوجد بين أتباع الملك من هو أكثر منه ثروة وأعز نفراً، لا يترددون فى محاربته وانتقاص أملاكه وكسر شوكته — الملوك

(٢) كان كل شريف مستقلا فى قطعته يتصرف فيها كيف شاء، بيده حق الادارة والقضاء والتجنيد وسك العملة . يقضى وقته فى الصيد والحروب التى يثيرها على جيرانه أو أتباعه، ويعيش فى قصر حصين مشيد فى الغالب على تل أو تل يحيط به خندق واسع لا يسهل عبوره إلا بواسطة قنطرة متحركة يخفرها رجال مدججون بالسلاح. وفى قمة القصر برج للدفاع عنه إذا هاجمه عدو وفى الطبقات السفلى منه مخازن لحفظ — الاشراف

المؤن و الذخائر وكل ما يحتاج اليه أهل القصر من مأكل ومشرب وعدة حتى لا يؤخذون على غرة إذا هم حوصروا . وكذلك كان بهذه الطبقات كهوف ضيقة مصفة أعدت لحبس المجرمين أو الاسرى والاعداء، وفى أحد أبهاء القصر كان الشريف يعقد محكمته بحضور أتباعه ويولم الولائم أيام الأعياد والأفراح

الفرسان

(٣) كان للفروسية عهد يربط أفراد هذه الطبقة على تباين درجاتهم وجنسياتهم ولا يعد فارساً الا من يملك إيراداً سنوياً معيناً وجواداً مطهماً ومالا يستغنى عنه الفارس من دروع ورماح وأسياف . وكانوا يمشئون فى خدمة الاشراف حتى ينالوا لقب الفروسية فيقضون معظم وقتهم فى الحروب والنزال

ملابس سيد فى القرن الخامس عشر

(٤) كان السواد الاعظم من القاطنين على الأرض وتعمره من الاتمال من طبقة رقيق الارض وكانوا مرتبطين بالارض وملزمين بالعمل فى أرض السيد الخاصة نحو نصف الاسبوع . ويوزع كل منهم قطعاً صغيرة مبعثرة فى أنحاء الضيعة يمنحه الشريف إياها ويتقاضى عنها جزءاً معيناً مما تنتجه

وكانت حال الطبقة فى منتهى البؤس يعيشون فى أكواخ حقيرة من غرفة واحدة لا يدخلها الهواء والنور إلا من نافذة صغيرة، هى أيضاً المخرج الوحيد للدخان ولا يكاد يوجد بها من الأثاث أكثر مما نراه اليوم عند فقراء الفلاحين فى بلادنا



ملابس سيدة فى القرن التاسع



ملابس سيدة فى القرن الخامس عشر

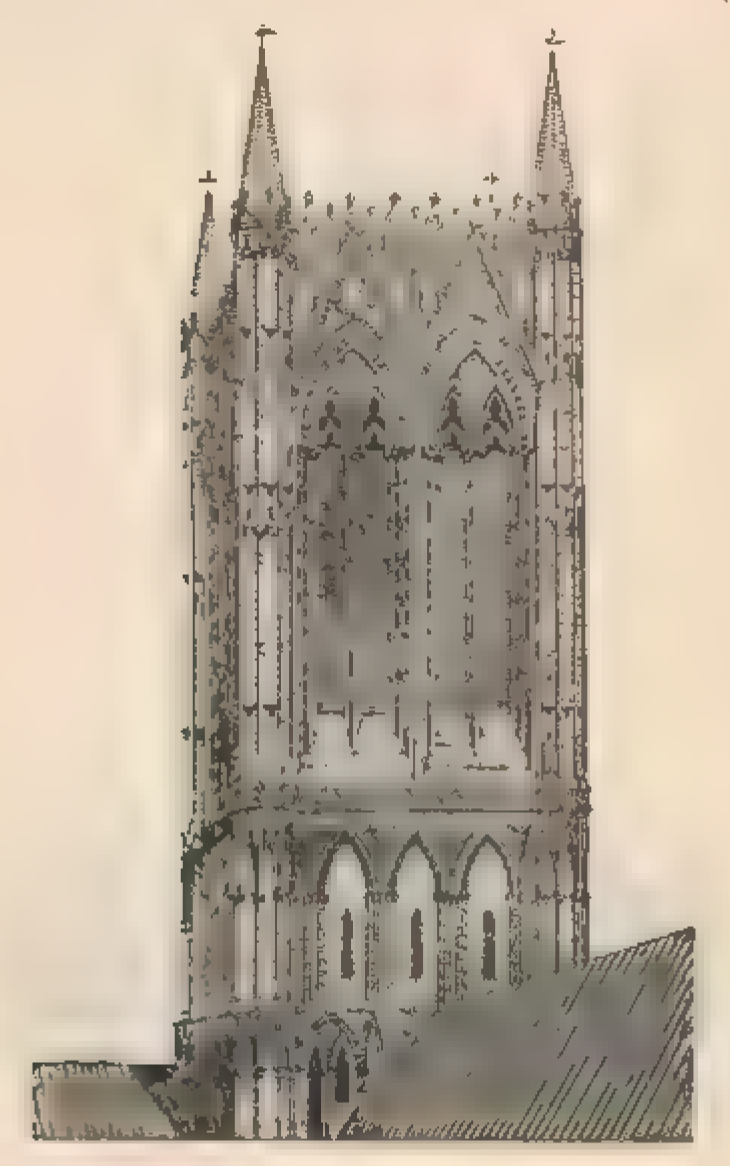
وظل رقيق الأراضى على حالهم هذه حتى حدثت الحروب الصليبية ونشطت حركة التجارة وزاد النقد، فاستطاع الأرقاء أن يبيعوا ما يزيد على حاجتهم فى أسواق المدن المجاورة، فما أحسوا بما يعود عليهم

من هذه الأرباح رغبوا في الاتفاق مع السيد على أداء مبلغ معين بدل ما يقومون له به من الخدمات حتى يتفرغوا لأعمالهم الخاصة . وبدأ هذا النظام يتلاشى في القرن الثاني عشر وإن بقيت آثارها في بعض الممالك الى القرن الثامن عشر بل التاسع عشر

كانت المدن عند اليونان والرومان مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعقلية بل والسياسية ولا تزال المدن في عصرنا منبعث هذه القوى وعماد الدول ولا تقوم الحياة الراقية نفسها بدونها. وقد بدأت تظهر المدن كثيرة في العصور الوسطى من أول القرن الحادي عشر . تتألف حول ضيعة السيد أو حول حصنه أو قرب دير كبير. ولما كان الدافع الأول لتكوين المدينة حماية أهلها وللاجئين اليها من غارات الأعداء دعت الحاجة الى تحصينها بأسوار تكون دروعاً لها . ولهذا السبب أيضاً كانت بيوتها متلاصقة وأزقتها ضيقة على عكس ما كانت عليه المدن الرومانية من السعة والفسحة. فجاءت مدن العصور الوسطى خلواً من المباني العامة كالحمامات والمدرجات والميادين واقتصرت على فضاء صغير تعقد فيه السوق . ولم تستطع المدن أن ترقى إلا بعد أن تحررت من تبعيتها للسيد وأقامت من أهلها حكومة محلية موفقة لمصالحهم وأفكارهم

ومن مميزات المدينة تشييد برج شاهق يوضع فيه ناقوس كبير ويقوم رجال بحراسته ليل نهار يدقونه ساعة الخطر ، وكان البرج يعد رمزاً لاستقلال المدينة . وبدأ أكثر المدن يقيم منذ القرن الرابع عشر قصوراً بلدية تعقد فيها الاجتماعات العامة ولا يزال السياح يؤمون

هده القصور كما يؤمون الكنائس الجامعة التى بقيت من آثار المدن فى تلك الأيام



برج كتدرائية سكس بوهنا

وتحت اشراف نقابة التجار والصناع التى قامت لمدينة على كاهلها نمت نقابات فرعية عدة لكل صنعة نقابة و حماية أفراد المهنة وحرمان غير الاعضاء بالاشتغال بها. فكانت النقابة تحدد عدد من يتحقون بها وسنى التمرين فى حرفتها الخاصة وعدد « الصبيان » لذين يباح لكل

« معلم » قبولهم، كما كانت تحدد ساعات العمل وأسعار السلع في الاسواق وقد ادت هذه النقابات للمدن خدمات قيمة في عصر سادت فيه الفوضى واشتد ساعد الاشراف فهي التي حمت حرية المدينة من عسف الامراء والاشراف المشاغبين



مدينة بروج في بلجيكا

التجارة

لما ضمحلت الدولة الرومانية قلت العناية بالطرق التي كانت شرايين التجارة من أقصى الدولة الى اقصاها واضطرب الأمن بسبب توغل المتبربرين في انحاء الدولة فكسدت التجارة والصناعة. فما زالت الدولة

الرومانية العالمية وحلت محلها أمارات صنئية محلية واكتفت كل بما تنتجه أهملت الطرق نهائياً ووقفت حركة التبادل وقل النقد أما فى ايطاليا فلم تنعدم التجارة جملة بل بقيت فيه مدن كالبندقية وجنوة تقوم بجزء عظيم من تجارة البحر الابيض المتوسط وقد رأينا هذه المدن تقدم للصليبيين وحجاج مايحتاجون اليه من سفن ومؤن تكفل لهم الوصول الى الاراضى المقدسة ومنها يعود تجار هذه المدن محملين بنفائس الشرق، وسرعان ما أقاموا محطات تجارية على سواحل بحر المشرق واتصلوا بتجار القوافل الذين كانوا يجلبون السلع النادرة من بلاد العرب والهند والصين

مدن ايطاليا

وما زاد نشاط التجارة فى جنوب أوربا عامة وايطاليا وجنوب فرنسا خاصة وجود العرب فى شمال افريقية وفى الاندلس وصقلية. ومن الجنوب سرت التجارة الى بقية اوروبا فجعل التجار يعرضون نفائس الشرق فى الاسواق، فحركت رغبة الاهلين فى الحصول عليها ودعاهم هذا أن ينتجوا فوق مايحتاج إليه مجتمعهم الصغير ليبيعوا الزائد ويشتروا بثمنه تلك النفائس الجذابة من منسوجات حريرية وأنسجة قيمة واعطار نادرة وآنية من الصين وتوابل من جزر الهند الشرقية

مدن الشرق

ولما وصلت هذه المصنوعات الى أيدى الغربيين حاولوا تقليدها فقامت صناعة الحرير والزجاج والمخمل واستعملت الاصباغ الشرقية وبدأت المدن الفمنكية بتصدير المنسوجات الصوفية الى الشرق. وماجاء القرن الثالث عشر حتى تكونت مراكز مهمة للتجارة مثل همبرج ولوبك وبرمن فى شمال ألمانيا ومثل نورمبرج واجزبرج فى جنوبها وعلى الطريق التجارى بين ايطاليا والشمال ومثل غنت وبروج فى الاراضى المنخفضة

قيود التجارة في العصور الوسطى

ولم تكن التجارة في تلك العصور حرة كما هي الآن بل كان المتعارف أن لكل سلعة ثمناً عادلا هو ثمن المواد نفسها وتكاليفها واتعاب صانعها من غير نظر الى قانون العرض والطلب، ولهذا كان كل منتج ملزماً أن يبيع سلعته للمستهلك مباشرة دون وساطة تاجر الجملة

ولا يقل عن هذا التقييد اعتقاد الناس أنه لا يجوز أخذ ربح على النقود المسلفة وأن هذا يعد رباً، وقد حرمته الكنيسة في العصور الوسطى تحريماً باتاً فمنع المسيحيون من التعامل بالربا، ولما كان قرض المال ضرورياً لترقية الصناعة والتجارة لجأ المنتجون الى اليهود. وكثيراً ما كانوا يفرضون على المدينين رباً فاحشاً يتغاضى عنه الملوك نظير ما يفرضونه على هؤلاء المرابين من الاتاوات، فلا عجب ان أصبح اليهود في غرب أوروبا موضع السخط والاضطهاد وكانوا يميزون عن غيرهم بشارات خاصة ويضطرون للاقامة في حي خاص من كل مدينة

على أن تحريم الربح أخذ شكلا جديداً حين أباحت الكنيسة قراض النقود للمنتجين الذين يستغلونها مع بقائه محرماً على غير المنتجين. وعلى أثر ذلك ظهرت البيوت المالية في لمبارديه وقامت شركات تجارية، وتداعت العقبات التي عطلت التجارة في العصور المظلمة

ومن القيود الثقيلة التي عاقت سير التجارة في العصور الوسطى اضطرار التاجر أن يدفع عوائد وضرائب متباينة على الطرق العامة وعلى رؤوس القناطر والمعابر ودخول المدن وعبور حدود كل مقاطعة فضلا عما يحدث من ضياع الوقت والنهب. ومنها اختلاف النقد من جهة الى أخرى في حدود المملكة الواحدة والأخطار العظيمة التي كانت تحيط

بالتجارة فى البحر من هجوم القرصان وقلة المنائر على الشواطئ وسوء حالة الثغور وقلة الخياض

وللتغلب على هذه المصاعب تكونت عصابات من المدن أهمها عصابة «مدن الهنسا» فى شمال ألمانيا التى بلغت شأواً عظيماً من القرن الرابع عشر الى أول السادس عشر. وكانت تضم نحو سبعين مدينة أكثرها على ساحل بحر البلطيق وشواطئ نهر الرين ولها محطات فى أكثر الممالك التجارية، وأشهر مدن الهنسا لوبك وكولونى ودنزج وبرنزويك. وقد أنشأت أسطولا للقضاء على القرصان كما كان لها سفراء يمثلونها فى لندن وغيرها، وصارت عصابة الهنسا صاحبة السيطرة التجارية فى شمال وغرب أوروبا الى أن كشفت أمريكا

ولما عظمت ثروة التجار زاحموا الطبقتين الممتازتين فزاحموا رجال الدين فى تحصيل العلم ونافسوا الاشراف فى الترفه والتنعم، فاهتم الكتاب منذ القرن الرابع عشر بسد حاجة هذه الطبقة الجديدة للعلم فارتفع شأنها وجعل الملوك يعنون برغباتها ويحسبون حسابها فى سياستهم. ويعتبر ظهور الطبقة الوسطى من أكبر العوامل فى التاريخ الحديث

الحالة العلمية فى العصور الوسطى

على الرغم من فناء الدولة الرومانية الغربية بقيت اللغة اللاتينية مستعملة طول العصر الوسيط فكانت تستعمل فى الكنائس وفى الجامعات وكتابة المعاهدات والتقاضى والتأليف، فلا عجب اذ أصبحت معرفتها معياراً لما يبلغه كل شخص من التربية والتعليم. وبفضل استعمال اللغة

اللاتينية فى غرب أوروبا، بقيت شعوبها مرتبطة وسهل على البابا الاتصال بجميع رجال الدين واستطاع الرهبان والتجار وطلاب العلم أن يتنقلوا من جهة الى أخرى غير حاسبين حسابا لاختلاف اللغات المحلية ما دام فى قدرتهم أن يتفاهموا باللغة اللاتينية . على أنه لا يصح أن يتبادر الى الذهن أن اللاتينية استمرت إذ ذاك كانت اللاتينية التى كان يتكلمها الرومان أيام عظمتهم. لأن هذه لها قواعد وأصول صعب على المتبربرين فى العصر الوسيط أن يفقهوها، فجعلت لغة الكلام تبعد تدريجا عن اللغة اللاتينية الصحيحة وتتفرع إلى لهجات عدة فى كل جهة لهجة خاصة.

صور ... الحديثة

وما زالت هذه اللهجات تنمو وتبعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة لغة قائمة بنفسها رغم أنها جميعا مشتقة ومؤسسة على اللغة اللاتينية، وأهم هذه اللغات الطليانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية

أما الاقاليم التى لم تتأثر كثيرا بحضارة الرومان أو لم تدخل فى حدود الدولة يوما من الأيام، فبقيت على لهجاتها الجرمانية الأصلية وقويت هذه اللهجات المتفرقة حتى نشأت منها اللغات الالمانية والدانمرقية والهولندية والانجليزية وغيرها

وكل هذه اللهجات سواء منها المؤسسة على الجرمانية والمؤسسة على اللاتينية بقيت مستعملة فى الكلام — من غير أن تكتب — مدة طويلة وتغنى بها الشعراء والرواة وتناقل الشعب قصائدهم وقصصهم بطريق السماع والحفظ ولم يكتب بها شىء قبل عهد شرلمان

وأول ما ظهر من اللغات الجرمانية المكتوبة الانجليزية السكسونية فقد دون بها فى نهاية القرن الثامن وشجع الكتابة بها الملك « الفريد

الأكبر » ومن ذلك الوقت ظهر السجل « لأنجليزى السكسونى »
واستمر تدوين الحوادث بها إلى سنة ١١٥٤ ، وكانت اللغة الانجليزية
السكسونية فى ذلك الوقت تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة الانجليزية
الحالية ولم تقرب منها قرباً محسوساً إلا فى عهد ادورد الاول فى أول
القرن الرابع عشر

وأما اللغات التى ترجع فى أصلها الى اللاتينية فكان أكثرها شيوعاً
اللغة الفرنسية ولم تكن لغة واحدة إذ ذاك بل كان فى النصف الشمالى
لغة تختلف عن لغة النصف الجنوبى ، وبكلتيهما تغنى الشعراء والعامة وقصوا
تواريخ أبطالهم . ولم يدون شىء بهاتين اللغتين قبل أول القرن الثانى عشر .
وأهم ما دون أنشودة « رولند » أحد فرسان شرلمان الذى مات فى
جبال البرانس أثناء عودته من قتال المسلمين فى أسبانيا

وما لبثت لغة الجنوب « بروفنسال Provençal » أن بلغت أوج الشعر .
عظمتها حين ظهر جماعة « التروبادور Troubadours » وقصدوا القصائد
ووضعوا الأغانى وترددوا على قصور الأشراف يوقعون أشعارهم على
نغمات الآلات وخاصة القيثارة . وبهؤلاء الشعراء ازهرت اللغة والأدب
والحضارة فى جنوب فرنسا وخصوصاً فى أمارة « تولوز » فى اوائل
القرن الثالث عشر

وظهر فى ألمانيا جماعة يشبهون « التروبادور » ويسمون « مسنجرس
Minnesingers » أنشدوا القصائد الغرامية وعظم شأنهم فى القرن
الثالث عشر أيضاً

وعلى الرغم من التقدم اللغوى الذى سبق ذكره كان الجهل متفشياً

حال العصر الوسيط

في العصر الوسيط لأن علوم القدماء وآدابهم كان مدونه بإحدى اللغتين الاغريقية واللاتينية ولم يكن لها تراجم بلغات حديثة. ولما كانت معرفة هاتين اللغتين مقصورة على القليل النادر من الناس بقيت العلوم والآداب كنوزاً ممتقة لا تعرف قيمتها بل لا يحس لها وجود. فكان مبلغ علمهم بالتاريخ عبارة عن تصورات اخترعها لوهم وجسمها الخيال تدور حول أشخاص من العظماء السابقين كالاسكندر وقيصر وشرلمان

وأما من حيث العلوم الطبيعية فكانت أدمغتهم محشوة بالخرافات إذ كانوا يعتقدون بوجود حيوانات كالغول والعنقاء ووحيد القرن

الفنون

كانت الفنون تابعة لأفكار العصر وعاداته وأولها ظهوراً التصوير فكان الرهبان ينسخون الكتب بأيديهم ويحلون صدورها وبعض صفحاتها بصور صغيرة تمثل موضوعاً دينياً على الأكثر، وكانوا يستعملون في صورها الألوان البهجة ويسرفون في اللون الذهبي، وقد ما عني الرهبان بتحليته صدور الكتب الدينية التي يتناولها كبار القساوسة، وتدرجوا من ذلك الى تصوير الرسل والقديسين والأسرة المقدسة وبعض المناظر المذكورة في الانجيل كالجنة والجحيم والشيطان. حثاً على العفة وتنفيراً من الرذيلة

كذلك كانت الكتب غير الدينية تحلى بصور مألوفة مأخوذة من الحياة اليومية أو بصور خيالية. وقد شاع أيضاً تزيين هوامش الكتب والحروف الاولى من كل فصل من فصولها بأشكال هندسية وصور بديعة منقولة عن الطبيعة كالازهار والاوراق والاشجار. ولم يكن المصور

حراً في صناعته بل كان مقيداً بما جرى به العرف من أن لكل لون
استعمالا خاصاً ولكل شكل وضعاً معيناً لا بد من مراعاته



[illegible]

أما الحفر فكان مقصوراً على زخرفة البناء دون تجاوز ذلك الى الحفر
تمثيل جسم الانسان كما كان يفعل القدماء فلذلك كان الحفر في العصر

الفن — الوسيط خادماً لفن العمارة . وبلغت العمارة إذ ذاك شأواً بعيداً إذ كانت الشعوب بل المدن تتبارى في تشييد الكنائس الجامعة التي لا تزال موضع عجب العصر الحاضر ، وكان النمط الشائع في البناء الى القرن الثالث عشر هو النمط الرومانى وأهم مميزاته العقود المستديرة والعمد الاسطوانية الضخمة والقباب الشاهقة والنوافذ الصغيرة المقوسة . وأما بعد ذلك الوقت فانتشر استعمال النمط القوطى ويمتاز بالعقود المخمسة المتداخلة ، والدعائم البارزة : وتفنن المصورون فى زخرفة الكنائس بأنواع شتى من صور وتهاويل وتماثيل أكثرها غريب ذو روعة

ويلي الكنائس في الاهمية دور البلديات التي أقيمت في القرن الرابع عشر على النمط القوطي أيضاً . أما قصور الاشراف فلم يراع فيها سوى المتانة والمنعة فكانت جدرانها سميكة ونوافذها صغيرة وبهوها خربة من كل زخرف

ظهور الجامعات

استمر الناس في جهلهم حتى أوائل القرن الثانى عشر حين ظهر ابيلار — شاب من أهل رطانية غربى فرنسا اسمه « ابيلارد Abelard » ، وأخذ يجوب أنحاء البلاد طلباً للعلم الذي كان مداره قاصراً على الفلسفة والمنطق والمناظرة والجدل والبيان وعلوم الدين واستقر به المقام في باريس حيث حضر على أساتذتها واشترك معهم في الجدل . وما لبث أن بدأ يحاضر فالتف حوله آلاف من الطلبة . وكان مبدؤه في التعليم مناقشة ما يعرضه على تلاميذه من الحقائق ، حتى الدينية منها ، مناقشة عقلية بحتة فما وافق

العقل قبله، وما خالفه رفضه بغض النظر عما جاء في كتب الدين. وبظهور «ابيلارد» ظهرت طريقة تحكيم العقل واستعمال الأسئلة للوصول الى الحقيقة واتباع قواعد منطق ارسططاليس. وقد أثارت طريقته هذه سخط رجال الدين وانبرى لمعارضته القديس «برنارد St. Bernard» الذي كان يعتقد صحة الكتابات الدينية دون مناقشة، وما زال ابيلارد يعاني هذه المعارضة حتى مات سنة ١١٤٢

وقد مهد ابيلارد السبيل لظهور جامعة باريس وذلك لأن حماسته مدة حياته للعلم وحسن أسلوبه وطريقة البحث التي سلكها - كل ذلك رغب الناس في تلقي العلم، فكثر المعلمون والمتعلمون في باريس ورأوا من مصالحهم أن يكونوا نقابة تدفع عن حقوقهم وتقيهم شر العدوان شأن غيرهم من الطوائف في العصر الوسيط. وتم تأليف هذه النقابة قبل نهاية القرن الثاني عشر وسميت «جامعة Universitas» ومنها أخذت التسمية الحديثة لمعاهد العلم الكبرى

وقد تسابق الباباوات وملوك فرنسا في منح الجامعات حقوقا وامتيازات تشابه ما كان للقسس والرهبان على اعتقاد أن العلم من خواص رجال الدين

وبينما أبيلارد وبرنارد يتجادلان بدأ معهد للعلم في بولونيا في شمال ايطاليا ولم يشتغل علماء بولونيا بالعلوم الدينية كما كانت الحال في جامعة باريس، بل تفرغوا لدراسة القانون الروماني وقانون الكنيسة. فلما وضع الراهب «جراشيان Gratian» سنة ١١٤٣ مجموعة لقوانين الكنيسة دراسة [illegible] خالية من التناقض والتكرار وشاملة لما أصدره الباباوات والمجالس الملية

من القرون الديبة، هرع الطلبة الى بولونيا من كل صقع لارتشاف علم القانون بفرعيه ونشأت جامعة بولونيا على أثر ذلك

وفي نحو هذا الوقت نشأت جامعة « اكسفورد » في حكم هنري الثاني وربما كان سبب نشأتها انفصال جماعة من الطلبة والمدرسين الانجليز عن جامعة باريس وتبعها جامعة « كمبردج » في انجلترا وجامعات أخرى في فرنسا وايطاليا واسبانيا في القرن الثالث عشر . أما جامعات ألمانيا فقد حدثت متأخرة ولم تبلغ شأناً يذكر قبل القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . وقد اتخذت جامعات شمال أوربا جامعة باريس نموذجاً لها بينما حذت جامعات الجنوب حذو جامعة بولونيا

ولم يكن للجامعة بناء معين بل كان الطلبة والمعلمون يجتمعون حيثما شاءوا في الحي الذي يقيمون فيه ، ولم تكن الحاجة ماسة الى معامل أو مكاتب أو مقاعد لأن كل ما كان مطلوباً هو نسخة من الكتاب الذي يدرس ، فيجلس الطلبة على الأرض حول استاذهم ويأخذ هذا في تفسير الكتاب جملة جملة بينما الطلبة يستمعون ويأخذون مذكرات أحياناً كما لا يزال متبعاً في الأزهر . ومتى أتم الطالب مدة في تلقي العلم امتحنه أساتذته فاذا نجح أعطى درجة تخول له التدريس . وقد تطلع الى الدرجات العلمية من الجامعات أناس لا يريدون الاشتغال بالتعليم، فصارت الدرجات شرفاً يصبو اليه محبو العلم

وكانت مواد الدراسة في الغالب قاصرة على كتب ارسطاطاليس باللغة اللاتينية ، وكان ارسطاليس موضع اعجاب العلماء حتى أن دراسة كتبه في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق وغيرها من الموضوعات

مختلفة التي طرقها كان يعد عنده ما وصل اليه العقل البشري . ولم يكن
معروفاً من هذه الكتب أولاً سوى المنطق ولما جاء القرن الثالث عشر
كانت قد وصلت الى أوربا بقية كتابات ارسططاليس عن طريق العرب
في اسبانيا أو في جنوب ايطاليا أو من طريق قسطنطينية

وكان التلاميذ ينصرفون الى ثلاثة أمور مهمة . أولها فهم الترجمة
اللاتينية الركيكة التي كانت بيدهم ، وثانيها تطبيق تعاليم العرب عليها .
وثالثها التوفيق بين ما كتبه ارسططاليس وبين ما جاء في الانجيل

وكان الناس قد فتنوا بعظمة « المعلم الأول » وخيل اليهم ما أتيح
له من العلوم التي كانوا يعرفونها منتهى ما وصل اليه العقل الانساني فلقبوه
« الفيلسوف الأوحد » ورفعوه الى مستوى الانجيل والقانون الروماني

مولد البحث العلمي

حتى أن القرن الثالث عشر لم يخل من علماء يخالفون أهل عصرهم
في الاعتماد كل الاعتماد على ارسططاليس . ففي ذلك العصر راهب انجليزي من
الاخوان الفرنسسكان اسمه « روجر بيكون Roger Bacon » المتوفى
سنة ١٢٩٠ درس علوم العرب ونشر عن طريقهم العلمية فجهر بلزوم ترك
كتابات ارسططاليس ونبذ الجمود جانباً . ودعا الناس الى دراسة طبيعة
الاشياء من نبات وحيوان ، وملاحظة تركيبها وغرائزها وخطأ الفكرة
القائلة أن ارسططاليس بلغ غاية ما يمكن أن تصل اليه الفطنة البشرية ، لأن
العلم لا نهاية له ولأن الانسان لو عاش الى الابد لما أحاط علماً بكل شيء ،
وبيّن أن الطريقة المثلى للوصول الى حقائق العلم انما هي اختبار الاشياء
كما هي في حالتها الطبيعية واجراء التجارب الكثيرة عليها ، وأن هذه
الطريقة أفضل ألف مرة من الانكباب على التراجم المحرفة للكتب

رستطاليس. وبالتدريج شاعت طريقة البحث العلمي الجديدة وقضي على طريقة علماء العصر الأوسط

مظاهر التقدم العام في أواخر العصور الوسطى

(١) **القوميات الجديدة**: كانت الدولة الرومانية تحكم غرب أوربا كله وحدة لا نرى فيه اختلافا بين أهالي الأمم المختلفة ولا تعصبهم لأممهم الخاصة. ثم حل محلها حكومات محلية وضاع بها عقب هجوم المتبربرين. ولكن في ذلك قيام دولة شرلمان ولما تفرقت مملكته وقوي أمراء الإقطاع. وبعد ذلك أخذت قوة الملوك تزداد واتحد معهم أهل المدن ونشأت حكومات وطنية تعمل على استقلالها التام فيما عدا إيطاليا وألمانيا.

(٢) **تفوق القومية على الكنيسة**: بعد أن كانت الكنيسة تعتبر نفسها وارثة الدولة الرومانية وبعد أن كان لها السيطرة في كل غرب أوربا خصوصا في عهد غريغوري السابع و«إنوسنت الثالث» في نهاية القرن الثاني عشر حتى ظهرت القوميات الحديثة وشرعت تتخلص من سلطان البابوية وتقصر الكنيسة على الواجبات الدينية وتنزع منها ما عدا ذلك من السلطة كما فعلت فرنسا في حكم فيليب الرابع وإنجلترا في حكم إدوارد الأول

(٣) **ظهور الطبقة الوسطى**: لما اتسعت حركة التجارة وتحرير الرقيق ونمت المدن استطاع أهلوها من تجار وصناع أن يحصلوا على الثروة التي بها تمكنوا من ترقية شئونهم الاجتماعية والعقلية حتى أصبحوا ذوي نفوذ عظيم إلى جانب الأشراف والفرسان ورجال الدين

٤) **ظهور آداب اللغات الحديثة**: كانت اللاتينية لغة الكتابة في نهاية القرن العاشر. فلما ترعرعت النهضات القومية أخذ الكتاب بعد القرن الحادي عشر يدونون بها فصار في وسع عامة الشعب أن يفهموا ما دون من حكايات وأشعار وأناشيد. وكذلك استطاع غير رجال الدين أن يصيروا في ميدان الكتابة والعلم ندين كفاة، وفضلا عن القسوس والرهبان وأدت رغبة الناس في تحصيل العلوم إلى قيام الجامعات وهي من أهم مميزات القرون الحديثة.

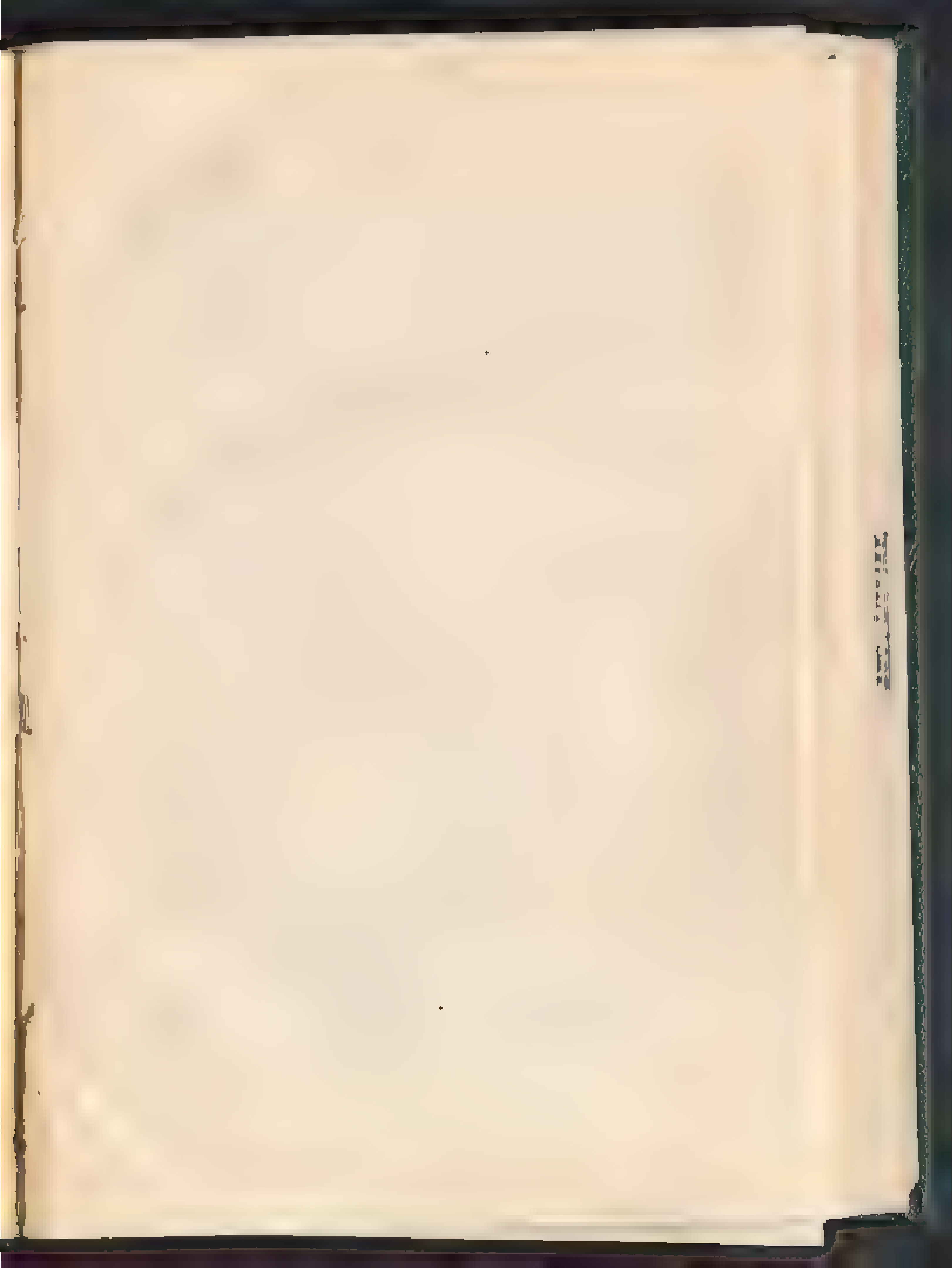
ومن هذه الجامعات نشأت طريقة البحث العلمي التي فتحت باب الاكتشاف والاختراع أمام علماء العصر الحديث فاستطاعوا الكشف عن أسرار الطبيعة وفهمها بكيفية تامة لم يسبق لها مثيل.




أوربا سنة ٣٥٠م
الصقالبة
الوندال
غالة
اسبانيا
البحر الأسود
البحر المتوسط
موريتانيا
مصر




هجوم القبائل المتبربرة
بحر الشمال
البحر الأسود




دولة شرلمان
وتقسيمها سنة ٨٤٣
بحر الشمال
مملكة الانجلوسكسون
لندره
سكسونيا
بوهيميا
اكتانيا
البحر المتوسط
الصرب



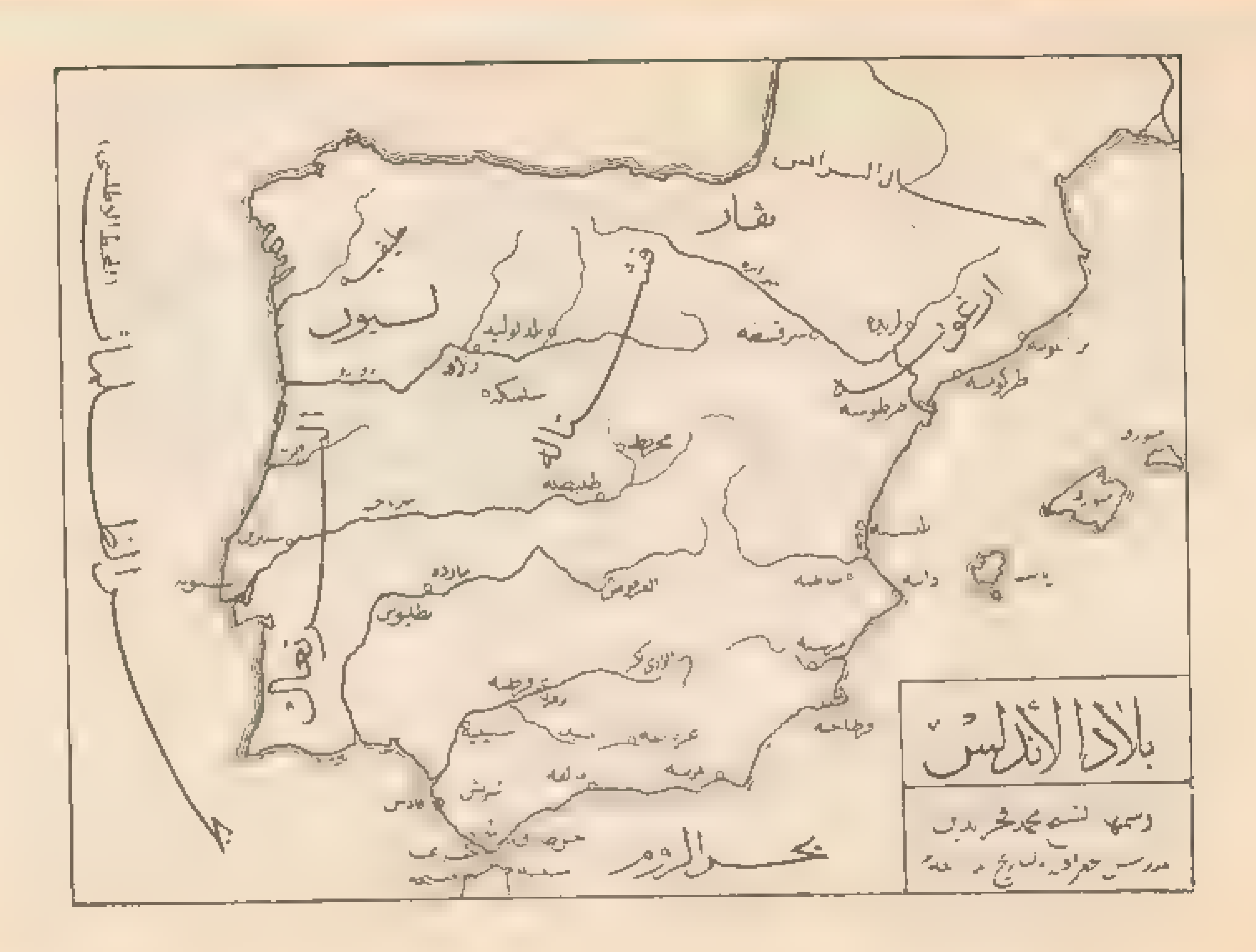


الأمبراطورية في عهد أتوا الأكبر
بحر الشمال
ساكسونيا
الصرب
بلغاريا
الدولة العربية
البحر المتوسط

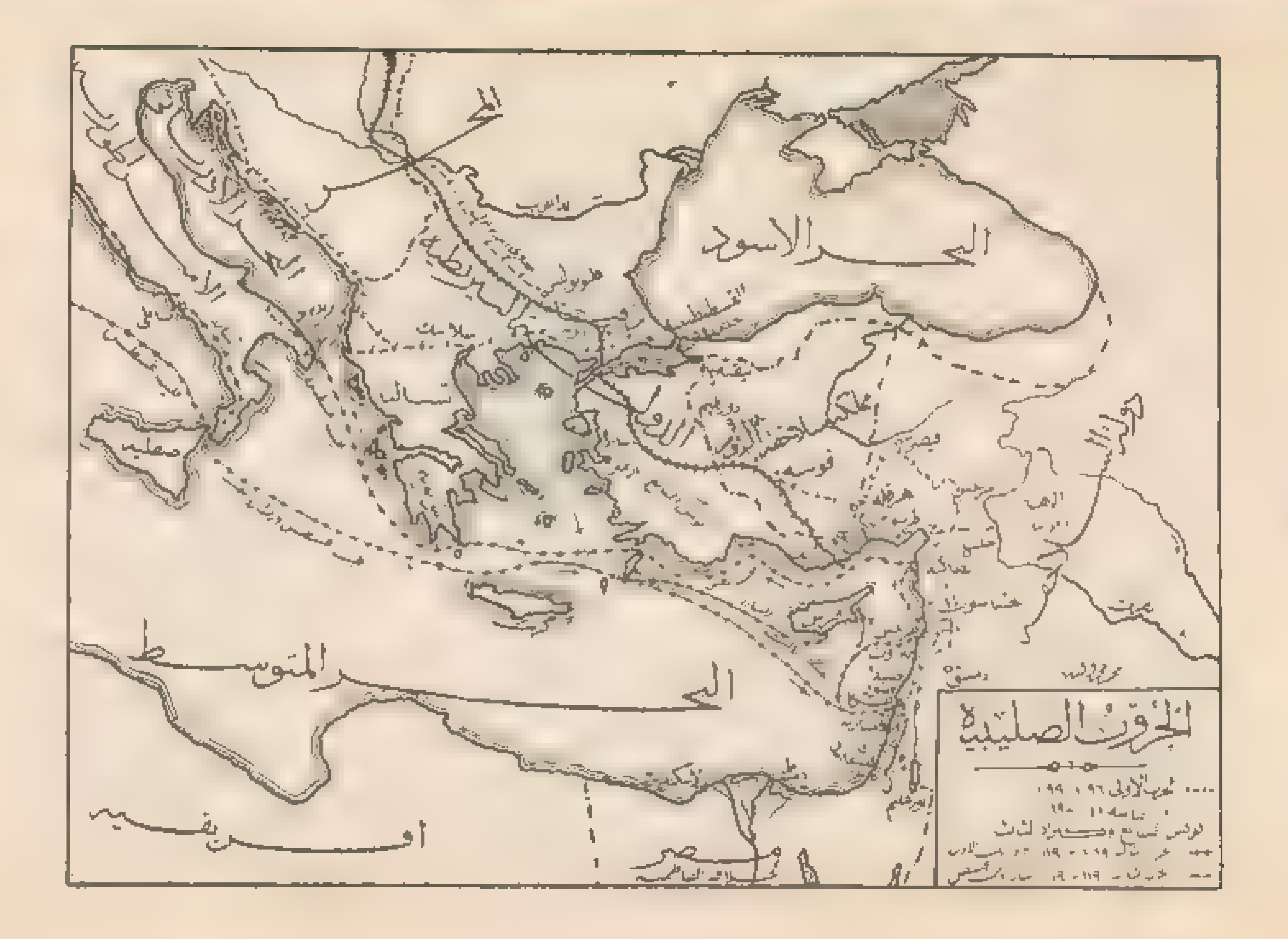



الدولة الإسلامية بالمشرق
بحر الخزر
بحر الروم
دولة الروم القياصرة
دولة الفرس الاكاسرة
خراسان
كرمان
مكران
السند
البحر الاخضر
جزيرة العرب
مصر
الترك
ارمينية
اذربيجان
اران
الموصل
اصفهان
فارس
طخارستان
سجستان
كابل
قندهار
عمان
مكة المكرمة
اسوان
الديبل




بلاد الأندلس
رسمها نسيم محمد محمد بدر
مدرس جغرافيه وتاريخ
بحر الظلمات
(المحيط الاطلسي)
بحر الروم
جبال البرتات
نفار
جليقيه
ليون
قشتاله
ارغون
سرقسطه
طرطوشه
طركونه
سمورة
شلمنكه
طليطله
مجريط
لشبونه
ماردة
بطليوس
بلنسيه
دانيه
شاطبه
مرسيه
قرطبه
غرناطه
اشبيليه
المريه
قادس
شريش




الحروب الصليبية
البحر الاسود
البحر المتوسط
افريقية
صقلية
القسطنطينية
مصر




حرب مائة السنة
معاهدة بريتينى سنة ١٣٦٠
بحر الشمال
انجلترة
بحر المانش
برطانيه
فرنسا
انجو
بواتيه
بواتو
ليموزين
اكتينيه
غسقونيه
ارغونة
البحر المتوسط

Date Due

